المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

مباحث الإعجاز البلاغي للقرآن في كتب دلائل النبوة

حتى نهاية القرن الخامس الهجري

دراسةً وتقويماً

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة العربية

إعداد المعيد

منصور بن عمر بن محمد السحيباني

إشراف الأستاذ الدكتور

محمد بن علي بن محمد الصامل

الأستاذ في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

بكلية اللغة العربية بالرياض

العام الجامعي: ١٤٢٩/ ١٤٣٠هـ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمد لله، نحمدُه ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله، وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، صلواتُ الله وسلامُه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فلقد خلق الله سبحانه وتعالى عبادَه لحكمة جليلة وأمر عظيم، خلقهم لعبادته وحدَه لا شريك له، فلم يتركهم سدى أو يُوجدهم عبثا، بل أرسل إليهم أنبياءه ورسله واسطةً بينه وبينهم، يُبلغونهم أوامره ونواهيه، ويُبينون لهم طريق الهدى والضلال.

ومن هؤلاء الأنبياء رسولُ الهدى وخاتم المرسلين محمد ﷺ، الذي أُرسل لجميع البشر عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، ولذا كانت آياتُ نبوته متنوعةً للذين أرسل إليهم ومعروفةً لهم، ومناسبة لجميع الناس على اختلاف معارفهم وعقولهم واستعداداتهم، وأعظم تلك الآيات على الإطلاق: القرآن العظيم، فهو آيته العظمى التي لا تزال قائمة بيننا تُخرس كل مبطل، وتتحدى كل جاحد، وتثبت صفات الإيمان.

والقرآن هو كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وفي عُلومه وحِكمه، وفي تأثير هدايته، أنزله الله نوراً وضياءً لعباده، فقد فتح به أعيناً كانت عمياً عن الهدى، وآذاناً كانت صماً عن الحق، وقلوباً قد رانَ الجهل والشرك عليها.

وقد تناول كثيرٌ من العلماء هذا الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم بغية اكتناه حقيقته، والوصول إلى سرّ بلاغته، ومن هؤلاء العلماء أولئك الذين تحدثوا عن معجزات النبي ﷺ ودلائل نبوته. ولما كانت مؤلفات هؤلاء العلماء في هذا الباب تتضمن حديثاً مهماً عن الإعجاز البلاغي للقرآن رأيت أن يكون موضوع هذه الدراسة:

مباحث الإعجاز البلاغي للقرآن في كتب دلائل النبوة حتى نهاية القرن الخامس الهجري دراسةً وتقويماً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتنبع أهمية هذا الموضوع من كونه يُسلط الضوء على كلام العلماء الذين تحدثوا عن دلائل نبوته ﷺ، حول المعجزة الكبرى التي لا تزال قائمة بيننا تُعجز كل بليغ، وهي القرآن الكريم.

كما تكمن أهميته في تقديم إضافة نوعية على كتب الدراسات القرآنية والبلاغية، من خلال دراسة الإعجاز البلاغي للقرآن في كتب دلائل النبوة، التي لم تحظ بعناية كثير ممن رصد تاريخ البلاغة، وتطور علومها وموضوعاتها.

كما تكمن أهميته كذلك، في أن عدداً ممن أسهم في التأليف في دلائل النبوة هم من العلماء الذين لهم مشاركات في البحث البلاغي، كالجاحظ، وابن قتيبة، والقاضي الباقلاني، والقاضي عبدالجبار.

أسباب اختيار الموضوع:

كان لاختياري هذا الموضوع عدة أسباب منها:

الأول: خدمة القرآن الكريم، والوصول إلى شيء من أسرار إعجازه وبلاغته، من خلال عرض كلام العلماء الذين تناولوا هذه القضية، ودراسته وتقويمه.

الثاني: لم يُدرس ــ على حدِّ علمي ــ ما في كتب دلائل النبوة من مباحث الإعجاز البلاغي للقرآن دراسة علمية ترصد ما فيها من مباحث وقضايا تُبين منهج العلماء في الإعجاز البلاغي وموقفهم منه، فقد اتجهت دراسات الإعجاز البلاغي للقرآن في مجملها إلى الكتب المؤلفة في الإعجاز فحسب، بينما كتب دلائل النبوة تناولت هذا الموضوع بشيء من التفصيل، فأردت توضيح ذلك حتى تظهر جهودهم في دراسة إعجاز كتاب الله تبارك وتعالى.

الثالث: تسليط الضوء على شخصيات تناولت الحديث عن الإعجاز البلاغي للقرآن، لم تجد عناية في كتب تاريخ البلاغة.

الرابع: الكشف عن بعض المظاهر التطبيقية للإعجاز البلاغي في كتب دلائل النبوة.

الخامس: دراسة قضايا ذات صلة بالموضوع، غفل عنها كثير ممن درس الإعجاز البلاغي مثل: القدر المعجز، والتفاضل بين الآيات في البلاغة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لهذه الأسباب مجتمعةً اخترت هذا الموضوع للبحث والدراسة، راجياً الله ﷻ أن أوفق في هذه الدراسة، وأخدم تخصصي، فأنال الثواب والجزاء الحسن في الآخرة والدنيا... إنه سميع مجيب.

وقد بدا لي أن أقسِّم البحث إلى فصول أربعة مسبوقة بتمهيد، فأما التمهيد فيَعرض لفقرات ثلاث:

أولها: وجوه الإعجاز في القرآن، وفيها عرضت لأهم وجوه الإعجاز التي ساقها العلماء، كالإعجاز البلاغي، والغيبي، والعلمي، والنفسي، والعددي.

وثانيها: الإعجاز البلاغي للقرآن، وفيه تحدثت عن تعريف الإعجاز في اللغة والاصطلاح، ومن ثمَّ عرضت عرضاً موجزاً لنشأة علم الإعجاز وتدوينه، وأهم المؤلفات فيه.

وثالثها: الحديث عن كتب دلائل النبوة، وقد بيَّنت المقصود بها، وما يدخل منها في هذا البحث.

وجاء الدخول في صُلب البحث عبر الفصل الأول، الذي تناولت فيه قضايا الإعجاز البلاغي في كتب دلائل النبوة، وذلك من خلال أربعة مباحث هي:

- المصطلحات البلاغية في كتب دلائل النبوة، وعلاقتها بالإعجاز.
- التحدي ببلاغة القرآن.
- دعوى الإتيان بمثل القرآن.
- التفاضل بين الآيات في البلاغة.

أما الفصل الثاني فقد تحدثت فيه عن المظاهر التطبيقية للإعجاز البلاغي في كتب دلائل النبوة، ففيه تناولت الكلمة المفردة، ثم عرَّجت على التركيب ووقفت على جوانبه التي أشار إليها هؤلاء العلماء، تَبِع ذلك الحديث عن صور البيان وفنون التصوير، ثم ألوان البديع التي عَرض لها علماء كتب دلائل النبوة.

وأما الفصل الثالث فقد تطرقت فيه إلى منهج الإعجاز البلاغي في كتب دلائل النبوة، وبيان كيفية منهج العلماء في الموضوعات التي عَرضوا لها، والمواضع التي تحدثوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيها، وقد بيَّنت ما يتفقون فيه، وما يقع بينهم من اختلاف. كما أشرت إلى المنهج الذي سار عليه العلماء في ترتيب قضايا الإعجاز البلاغي التي ذكروها.

وأما الفصل الرابع فكان الحديث فيه عن تقويم مباحث الإعجاز البلاغي في كتب دلائل النبوة، حيث عرضتُ لقضايا الإعجاز من حيث كثرتها وقلَّتها لدى العلماء، ثم أشرت إلى تباين هؤلاء العلماء في عرضهم لها. كما اجتهدت في تقويم جهود العلماء من حيث الأصالة والتقليد، وبيَّنتُ مصادرهم، وما تأثروا به في ذلك. ثم قمتُ برصد ما لدى هؤلاء العلماء مما يُمثِّل العمق في دراستهم لقضايا الإعجاز، أو السطحية في عرضها، وعلَّلتُ لكلٍّ ذلك. ثم ذكرت أخيراً أهم الشبهات التي وردت في كتب دلائل النبوة، وساقها العلماء للردِّ على من ادعى أنَّ القرآن ليس معجزاً ببلاغته.

وقد وضعت في نهاية البحث خاتمة ضمنتها خلاصة لأبرز نتائجه التي توصَّلتُ إليها، كما عرضتُ لبعض التوصيات والمقترحات التي أوصي الباحثين بدراستها مستقبلاً.

وأتبعت ذلك كله بفهارس فنية؛ تُسهل للقارئ الوصول إلى المعلومة بأيسر طريق، فوضعتُ فهرساً للآيات، والأحاديث، والأعلام، والأبيات، وثَبتاً للمصادر والمراجع، وأخيراً فهرساً للموضوعات ومحتويات البحث.

هذا وسوف تقوم دراسة البحث على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، وذلك أني عندما أعرض للقضية التي أنا بصدد الحديث عنها أُراعي في ذلك التدرُّج التاريخي، وأما كونه وصفياً تحليلياً فلأنني أُورد نصوص العلماء لأقف على غاياتها وأبعادها، وذلك لتكوين رؤية واضحة نحوها.

وقد راعيت في منهجي خلال البحث الأمور التالية:

ـ اعتمدت في كتابة الآيات القرآنية على البرنامج الحاسوبي (مصحف المدينة النبوية)، وعزوتُ الآيات إلى مواضعها في القرآن الكريم، ذاكراً اسم السورة، ورقم الآية.

ـ خرَّجتُ الأحاديث النبوية من مصادرها المعتمدة.

ـ ضبطتُ الأبيات الشعرية بالشكل، ونسبتها إلى قائليها، وبينت بحورها، ووثقتها بإرجاعها إلى مصادرها، وفي مقدمتها الدواوين الشعرية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـــ اقتصرتُ في تعريف الأعلام على ترجمة العلمـــاء المغمـــورين الـــذين وردوا في البحث، و لم أُترجم لغيرهم؛ خوفاً من إثقال حواشي البحث بما يُمكن أن يُستغنى عنـــه، ولأن كتب تراجم الرجال لم تَعُد بعيدة المنال في وقتنا هذا.

ـــ اختصرت اسم كتاب ابن قتيبة؛ فأسميته: (أعلام رسول الله).

ـــ عندما أُشير إلى عالِم ـــ سوى علماء كتب دلائل النبوة ـــ أسهم بنصٍّ له علاقة بالقضية التي أتحدث عنها، فإني أذكر معه سنة الوفاة؛ ليتضح التدرُّج التاريخي.

ـــ التزمت ذكر معلومات المصادر والمراجع كلها، وذلك حين ورودها لأول مرة.

وقد اعتمدت في هذا البحث على عدة مصادر ومراجع كان لها الفضل بعد الله عـــز وجل في النهوض بهذا البحث وإتمامه على الوجه الذي خرج به، وقـــد كانـــت تلـــك المصادر والمراجع متنوعة في تخصصاتها، ولا غرو أن جاءت كتب التفسير وعلوم القـــرآن والإعجاز والبلاغة في مقدمتها، حيث إن موضوع البحث وطبيعته تتطلب الإفـــادة مـــن مثل هذه الكتب، كما كان لكتب السنة واللغة والأدب والطبقات والتـــراجم نـــصيب وافر منها، و لم تخلُ قائمة المصادر من بعض الكتب والدراسات المعاصرة الـــتي قـــام بهـــا باحثون سبقوني إلى تناول بعض جوانب قضايا هذا البحث.

أما الصعوبات التي واجهتها، فلعلّ أهمها قراءة مخطوط ابن قتيبة(أعلام رســـول الله)، فكان غموض الخطّ، وطريقة الكتابة، وعدم وضوح المقصود ـــ في أغلـــب الأحيـــان ـــ عائقاً عن إدراك ما يريده ابن قتيبة، مما جعلني أُوفِّق ـــ في كثير من المواضع ـــ بـــين مـــا كُتب في المخطوط، وما ذكره في كتبه الأخرى، وقد أرفقت صـــفحات مـــن نـــسخة المخطوط في آخر الرسالة ليعرف القارئ الكريم بعض معاناتي التي واجهتها أثناء تعـــاملي مع المخطوط ومحاولة الاستفادة منه.

ومن الصعوبات اختلاف طبيعة كل كتاب من كتب دلائل النبوة عن مثيله ونظيره، مما يجعلني أُطيل النظر فيهـــا حتى أُحقق المراد، وأرجو أن أكون قد وُفِّقت إلى شيء مـــن ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي النهاية أحمد الله ﷻ ، على تيسيره وتوفيقه، وأسأله سبحانه أن يُجزل الثواب لكل من مدَّ لي يد العون في هذا البحث، وأخص بذلك والديَّ اللذين غرسا فيَّ روح الجدِّ والمثابرة، وأذكيا فيَّ جذوة التطلعات، متابعين إياي بالنصح والإرشاد، والدعوات الصادقات، فأسأل الله أن يجزيهما عني خير الجزاء.

ثم أتوجَّه بخالص الشكر وعظيم الامتنان إلى من رعى هذا البحث منذ أن كان فكرة، إلى أن ظهر بحمد الله متكاملاً بهذا الشكل، الأستاذ الدكتور: محمد بن علي الصامل، المشرف على هذا البحث، الذي رعاني رعاية الأب المشفق، والمعلم الناصح، على الرغم من كثرة مشاغله ومسؤولياته، فكان يُقبل عليّ ويمنحني فوق طاقته، فكان مثالاً للعطاء، وتلك صفات العلماء، فاستفدت منه أدب النفس وأدب الدرس، فالله أسأل أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناته يوم القيامة.

والشكر موصول للأستاذين الجليلين عضوي المناقشة، اللذين سيقومان بقراءة هذا البحث وتقويمه، وأعدهما بالإفادة من توجيهاتهما.

وبعد، فأسأل الله العلي القدير أن ينفع بهذا البحث، وأن يجعله حجة لنا لا علينا، إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

التاريخ: ٢٥/٦/١٤٢٩هـ

الرياض

منصور بن عمر السحيباني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تمهيد

١- وجوه الإعجاز في القرآن.

٢- الإعجاز البلاغي للقرآن
(مفهوماً وتاريخاً).

٣- كتب دلائل النبوة
(مفهومها، وبيان ما يدخل منها
في البحث).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١) وجوه الإعجاز في القرآن :

ما من نبي أرسله الله إلى أمـــة من الأمم إلا أيده بمعجزة من المعجزات تكـــون برهانـــاً قاطعاً، وحجة ساطعة على صدقه فيما يبلّغ عن ربه عز وجل.

وغالباً ما تكون معجزته من جنس ما نبغ فيه قومه؛ مبالغـــة في التحـــدي، وإمعانـــاً في التعجيز.

ولما كان العرب من أرقى الأمم في الفصاحة والبيان، جاءت معجزة النبي محمد صـــلى الله عليه وسلم في هذا الميدان؛ ليكون التحدي بها قائما على العدل والإنصاف، فلا لقـــول قائل: تحدانا الله بما لا نجيده ولا نعرفه ولا نألفه . قال الحبيب صلى الله عليه وسلم :((مـــا من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيـــاً أوحـــاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا))(١) وكلّ معجزة ذهبت بذهاب نبيهـــا، إلا معجـــزة القرآن الكريم فإنها باقية ما بقي الدهر.

وكانت للحبيب محمد صلى الله عليه وسلم بجانب هذه المعجـــزة الكـــبرى معجـــزاتٌ أخرى جعلت كل من رآهـــا فيه يُسلم بصدقه في دعوته، مع معجزات أخـــرى حـــسية رأتْها الأعين، وسمعتْها الآذان في وقتها كانشقاق القمر، ونبوع الماء بين أصـــابعه، وحـــنين الجذع له(٢)، ولكن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي فاقت جميـــع المعجزات، فاتسع مجال البحث فيها، واستمر الباحثون في كشف وجـــوه الإعجاز، ومناحيـــه، حـــتى هـــذا العصر و لم يصلوا إلى منتهى يقفون عنـــده، ولن يصلوا؛ لأنه كتـــاب لا تفنى عجائبـــــه، ولا تنقضي عبره.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن: ٤/١٩٠٥ تحقيق : د. مصطفى البغا، دار ابن كـــثير ، بـــيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧هـــ .

(٢) ينظر : علامات النبوة : عبدالملك علي الكليب : ٨ ، مكتبة الصفحات الذهبية ، الرياض .
وهذا الحبيب يامحب : أبو بكر جابر الجزائري : ٤٩٧ ــ ٥١٦ ،مكتبة لينة للنشر والتوزيع،ط ٢،١٤١١ هـــ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا و لم يكن الإعجاز القرآني في عصر الصحابة والتابعين قضية تحتاج منـــهم إلى نظـــر واستدلال؛ فقد استيقنتْها قلوبهم وشهدت بها قرائحهم العربية، وعلموا بالسليقة والفطـــرة أن القرآن كلام لا يدانيه كلام وحديث ليس كمثله حديث.

وكان لهم من واقعهم ما يملأ بذلك قلوبهم إيماناً لا يخالجه شك في أي وجه من وجـــوه إعجازه التي عرفوها بملكاتهم العقلية، و لم يفصحوا عنها بألسنتهم لعدم وجود ما يـــستدعي ذلك الإفصاح ؛ لأن جميع الصحابة كانوا في أمر الإعجاز على قلب رجل واحد.

فلما مضى عصر الصحابة والتابعين، وجاء القرن الثالث الهجـــري، واخـــتلط العـــرب بالأعاجم، وفسدت أذواق البعض، وظهر في الناس من يثير الشبهات، ويختلـــق الأقاويـــل على القرآن والسنة ـــ لما كان ذلك كذلك ـــ اضطر العلماء أن يدافعوا بجدّ وإخلاص عن كتاب ربهم عز وجل وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم فعقدت مجالس العلـــم للـــردّ علـــى الشبهات، وما يرد من قبل أعداء الإسلام من اعتراضات تمسّ جوهر العقيـــدة، وأصـــول الشريعة ومن بينها قضية (إعجاز القرآن)(١).

وأُلفت في هذه القضية كتب كثيرة يتحدث فيها مصنفوها عن وجوه الإعجاز القرآني، ومناحيه، ومسائله المتعلّقة به .

أما بالنسبة لوجوه الإعجاز: فلا يمكن لأيّ باحث في كتاب الله تعالى أن يحيط بوجـــوه إعجازه كلها، ولا بأكثرها، بل ولا يسعى أحدهم إلى ذلك؛ لعلمه أنه لا يحيط بكـــلام الله إلا الله سبحانه وتعالى.

من هنا اجتهد الباحثون كل على قدر طاقته وعلمه بهذه الوجوه، فحصلوا منـــها قـــدراً كافيا . وسأحاول خلال هذه الصفحات أن ألخص أهم هذه الوجوه،مستأنـــساً في ذلـــك بأقوال السابقين.

---

(١) ينظر : دراسات في علوم القرآن : د.محمد بكـــر إسماعيـــل :٣٩٤ ـــ ٣٩٦ دار المنـــار ، القـــاهرة ، ط ١ ، ١٤١١هـــ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا ويمكن القول بأن ملاك وجوه الإعجاز راجعٌ إلى خمس جهات:

الجهة الأولى : الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم.

الجهة الثانية : الإعجاز بالإخبار عن الغيب.

الجهة الثالثة : الإعجاز العلمي.

الجهة الرابعة : الإعجاز النفسي.

الجهة الخامسة: الإعجاز العددي .

((فإعجاز القرآن من الجهة الأولى متوجه إلى العرب، إذ هو معجزٌ لفصحائهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الداعي عليه هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم . ثم هو بذلك دليل على صدق المنزَّل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغاً لا يُستطاع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار ولمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ ... ثم قد يشارك خاصةَ العرب في إدراك إعجازه كلُّ من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم وآدابهم من أئمة العربية في مختلف العصور))(١).

والقرآن معجز من الجهة الثانية لأهل عصر نزوله إعجازاً تفصيلياً، ومعجزٌ لمن يجيء بعدهم ممن يبلغه ذلك بسبب تواتر نقل القرآن(٢).

وهو من الجهة الثالثة والرابعة والخامسة معجزٌ للبشر قاطبة إعجازاً مستمراً على ممر العصور، وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين: إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين؛ لأنه قد يُدرِك إعجازَه العقلاءُ من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحِكْمية والعلمية والأخلاقية، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعاني، وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك (٣).

---

(١) التحرير والتنوير : لمحمد الطاهر ابن عاشور : ١ /١٠٣ مؤسسة التاريخ ، بيروت ، ط ١ ،١٤٢٠هـ .

(٢) ينظر : المرجع السابق ١ /١٠٣ .

(٣) ينظر: المرجع السابق :١ /١٠٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا ملاك الإعجاز بحسب ما انتهيت إليه إجمالاً، ولنأخذ في شيء من تفصيل ذلك:

فأما الجهة الأولى فمرجعها إلى ما يسمى بالطَرَف الأعلى من البلاغة والفصاحة، ويعتبر هذا الوجه أعظم وجوه إعجاز القرآن؛ لأنه عام في القرآن كله، بخلاف الوجوه الأخـــرى من وجوه الإعجاز فليس الأمر فيها كذلك. لقد نزل القرآن الكريم علـــى قـــوم عرفـــوا بالبلاغة والفصاحة وحسن التعبير، نزل عليهم وهم في الذروة من البلاغـــة، فلمـــا سمعـــوه ذُهلوا وهم أرباب الفصاحة والبيان، ووجدوا أنفسهم عاجزين أمام تحديـــه لهـــم بالإتيـــان بقرآن مثله، ومع كل هذا لم يتعرّض واحد إلى معارضته مع أنهم أهل القـــدرة في أفـــانين الكلام نظماً ونثراً، قال القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـــ): ((فلم يزل يقـــرعهم صـــلى الله عليه وسلم أشدَّ التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويُسَفِّه أحلامهم، ويحُط أعلامهم، ويشتت نظامهم ... وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عـــن مماثلتـــه، يخـــادعون أنفسهم بالتشغيب والتكذيب والإغراء بالافتراء، وقـــولهم:] : ; > = < ? Z[١]، و] سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ © Z[٢]، و] > ? Z[٣]، و] أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ Z[٤] ... وقد قال لهم الله:] وَلَن تَفۡعَلُواْ Z[٥]، فما فعلوا ولا قَدَروا ومن تعاطى ذلك من سُخفائهم ـــــ كمسيلمة ـــ كشف عواره لجميعهم، وسلبهم الله ما ألفوه))[٦].

وتحدث الإمام الخطابي رحمه الله (ت ٣٨٨ هـــ) عن هذا الوجه فقال: ((واعلـــم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التـــأليف مـــضمناً أصـــح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته ...))[٧].

---

(١) سورة المدثر : آية ٢٤ .

(٢) سورة القمر : آية ٢ .

(٣) سورة الفرقان : آية ٤ .

(٤) سورة الأنعام :آية ٢٥ .

(٥) سورة البقرة : آية ٢٤ .

(٦) الشفا بتعريف حقوق المصطفى : للقاضي عياض بن موسى اليحصبي : ١ / ١٧٥ ـــ ١٧٦ ، تقديم وتحقيـــق : عامر الجزار ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٥ هـــ .

(٧) بيان إعجاز القرآن : للخطابي : ٢٧ ، مطبوع ضمن مجموع يحوي ثلاث رسائل في الإعجاز ، تحقيـــق: محمـــد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد جمع الخطابي في هذا الوجه بين الفصاحة والنظم والبلاغة، أما الفصاحة والـنظم فقد نصّ عليهما، وأما البلاغة ففي قوله :(متضمناً أصح المعاني ..) إشارةٌ إليها؛ إذ البلاغة متعلقة تعلقاً كبيراً بالمعاني.

لقد نظر العلماء في كتاب الله فإذا به ــ على اختلاف قضاياه ومواضيعه وعى الـرغم من طول مدة تنزيله ــ مترابط البناء، محكم التركيب، لا اخـتلاف فيـه، أو تفـاوت في أسلوبه قوة وضعفاً فتراءى لهم وحدة في الأسلوب وفي المعاني وفي الألفـاظ لا تتـأتى لأي كتاب من قول بشر، وكان للمتأخرين نظرات طويلة فيما يمكن تسميته بالإعجاز البنـائي: الترابط في البناء التركيبي للقرآن الكريم، ذلك الانسجام والوحدة التي تأتلف فيها أجـزاؤه سوراً وآيات وكلمات . لقد وقفوا طويلاً أمام الترابط داخل السورة الواحدة، كما وقفـوا أمام الترابط بين سور القرآن ككل، وقبل هذا وذاك كانت لهم وقفـات أمـام ائـتلاف وترابط كلمات القرآن نفسها، فإذا بالقرآن الكريم وحدة واحدة مترابطة(١).

وقد أرجع عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) إعجاز القرآن إلى نظمه، وقدَّم الأدلة التطبيقية على ذلك من القرآن والشعر، ثم أخذ يناقش تلك الأدلة بذوق واضح، وقرَّر أنـه ((إذا لم يكن للكلمة في ذاتها طاقة تتعدد بها دلالتها، أو تختلف، وهي في حالة انفرادهـا، فإنها حين تجتمع إلى كلام آخر، وتنتظم معه تنطلق منها طاقات، وتنكشف منها أو تختفـي جوانب لم يكن من المستطاع أن تنكشف أو تختفي وهي مفردة، الأمر الذي لا يسمح لهـا إلا أن تكون على حال واحدة أبدا))(٢).

وفي هذا يقول عبدالقاهر: ((وهل يقع في وَهْمٍ ــ وإن جَهِد ــ أن تتفاضلَ الكلمتـان المفردتان، من غير أن ينظر إلى مكانٍ تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثرَ من أن تكـون هذه مألوفةً مستعملةً، وتلك غريبة وحـشية ؟ أو أن تكـون حـروفُ هـذه أخـفَّ، وامتزاجُها أحسن ؟ ومما يكدُّ اللسان أبعد ؟ وهل تجد أحداً يقول : هذه اللفظة فصيحةٌ إلا

خلف الله أحمد ،والدكتور محمد زغلول سلام ، ط٤ ،دار المعارف ، القاهرة .

(١) ينظر: وجوه من الإعجاز القرآني : لمصطفى الدباغ : ٢٧ مكتبة المنار ، الأردن ، ط١ ، ١٩٨٢ م .

(٢) الإعجاز في دراسات السابقين : لعبدالكريم الخطيب : ٢٦٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢ ،١٣٩٥ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو يعتبر مكانَها من النظم، وحسنَ ملاءمة معناها لمعـاني جاراتهـا وفـضْل مؤانـستها لأخواتها ...)) (١).

وبهذا يتبين أن العلماء مجمعون على أن دراسة علـوم البلاغـة ضـرورية ولازمـة؛ إذ بواسطتها يمكن التوصل إلى فهم كتاب الله والوقوف على وجوه الإعجاز فيه.

وأما الجهة الثانية وهي الإخبار بالغيب، فيقصد بها ((كل ما كان غائباً عن محمد صلى الله عليه وسلم، و لم يشهد حوادث الواقعة و لم يحضر وقتـها))(٢) ويمكـن تقـسيمها في القرآن ثلاثة أقسام:

١ ـ الغيب الماضي: وهو قصٌّ أخبار المتقدمين على الوجه الذي لايكاد يعرفه أحـد، وإن عرفه فليس كتفصيل القرآنِ الكلامَ عليه، قال تعالى بعد تفصيل قـصة نـوح عليـه الصلاة والسلام: [e f g h i j l m n o p q r s t | v x y z { Z (٣).

٢ ـ الغيب المستقبل: وهو منقسم قسمين:

أ ـ غيب قريب موعود بتحققه وقد تحقق، كغلبة الروم الفرسَ، وفتح المسلمين مكـةَ، وغيرها.

ب ـ غيب بعيد لم يتحقق بعد، وذلك نحو بعض أشراط الساعة كالدابة، والـدخان، والكوارث الكونية يوم القيامة.

---

(١) دلائل الإعجاز : عبدالقاهر الجرجاني :٤٤ ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ،مكتبة الخانجي ، القـاهرة ، ط ٢ ، ١٤١٠ هـ . وللتوسع ينظر : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : كمال الدين الزملكـاني : ٥٣ ـ ٥٤ ، تحقيق : د. أحمد مطلوب ، و د . خديجة الحديثي ، مطبعـة العـاني ، بغـداد ، ط ١ ، ١٣٩٤هـ، ومباحث في إعجاز القرآن : د. مصطفى مـسلم : ١٣٣ ـ ١٤٢ ، دار القلـم ، دمـشق ، ط ٣ ، ١٤٢٦ هـ، والإعجاز في نظم القرآن : محمود السيد شيخون : ٩١ ـ ١٢٥ ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القـاهرة ، ط ١ ، ١٣٩٨ هـ .

(٢) مباحث في إعجاز القرآن : أ.د مصطفى مسلم : ٢٥٩ ،

(٣) سورة هود : آية ٤٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣ ــ والغيب الحاضر، كالحديث عن الأشياء التي غُيّبت عن أبصارنا، كالدار الآخرة وما فيها من جنة ونار(١).

وقد أورد هذا الوجه عدد من الأئمة وعدوه وجهاً من أوجه الإعجاز، وردّ ذلك آخرون(٢).

ويميل بعض العلماء إلى عدم قبول أخبار الغيب في القرآن على أنها من أوجه الإعجاز (٣)، وإنما هي دلائل على كون القرآن منزلاً من عند الله تبارك وتعالى.

وسبب ميلهم إلى هذا الرأي هو أنه ليست كلُّ آيات القرآن تحوي أخبار الغيب، وقد أعجز الله الخلقَ بالقرآن كله قليله وكثيره (٤). كما أن كثيراً ممن سمع بأخبار الغيب المستقبلة مات قبل أن تقع هذه الأخبارُ وتتحقق، فكيف يقع الإعجاز بالتحدي بشيء لم يتأكد وقوعه، ولم يره المعاند الجاحد بعد فينقطعَ دونه ويعجزَ ؟ وإنما يقع التحدي بأمر يقع أمام أنظار الجاحدين ويُلقى على أسماعهم لا على أمر موعود بتحققه لم يروه ولن يدركه كثير منهم فيعرفوا صدقه من كذبه ..، ثم إنه لم يصلنا أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ تحداهم بأن يأتوا بمثل أخبار الغيب في القرآن، ولا أعجزهم بها.

والإجابة عن هذا تكون بأن الإعجاز قائم بأخبار الغيب الماضية والحاضرة، وهذا كافٍ للتصديق بالمستقبلة منها والإيمان بأنها معجزة، وينضم إلى ذلك أنواع الإعجاز المتفق عليها في القرآن كالإعجاز بنظم القرآن وفصاحة ألفاظه وجزالة معانيه، وينضم إلى ذلك أيضاً ما رآه الجاحدون المنكرون من معجزات حسية كثيرة جرت على يديه الشريفتين ــ

---

(١) ينظر : إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء .دراسة نقدية ومقارنة : محمد بن موسى الشريف،١٣٤ ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، ط ٢ /١٤١٧ هـ .

(٢) ممن رده الإمام ابن عطية في " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " :١/٥٩ ، تحقيق وتعليق : عبدالله ابن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبدالعال السيد إبراهيم ،دار الفكر العربي ودار الكتاب الإسلامي، القاهرة،ط ٢،كما رده الإمام الزركشي في " البرهان في علوم القرآن ":٢/ ٩٥ ــ ٩٦ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ، بيروت . ولعل من رده إنما صنع ذلك حين القول بتفرده وجهاً للإعجاز ، أما حين اشتراكه مع غيره فإن مقتضى كلامهم قبوله .

(٣) كابن عاشور في " التحرير والتنوير " ١ / ١٢٦ ــ ١٢٧ .

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن :٢ / ٩٦ ، والتحرير والتنوير :١ /١٢٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صلى الله عليه وسلم ـــ فمن لم يُسلّم بذلك كله فإنه لن يسلم بإعجـــاز الأخبـــار الغيبيـــة المستقبلة حتى لو أدركها ورآها، فأخبار الغيب المستقبلة معجزة بـــدليل خـــارجي لا ذاتي. وأما كونه لم يصلنا أن النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ تحداهم بهذه الأخبار الغيبية فيمكن رده بأن الله تعالى قال :] 3 4 5 Z(١) . فالمثلية المطلوبة كما أنهـــا تقتـــضي المشابهة لنظمه وأسلوبه فهي تقتضي المشابهة لغيوبه أيضاً، فأخبار الغيب إذاً متحدىً بهـــا، وهي معجزة(٢).

وأرى أن الإعجاز بالغيب إعجاز جزئي لا كليّ ؛ لكونه ليس واقعاً في كـــلّ آيـــة في كتاب الله ـــ تبارك وتعالى ـــ كما تخلو بعض قصار السور منه (٣).

وأما الجهة الثالثة من جهات الإعجاز وهي ما ورد في القرآن الكريم مـــن الإشـــارات العلمية المشتملة على كثير من العلوم والمعارف الكونية، والإنسانية، المشتملة على أصـــول الإصلاح العقدي، والخلقي، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والفكـــري، فكـــان بذلك كتاب هداية، ومنهج حياة(٤).

((تقرؤه فإذا بحر العلوم والمعارف متلاطم زاخر، وإذا روح الإصلاح فيه قوي ظـــاهر، ثم إذا هو يجمع الكمال من أطرافه، فبينما تراه يصلح ما أفسده الفلاسفة بفلسفتهم، إذ تراه يهدم ما تردى فيه الوثنيون بشركهم، وبينما تراه يصحح ما حرفه أهل الأديان في دياناتهم، إذ تراه يقدم للإنسانية مزيجاً صالحاً من عقيدة راشدة ترفع همة العبد، وعبادة قويمـــة تطهـــر

---

(١) سورة الطور : آية : ٣٤ .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء : ١٣٥ ـــ ١٣٨ .

(٣) للتوسع في هذا الوجه ينظر : مناهـــل العرفـــان : محمـــد الزرقـــاني : ٢ / ٣٣٧ ـــ ٣٥١ ، ٣٦٣ ـــ ٣٦٧ ، راجعه وضبطه وعلّق عليه :محمد علي قطب ، ويوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية،بيروت ، ١٤٢٢ هـــ ، والمعجزة الخالدة : حسن ضياء الدين عتر : ٢٨٠ ـــ ٣١٤ ، دار اليمامة ، دمـــشق ، ط ٤ ، ١٤٢٦ هـــ ، ومباحث في إعجاز القرآن لـــ د. مصطفى مسلم : ٢٥٩ ـــ ٢٨٦ ، ومعجزات القرآن : د. شـــوقي ضـــيف : ٨٨ ـــ ٩٩ ، دار المعارف، القاهرة ، والمعجزة القرآنية : الإعجاز العلمي والغيبي : د. محمد حسن هيتـــو : ٨٩ ـــ ١٤٠ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٩ هـــ .

(٤) دراسات في علوم القرآن : ٤٠٣ ـــ ٤٠٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نفس الإنسان، وأخلاقاً عالية تؤهل المـرء لأن يكـون خليفـة الله في الأرض، وأحكامـاً شخصية ومدنية واجتماعية تكفل حماية المجتمع من الفوضى والفساد ..))(١).

وينبغي التنبيه على أنه ((لم تتعارض أية معرفة علمية ثابتة وصادقة مع مـا جـاء بـه القرآن الكريم، ورغم زخم الكشف العلمي لم يبد أيّ تفاوت في القـرآن، مـع العلـم أن المقصود بالمعرفة العلمية الثابتة الصادقة هو ما صدق من قوانين علمية راسـخة بالتجربـة والبرهان والكشوف العلمية التي أيدتها الأدلة والبراهين القاطعـة))(٢) . [O P Q R S T U V W X Y Z(٣).

ولعل مما يستحسن في هذا الأمر أن يتولى النظر فيه هيئات علمية اختـصاصية (٤)، ولا يترك للأفراد . كما يجب أن يكون التفسير العلمي غير متعارض مع مـا ورد في الحـديث الشريف، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

وأما الجهة الرابعة فتتمثل في الإعجاز النفسي (٥)، والمراد به : ((ما يتركه القرآن مـن أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه، ولا يستطيع هذا الـسامع أو القـارئ مقاومتـه ودفعه، ولا يقتصر ذلك على المؤمنين به))(٦).

---

(١) مناهل العرفان : ٢ / ٣١٣ ــ ٣١٤ .

(٢) وجوه من الإعجاز القرآني :٧٤ .

(٣) سورة النساء : آية ٨٢ .

(٤) بدأت هيئة الإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي برئاسة الشيخ : عبدالمجيد الزنداني ، ومـا زال العمـل مستمرا فيها حتى الآن ، ويرأسها حالياً الدكتور : عبدالله المصلح .

وللتوسع في هذا الوجه ينظر : مناهل العرفان لمحمد الزرقاني :٢ / ٣٥١ ــ ٣٥٦ ، وإعجاز القـرآن الكـريم : د. فضل حسن عباس : ٢٣٥ ــ ٢٦٩ ، دار الفرقان للنشر والتوزيـع ، الأردن ، ط ٥ ، ١٤٢٤ هـــ ، ومـن أوجه إعجاز القرآن الكريم : د. نبيل محمد آل إسماعيـل : ٦٠ ــ ٧٧ ، دار ابـن حـزم ، بـيروت ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ.

(٥) اختلف العلماء في تحديد المصطلح الخاص بهذا اللون من الإعجاز ، فمنهم من أطلق عليه الإعجـاز التـأثيري ، ومنهم من أطلق عليه الإعجاز النفسي ، ومنهم من أطلق عليه الإعجاز الروحي .

(٦) الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم : د. محمد عطا أحمد يوسف : ٢٢ ، مجلة الـشريعة والدراسـات الإسـلامية،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويرى البعض بأن هذه دعوى حديثة (١) فيقولون : إن إعجاز القرآن هو تأثيره النفسي، وفي الحقيقة أن هذا اللون من الإعجاز ليس حديثاً، فقد أشار إليه الخطابي في كتابه " بيان إعجاز القرآن " بقوله : ((قلت : في إعجاز القرآن وجهٌ آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن ــ منظوماً ولا منثوراً ــ إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه. تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور،حتى إذا أخذت حظها منه عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتتزعج له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ؛ فكم من عدو للرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانا.))(٢)، ثم ذكر أمثلة من عصر النبوة تؤيد ما ذهب إليه وارتآه . فالخطابي يعتبر ــ من وجهة نظري ــ أول من تناول هذا الوجه من الإعجاز بصورة علمية واضحة ومحددة، وذلك بتأصيله هذا الوجه من وجوه الإعجاز بأدلة قرآنية، ومواقف من السيرة النبوية الشريفة.

وقد وقف عبدالكريم الخطيب أمام هذا اللون من الإعجاز وقفات دقيقة، أكاد أجزم من خلالها أنه يرجحه على ما سواه من وجوه الإعجاز الأخرى، فحاول أن يبيّن سرّ تأثير القرآن فيمن يسمعه من الناس. فيقول:((إن كلمات القرآن التي كانت على فم الناس، كان لها رحلة إلى الملأ الأعلى من الأرض إلى السماء من أفواه الناس إلى عالم الروح، والحق والنور، وهناك في هذا العالم عالم الروح والحق والنور عاشت تلك الكلمات دهراً

الكويت ، عدد ٣٦ ، شعبان ١٤١٩ هـ .

(١) ينظر : القرآن يتحدى :أحمد عزّ الدين عبدالله خلف الله: ١٩٣ـــ ١٩٦ ،دار صادر،بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ. وينظر : من أسرار القرآن :د. علي محمد حسن العماري : ٢٩ ــ ٣١ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ .

(٢) بيان إعجاز القرآن : ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ٧٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طويلاً بين ملائكة، وولدان، وحور، فنفضت عليها هذه الحياة الجديدة روحاً من روحهـا، وجلالاً من جلالها، ونوراً من نورها، حتى إذا أذن لها الحكيم الخبير أن تعود أدراجهـا إلى الأرض وتلقى بأفواه الناس مرة أخرى، وتطرق أسماعهم، وتتـصل بعقـولهم وقلـوبهم، لم ينكروا شيئاً من وجودها، وإن سرى إليهم من هذا الوجود ما يخطف الأبـصار ويخلـب الألباب !! ... لقد صحب القرآن الحياة قرابة أربعة عشر قرناً منذ نزل من السماء إلى يوم الناس هذا، وهو حديث الدنيا في سرّها وجهرها، وهو ملء السماع والأفواه مؤمنةً وغـير مؤمنة، وهو حركة عاملة دائبة، مادة للأقلام ... فالمؤمنون في شوق متجدد معه، وفي خـير متصل منه، وفي عطاء موصول من ثمره، كلما مدوا أيديَهم إليه قطفوا من أدبه أدباً عاليـا، ومن علمه علماً نافعا، ومن شريعته ديناً قيما ! وغير المؤمنين في عجب من أمره ودَهَـش، يتناولونه بألسنة حداد، ويرمونه بسهام مسمومة، وبكيد عظيم، فمـا يصـل إليـه مـن كـل هذا شيء يضيره ...)) .(١) ويقول الخطيب معلقاً على كلام الإمام الخطـابي عـن الإعجاز التأثيري للقرآن ــ والذي سبق لنا ذكره ــ : ((وهذا الوجه من وجوه الإعجـاز هو ــ فيما نرى ــ المعجزة القائمة في القرآن أبدا، الحاضرة في كلّ حين، وهي التي تـسع الناس جميعا، عالمهم وجاهلهم، عربيهم وأعجميهم، إنسهم وجنّهم:

2 1 0 / . - , + *) (' & % $ # " ! [

3 5 6 7 8 9 Z (٢))) (٣).

بل ذهب عبدالكريم الخطيب إلى ما هو أبعد من ذلك، عندما أخذ يبـيّن مزايـا هـذا الوجه دون سواه، فهذا الوجه يمتاز من سائر وجوه الإعجاز بأنه:

أ ــ المعجزة القائمة في كلّ حين.

ب ــ أنها تسع الناس جميعاً عالمهم وجاهلهم.

ج ــ أنها تسعهم بكل لغاتهم، عربيّهم وأعجميّهم.

---

(١) الإعجاز في دراسات السابقين : ٦٧ ــ ٧٧ .

(٢) سورة الجن : آية : ١ ، ٢ .

(٣) الإعجاز في دراسات السابقين : ١٩٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

د ــ أنها لاتقتصر على الإنس وحدهم، بل وتسع الجن أيضا(١).

وتجدر الإشارة إلى رأي آخر في هذا اللون من وجوه الإعجاز وهو أن هذا الوجه ناشئ عن الصبغة البيانية للقرآن الكريم التي تتمثل في أصوات حروفه وترتيبها في كلماته، ونظم هذه الكلمات في جملة(٢).

وقد أفاد العلم من هذا الأثر العظيم للقرآن الكريم إفادة لا حدّ لها في علاج المرضى من ذوي الحس المرهف الذين يتأثرون بالكلمة وجمالها وسحر مضمونها ؛ لذلك نادى بعض علماء النفس بأهمية التربية الدينية في الصحة النفسية، وعلاج الأمراض النفسية، ويَرون في الإيمان بالله والاتصال بالقرآن قوة خارقة تمد الإنسان المتدين بطاقة روحية تعينه على تحمل متاعب الحياة، وتجنبه القلق الذي يتعرض له الناس في العصر الحديث(٣). هذا ما يتعلق بالإعجاز النفسي، ولا شك أنه من أعظم وجوه إعجاز القرآن الكريم(٤).

وأما الجهة الخامسة التي تتعلق بالإعجاز العددي للقرآن الكريم، فقد اختلف العلماء حولها بين مؤيد ومعارض، وظهرت في هذه الأيام كتب تتحدث عن هذا اللون من الإعجاز.

يقول عبدالرزاق نوفل: ((إن التوازن والتناسق العددي في موضوعات القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صدفة قدرية، أو واقعة عشوائية، أو حادثة عفوية؛ لأنه توازن مقصود، وتناسق غير محدود. ترى أي قوة بشرية أو ما كانت من الأجهزة الحاسبة أو العقول الالكترونية يمكنها أن تحدد هذه الأعداد المتساوية في ألفاظ الموضوعات المتشابهة... ثم توزعها هذا التوزيع الدقيق منفردة ومتباعدة في مختلف آيات القرآن الكريم ...

---

(١) ينظر : المرجع السابق : ١٩٣ .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن الكريم : د. فضل حسن عباس : ٣٣٤ ــ ٣٣٥ .

(٣) نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم : د. أحمد سيد محمد عمار :١١٠ ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ .

(٤) للتوسع في هذا الوجه ينظر : الإعجاز في دراسات السابقين : ١٩٢ ــ ١٩٣ ، وإعجاز القرآن : د. ففضل عباس : ٣٢٩ ــ ٣٣٥ ، ونظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم : ١٠٧ ــ ١١١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يقتصر أمر الإعجاز العددي على هذا، ولكنه يتعدى ذلـك إلى التناسـب والتناسـق الرقمي، وعجائب العدّ، وغرائب الإحصاء))(١).

هذا بالنسبة للمؤيدين الذين جعلوا هذا اللون واحداً من أهم وجوه الإعجاز، ثم ظهـر فريق آخر لا يرتضيه ؛لانعدام الفوائد العملية به، وذلكم الأثر الواقعي الذي من شـأنه أن يهذب النفس، ويظهر مضمراتها، أو يطلعنا على أسرار الكون، إنه أقرب مـا يكـون إلى الترف العقلي المجرد ... والكتب التي أُلفت فيه لا تخلو عن تكلف، مع أنه يمكن أن نفيـد من ذكر الكلمات في القرآن قلة وكثرة فوائد بيانية موضوعية (٢).

ولعل ردّ هذا اللون من وجوه الإعجاز تماماً ظلم كبير ((فيجب ألا يُبخس حقه ؛ لأن فيه إقناعاً بالأرقام لمن لا يفهم إلا لغة الأرقام، ومثل هذا الإنسان حين يدخل في الإسـلام ستؤثر فيه روحانيته، وترفعه إلى فهم عظمة الله والدين)) (٣).

هذه أهم وجوه الإعجاز التي تحدث عنها العلماء، والحقُّ أن الحديث عنـها لا يمكـن لأحد أن يحيط به كما ذكرت ذلك سابقاً؛ لأنه كلام رب العالمين، ولعل الحكمة في هـذا ـــ والله أعلم ـــ هي بقاء القرآن معيناً للناس لا يَنضب، يُنير لهم دروبهم، ويُبصرهم بـأمر دينهم ودنياهم.

---

(١) الإعجاز العددي للقرآن الكريم : عبدالرزاق نوفـل :٨٦ ـــ ٨٧ ، دار الكتـاب العـربي ، بـيروت ، ط ٥ / ١٤٠٧ هـ ، وينظر : وجوه من الإعجاز القرآني : ٤٨ ـــ ٧١ .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن الكريم : د. فضل حسن عباس : ٣٣٧ ـــ ٣٤٤ . وينظر : الإعجاز العـددي في القـرآن بين الحقيقة والوهم : فاتح حسني محمود :٩١ ، دار جهينة للنشر والتوزيع ، عمَّان ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ .

(٣) فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق: نعيم الحمـصي : ٢٩٣ ، مؤسـسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ / ١٤٠٠ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢) الإعجاز البلاغي للقرآن (مفهوماً وتاريخاً)

الإعجاز في اللغة :

قال ابن فارس:

((العين والجيم والزاء أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤَّخر الشيء.

فالأول : عَجَز عن الشيء يَعْجِز عجزاً فهو عاجز أي ضعيف ... ويقولون : أعجـزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه)) (١).

وقد يُجمع بين أصلَيْ معنى الإعجاز فيقال:

((العجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عَجُز الأمر أي مؤَخّرِه ... وصـار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة: قال:

] أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ Z (٢).

وأعجزت فلاناً وعجَّزته وعاجزته : جعلته عاجزاً، قال:

[0 1 2 3 4 Z(٣)، [µ ¶ ¸ فِي ٱلۡأَرۡضِ Z (٤)، [w x

y z { Z(٥))) (٦).

قال الزبيدي: ((أَعجزه: صيّره عاجزاً، أي عن إدراكه واللحوق به)) (٧).

---

(١) معجم مقاييس اللغة : ابن فارس : ٤ / ٢٣٢ " ع ج ز " ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩ هـ .

(٢) سورة المائدة : آية ٣١ .

(٣) سورة التوبة : آية ٢ .

(٤) سورة العنكبوت : آية ٢٢ .

(٥) سورة سبأ : آية ٥ .

(٦) المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني : ٣٢٥ " عجز " ، ضبطه وراجعه : محمد خليل عيتـاني ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٢٦ هـ .

(٧) تاج العروس : الزبيدي : ٤/ ٥٢ "ع ج ز " ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتعجيز: النسبة إلى العَجْز (١).

وقال الفيروزآبادي: ((والإعجاز: إفعالٌ من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيـــان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير)) (٢).

الإعجاز في الاصطلاح :

((والإعجاز في الكلام هو أن يؤدى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق)) (٣).

فهذا التعريف هو معنى الإعجاز مطلقاً، سواء الإعجاز الوارد بتصاريفه اللغوية في كلام الله تعالى، أو الإعجاز الوارد في كلام البشر.

وإعجاز القرآن ((مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة : إثبات القرآن عجزَ الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعولُ وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير : إعجاز القرآن خلقَ الله عن الإتيان بما تحداهم به)) (٤).

وهناك بعض التعاريف التي قصرت الإعجاز على وجه أو أكثر من وجوهه (٥).

---

(١) ينظر : لسان العرب : ١٠ / ٤٢ " عجز " ، دار صادر ، بيروت ، ط ١/٢٠٠٠ م .

(٢) بصائر ذوي التمييز : الفيروزآبادي : ١/٦٥ ، تحقيق :محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ، بيروت .

(٣) التعريفات : علي بن محمد بن علي الجرجاني : ٤٧ ، ضبطه وفهرسه : محمد عبدالحكيم القاضي ، دار الكتـــاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١ هـــ .

(٤) مناهل العرفان : ٢ / ٣٠٣ .

(٥) ينظر : إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء : ٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البلاغة في اللغة :

قال ابن منظور: ((بَلَغَ الشيءُ يبلُغ بلوغاً وبلاغاً: وصل وانتهى ... وتبلَّغ بالشيء : وصل إلى مراده ... والبلاغة : الفصاحة، ورجل بليغ: حسَنُ الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه. وقد بلغ بلاغة: صار بليغاً)) (١).

البلاغة في الاصطلاح :

لم يظهر الفرق بين مصطلح البلاغة والفصاحة مبكراً، بل كانا يدلان على شيء واحد، وهو الكلام الجيد السهل الذي لا عيب فيه، إلى أن استقر الأمر حين وضع العلماء تعريفاً للبلاغة بعد أن أصبحت علماً مستقلاً واضح الحدود والمعالم.

وكان القزويني قد ذكر تعريفاً أصبح له حضور مميز في كتب البلاغة، وارتضاه كثير من المتأخرين فقال: ((وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته)) (٢).

---

(١) لسان العرب : ٢ / ١٤٣ " بلغ " .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني : ٨٦ ، تحقيق : د.محمد عبد المنعم خفاجي و د. عبد العزيز شرف ، دار الكتاب المصري ، ودار الكتاب اللبناني ، ط ٦ ، ١٤٢٠ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نشأة البحث في الإعجاز البلاغي وسببه، وجهود بعض العلماء في دراسته :

إن البحث في الإعجاز القرآني قد نشأ منذ نزول القرآن الكريم على محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فقد ظهر عجز العرب الخُلّص عن الإتيان بمثله أو ما يقاربه، مع معاينتهم عظيمَ تأثيره فيهم، وهدايتَه عظماءهم وضعافهم، ومع ما قرع أسماعهم من تحدي الله ـــ تبارك وتعالى ـــ لهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولكن أنّى للمخلوق الضعيف أن يأتي بمثل كلام الخالق العظيم ؟.

لكن هذا الشعورَ بالعجز عن مضاهاة كلام الله ـــ تبارك وتعالى ـــ ظلّ مستولياً على القلوب والأذهان دون ترجمته إلى دراسات فاحصة تقرره وتقعّده، شأنه شأن سائر العلوم الإسلامية في الصدر الأول (١).

هذا وقد كان من أهم أسباب البحث في الإعجاز القرآني : الدعوة إلى تأمل القرآن الكريم وتدبره (٢)، واختلاط العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى ، وما تعرَّض له الإسلام من حركات طعن وتشكيك من أصحاب الديانات القديمة، كالحركة الزائفة التي ظهرت على أيدي الملاحدة، فتصدَّى المسلمون للردِّ عليها (٣).

وكانت هذه الحركةُ المعارضةُ أحدَ أهم الأسباب في ابتداء التصنيف في علوم القرآن الكريم عامة، وعلم إعجاز القرآن خاصة.

ومن المعلوم أن كل علمٍ ابتُدئ بالتصنيف فيه والبحث فإن مسائله تكون ـــ غالباً ـــ متناثرة في كتب شتى، ثم يتعاقب على هذا العلمِ علماءُ أفذاذ يحرّرون مباحثه، ويجمعون متفرقاته في قواعد منضبطة تجمع تلك المباحث في مصنَّف مستقل.

---

(١) ينظر : إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء : ٥٨ .

(٢) ينظر : بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية: د. عبد الفتاح لاشين : ٤٢٥ ـــ ٤٢٦، دار الفكر العربي ، القاهرة .

(٣) ينظر:الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن:د. عبدالرؤوف مخلوف:٢٨ ـــ ٣١،دار مكتبة الحياة،بيروت ، ١٩٧٨م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والإعجاز البلاغي ـــ وهو واحد من أهم وجوه إعجاز القرآن ـــ قد مرَّ بالأطوار التي مرّت بها العلوم، وسلك دربها وحذا حذوها ؛ إذ كان الكلام مفرّقاً في كتب متنوعة مثل كتب معاني القرآن ومنها: مجاز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرآن للفراء، ففيهما نجد البذور الأولى التي تحدثت عن إعجاز القرآن البلاغي، مع أنه لم يكن فيهما ذكر لكلمة " الإعجاز ".

بدأ استعمال مصطلحي (الإعجاز) و (المعجزة) من القرن الثالث الهجري، إذ وجدنا فيه ظهور هذين المصطلحين، وكثيراً من الإشارات واللمحات في قضايا الإعجاز.

كانت هذه الإشارات عند النظّام المعتزلي (بعد ٢٢٠ هـ): وهو ممن صرّح بلفظ (العجز) فقد قال: ((الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار بالغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم))(١).

ثم أتى الجاحظ (٢٥٥ هـ) فصرّح بلفظ (الإعجاز) و (المعجزة) في أكثر من مكان في كتبه، وكانت له مشاركة في الكتابة في إعجاز القرآن وبلاغته ونظمه الفريد (٢).

هذا وللجاحظ رسالة مطبوعة عرض فيها لموضوع إعجاز القرآن وهي رسالة " حجج النبوة "، وهي رسالة جيدة إلا أنها غير كاملة؛ إذ فيها نقص واضح في آخرها (٣).

---

(١) ينظر : إعجاز القرآن : محمد بن الطيب الباقلاني : ٦٥ ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٥ . وفضل الاعتزال وطبقات المعتزلة : عبدالله بن أحمد البلخي ، والقاضي عبدالجبار الهمذاني ، والحاكم الجشمي : ٧٠ ، تحقيق : فؤاد سيد ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، والمؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ . ومقالات الإسلاميين واختلاف المصلين : علي بن سليمان الأشعري ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد : ٢٢٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٦٩ هـ . وسيأتي الرد على مذهبه (الصرفة) مفصلاً في المبحث الثالث من الفصل الأول إن شاء الله .

(٢) ينظر : مجموع رسائل الجاحظ : تحقيق : عبد السلام هارون : ٣ / ٢٧٣ ـــ ٢٨٠ ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط ١ / ١٣٩٩ هـ .

(٣) ينظر : المصدر السابق : ٣ / ٢٨١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذه الرسالة بدأها الجاحظ بمقدمة طويلة بيّن فيها مراده من كتابه، وهو جمع حجـج الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وهي المعجزات التي جرت على يديه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ في مكان واحد حتى تكون أدعى للحفظ والتفهّم (١)، ثم ذكر بعـض الـدلائل على نبوتـه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ (٢) وانتهى إلى معجزة النبي ـــ صـلى الله عليـه وسلم ـــ العظمى، وهي القرآن، فبيّن أن العرب كانـوا أفصح النـاس، ولكنهم ـــ مـع هذا ـــ لم يستطيعوا معارضة شيء من كلام الله تبارك وتعالى مع أنـه تحـدّاهم في هـذا طويلاً، فكان مما قاله:

((ويدلُّك كثرةُ المراجَعَة، وطولُ هذه المناقلة، على أنَّ التقريـع لهـم بـالعَجْز كـان فاشيـاً، وأن عجزَهم كان ظاهراً))(٣).

كما أن للجاحظ كتاباً آخر في نظم القرآن، لكنه لم يصلنا، ويعد من كتبـه المفقـودة، وقد أخبر الجاحظ عنه بقوله : ((كتبت لك كتاباً أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقـصى ما يمكن لمثلي في الاحتجاج للقرآن، والردّ على كل طعّان فلم أدع فيه مسألة لرافضي ...، ولمن نَجَم (٤) بعد النظَّام ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة، وأنه تتريـل ولـيس ببرهان ولا دلالة، فلما ظننت أني قد بلغت أقصى محبتك، وأتيت على معنى صفتك، أتـاني كتابك تذكر أنك لم ترِد الاحتجاج لنظم القرآن ...))(٥).

ومن خلال ما سبق يتبيّن أن الجاحظ هو من أوائل من تصدّى لهـذا الأمـر وجعلـه موضوعاً للنظر والدّرس، أما الذين سبقوا الجاحظ إلى شيء من هذا، فلم يكن البحـث في إعجاز القرآن قائماً عندهم على هذا الوجه المحدد المقصود (٦)، إنما كان مجـرد إشـارات ولَفتات متفرقة ينقصها شيءٌ من التمحيص والتدقيق.

---

(١) ينظر : المصدر السابق : ٣ / ٢٣٤ ـــ ٢٣٥ .

(٢) ينظر : المصدر السابق : ٣ / ٢٦٦ .

(٣) المصدر السابق : ٣ / ٢٧٦ .

(٤) أي : ظهر ، ينظر : لسان العرب : ٢٠٢ " نجم " .

(٥) رسالة " خلق القرآن " للجاحظ ، وهي ضمن " مجموع رسائل الجاحظ " : ٣ /٢٨٧ .

(٦) ينظر : الإعجاز في دراسات السابقين : ١٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي القرن الرابع الهجري ألّف الرماني (٣٨٦ هـ) رسالته " النكت في إعجاز القرآن" وهي رسالة موجزة (١) في الإعجاز، هي أولى المصنفات التي وصلتنا كاملة في هذا الباب، وهي كما يرى بعض الباحثين ((أول دراسة فنية ذات وحدة متماسكة فتحت الباب بعد ذلك لدراسات أوسعَ وأشملَ وأعمق)) (٢).

وقد تحدّث في رسالته عن وجوه إعجاز القرآن، وخصّ الجانب البلاغيّ منها بعشرة أبواب من الرسالة، بينما طَرَق أوجه الإعجاز الباقية طرْقاً موجزاً في الباب الحادي عشر ؛ مما جعل للمباحث البلاغية في رسالته ((أكبر الأثر في تاريخ البحوث البلاغية على مرّ الزمان، كما كانت مصدراً يستقي منه العلماء الذين أتوا بعده، وعُنُوا بالبلاغة العربية عامة، وبلاغات القرآن خاصة، مثل ابن رشيق، وابن سنان الخفاجي، وابن أبي الإصبع العدواني، والسيوطي، وغيرهم)) (٣).

كما ألّف الخطابيُّ (٣٨٨ هـ) رسالته " بيان إعجاز القرآن " (٤)، وهو أول مصنّف في الإعجاز يُصنفه إمام من أهل السنة ــ فيما أعلم ــ ورسالته ((من النماذج التي تمثّل بلاغة أهل السنة بالمعنى الخاص)) (٥).

---

(١) الكتاب مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن هي ((بيان إعجاز القرآن)) للإمام الخطابي ، و ((الرسالة الشافية)) للإمام الجرجاني ، بالإضافة إلى كتاب ((النكت في إعجاز القرآن)) للرماني ، والذي يحتلّ الصفحات : ٧٥ ــ ١١٣ من المجموع .

(٢) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ : د. فتحي أحمد عامر : ١١٢ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤ م.

(٣) المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني : نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري : د. أحمد جمال العمري : ١١٣ ــ ١١٤ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤١٠ هـ .

(٤) سبقت الإشارة إلى أن الكتاب مطبوع ضمن مجموع يحوي ثلاث رسائل في الإعجاز ، ويحتلّ الصفحات : ٢١ ــ ٧١ .

(٥) المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة : أ.د. محمد بن علي الصامل : ٣٥ ، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع ، ط ٢ ، ١٤٢٦ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد أوجز الإمام الخطابي هذه الرسالة، وذكر فيها عدداً من أوجه إعجاز القرآن، ارتضى منها اثنين وردّ ما سواهما:

أما اللذان ارتضاهما فهما : الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم، والإعجاز التأثيري.

وعن الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم يقول رحمه الله تعالى : ((القرآن صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، متضمناً أصحَّ المعاني، من توحيدٍ له عزّت قدرته، وتنزيهٍ له في صفاته، ودعاءٍ إلى طاعته، وبيانٍ بمنهاج عبادته ...)) (١).

وقد جمع الخطابي في هذا الوجه بين الفصاحة والنظم والبلاغة، أما الفصاحة والنظم فقد نصّ عليهما، وأما البلاغة ففي قوله : " متضمناً أصحَّ المعاني " إشارة إليها ؛ إذ البلاغة متعلّقة تعلقاً كبيراً بالمعاني.

وفي القرن الخامس الهجري ألّف الباقلانيّ (٤٠٣ هـ) كتابه " إعجاز القرآن " وكتابه ((يدل بحق على علو كعب الرجل، ورسوخ قدمه، وطول باعه، وسعة اطلاعه، فضلاً عن أنه إمام من أئمة الكلام، فهو كذلك إمام من أئمة اللغة أدباً وشعراً وبلاغة ونقداً)) (٢).

والكتاب ذو فصول كثيرة، بدأه المصنف ــ رحمه الله تعالى ــ ببيان شرف هذا الكتاب العظيم، وبيان أن نبوة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ معجزتها القرآن، وأهمية الكشف عن وجوه إعجازه (٣).

هذا وقد ذكر الإمام الباقلاني في كتابه ثلاثة وجوه للإعجاز، وبيّن أن ذلك هو المعتمد عند أصحابه وغيرهم، وهذه الوجوه هي:

١ ــ الإخبار عن الغيوب.

٢ ــ معرفة كتب المتقدمين، وأقاصيصهم وسِيرهم.

---

(١) بيان إعجاز القرآن : ٢٧ .

(٢) إعجاز القرآن الكريم : أ.د. فضل حسن عباس : ٥٠ .

(٣) ينظر : إعجاز القرآن : الباقلاني : ١٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣ ــ أنَّ القرآن بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحدِّ الذي يُعلـم عجـز الخلق عنه.

بيدَ أنه لا يقف طويلاً أمام الوجهين الأَولين، بل يُوجه جُل عنايته إلى الوجه الثالث " الإعجاز البلاغي " حيث يُحاول بطريقته الخاصة ــ طوال الكتاب ــ أن يُثبـت تميّـز الأسلوب القرآني، والبلاغة القرآنية على أسلوب البشر وبلاغتهم (١).

قال الباقلاني عن نظم القرآن: ((فهو بديع النظم عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغـة إلى الحدّ الذي يُعلَم عجز الخلق عنه))(٢).

كما ألّف القاضي عبدالجبار (٤١٥ هـ) كتابه " إعجاز القرآن " وكتابـه هـذا هو الجزء السادس عشر في كتاب " المغني في أبواب التوحيد والعدل " للمـصنف، وهـو خاص بإعجاز القرآن الكريم، ويبدو ذلك ــ أي أن الكتاب جزء مـن عـدة أجـزاء ــ واضحاً إذا نُظر في مقدمة الكتاب، فمقدمته بدئت بـ " فصل في صفة الخبر الواقـع عـن الجماعة الذي يمكن أن يستدل به على صحته " وهو يقصد بذلك الفصل خبر " التـواتر "، فليس هو إذاً كتاباً مستقلاً عما قبله تمام الاستقلال، بل لمباحثه في هـذا الجـزء ــ جـزءِ إعجاز القرآن ــ نوعُ اتصال بما قبله من مباحث(٣).

وقد عدّ بعض الباحثين (٤) القاضي عبدالجبار رأس المدرسـة الثانيـة في الإعجـاز البلاغي بعد الرمانيّ، حيث استفاد من آراء الرماني وأضاف إليها الجديد المؤسِّس في كتابـه

---

(١) ينظر : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني : ٢١٢ .

(٢) إعجاز القرآن : ٣٥ .

(٣) قد خصّ المصنف الجزء الخامس عشر ــ وهو الكتاب الذي قبل هذا ــ بمبحث النبوات والمعجزات ، فناسـب أن يكون الجزء السادس عشر في إعجاز القرآن . ينظر : إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلمـاء : ٦١١ .

(٤) هو علي مهدي زيتون في كتابه " إعجاز القرآن وأثره في تطور النقـد الأدبي " : ٣٨ ــ ٤٠ ، دار المـشرق ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٢ م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

" إعجاز القرآن "، وأن عبدالجبار والجرجاني معاً كان لهما الفضل في تأسيس نظرية النظم، مستفيدين من النحو العربي في دراسة الإعجاز البلاغي في القرآن العظيم.

وأهم جوانب إعجاز القرآن عند القاضي أنه معجز لفصاحته، وقد عدّد في مواضع من كتابه كيف أن القرآن يُعد في كمال الفصاحة (١)، ومن ذلك قوله: ((فمعنى قولنا في القرآن: إنه معجز، أن يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي قد اختص به..)) (٢).

كما ألّف عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) كتابه " دلائل الإعجاز "، ومن خلاله ((عَرَض عبدالقاهر نظريته في الإعجاز بطريقة تغاير ما كتبه العلماء السابقون، إذ يُظهر مفهومه للإعجاز في صورة كلامية مركّزة، شارحاً إياها من زوايا مختلفة، وذلك ليقنع قارئه بأن الإعجاز القرآني إنما يظهر في النَّظم، والنَّظم وحده.)) (٣).

يقول عبدالقاهر: ((فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عددناه، لم يبقَ إلا أن يكون في " النظم "، لأنه ليس من بعد ما أبطلنا أن يكون فيه إلا النظم والاستعارة . ولا يمكن أن تُجعل الاستعارةُ الأصلَ في الإعجاز وأن يُقصر عليها، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودةٍ في مواضعَ من السور الطوال مخصوصة، وإذا امتنع ذلك فيها، ثبت أن " النظم " مكانُه الذي ينبغي أن يكون فيه))(٤).

هذه خلاصة لأهم ما أُلّف في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ولعلّي لا أتجاوز الحقيقة إذا قلت إن عبدالقاهر الجرجاني كان قدوة لكل من جاء بعده من المؤلفين في هذا الموضوع.

---

(١) ينظر : إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة : منير سلطان : ٩١ ــ ٩٢ ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ط ٣ ، ١٩٨٦ م .

(٢) إعجاز القرن : القاضي عبدالجبار الأسد آباذي : ٢٢٦ ، وهو الجزء السادس عشر من كتاب "المغني في أبواب التوحيد والعدل " ، تحقيق : أمين الخولي ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٨٠ هـ .

(٣) المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني : ٢٢٩ .

(٤) دلائل الإعجاز : ٣٩١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣) كتب دلائل النبوة :
(مفهومها ، وبيان ما يدخل منها في البحث)

موضوع النبوة ودلائلها من أعظم أبواب العقيدة وأصول الدين ؛ إذ الإيمان برسل الله ــ تبارك وتعالى ــ أحدُ أركان الإيمان الستة، فلا يصحّ إيمان العبد حتى يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه.

والنبوة هي الطريق لمعرفة محابّ الله ومساخطه، وأوامره ونواهيه، وما يُقرّب إليه، وما يُبعد عن رحمته.

لذلك اقتضت حكمته ــ جلّ وعلا ــ أن يرسل أنبياءه ورسله لإرشاد الخلق، وتوضيح الحقّ، وبيان الشريعة والدين، وما يضمن السعادة في الداريْن(١).

يقول ابن القيم ــ رحمه الله تعالى ــ مبيناً حاجة العباد إلى الرسل وتعاليمهم:

((ومن هاهنا تَعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله ألبتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير))(٢).

ومن هذا المنطلق أعطى علماء الإسلام مبحث دلائل النبوة وأعلامها حظاً وافراً ونصيباً من التأليف فيه والتصنيف.

---

(١) ينظر : النبوات : شيخ الإسلام ابن تيمية : ١ / ٧ ، تحقيق : د. عبدالعزيز بن صالح الطويان ، أضواء السلف ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ .

(٢) زاد المعاد : ابن القيم : ١ / ٦٨ ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط و عبدالقادر الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١٤ ، ١٤٠٧ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مفهوم كتب النبوة :

كتب دلائل النبوة هي تلك الكتب التي تحدثت عن المعجزات والبراهين الدالة علـى صدق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومبينة عدم كذبه، وإن اختلفت أسماؤها مثل:

ـ دلائل النبوة. ـ أعلام النبوة. ـ حجج النبوة.

ـ أمارات النبوة. ـ آيات النبي صلى الله عليه وسلم.

وغيرها مما يدخل في معنى الدلائل والعلامات.

ميدان البحث :

هذا البحث سيكون محصوراً في نتاج العلماء الذين ألّفوا كتباً في دلائل النبوة، حـتى نهاية القرن الخامس الهجري.

كما سيكون ميدان البحث محصوراً في دراسة قضية واحدة من قضايا هذه الكتب ألا وهي قضية : الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

هذا وقد أحصيت ثلاثةً وثلاثين كتاباً من كتب دلائل النبوة التي تدخل في المدة المحدّدة وهي (١):

١ ـ آيات النبي صلى الله عليه وسلم . لعلي بن محمد المدائني (٢١٥ هـ) (٢).

٢ ـ أعلام النبوة . لعبدالله بن هارون الملك العباسي (٢١٨ هـ) (٣).

٣ ـ حجج النبوة . للجاحظ . (٢٥٥ هـ) . رسالة مطبوعـة ومحققـة ضـمن كتاب : رسائل الجاحظ، لعبدالسلام هارون.

---

(١) ترتيب هذه الكتب قائم على حسب تاريخ وفاة المؤلف .

(٢) ينظر : الفهرست : محمد بن إسحاق ابن النـديم : ١٤٧ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ .

(٣) ينظر : الفهرست : ١٦٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤ ــ أمارات النبوة . لإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني (٢٥٩ هـ). مطبوع ومحقق ضمن كتاب: الجوزجاني ومنهجه في الجرح والتعديل.

٥ ــ دلائل النبوة . لأبي زرعة عبيدالله بن عبدالكريم الرازي (٢٦٤ هـ) (١).

٦ ــ أعلام النبوة . داود بن علي الأصبهاني (٢٧٠ هـ) (٢).

٧ ــ أعلام النبوة . لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥ هـ)(٣).

٨ ــ أعلام رسول الله المترلة على رسله صلى الله عليهم في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وغير ذلك، ودلائل نبوته من البراهين النيّرة والدلائل الواضحة. لعبدالله ابن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هـ) . "مخطوط "(٤).

٩ ــ دلائل النبوة . لإبراهيم بن الهيثم البلدي (٢٧٧ هـ) (٥).

١٠ ــ دلائل النبوة . لعبدالله بن محمد ابن أبي الدنيا (٢٨١ هـ) (٦).

---

(١) ينظر : الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ أهل التاريخ : محمد بن عبدالرحمن السخاوي : ١٥٤ ، تحقيق : فرانز روزنثال، ترجمة التحقيق: د. صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط ١، ١٤٠٧هـ.

(٢) ينظر : الفهرست : ٣٠٤ .

(٣) ينظر : كشف الظنون : مصطفى بن عبدالله الرومي الحنفي الشهير بحاجي خليفة : ١ / ٧٦٠ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٣ هـ .

(٤) ذكره المنجد بهذا العنوان ، ينظر : معجم ما أُلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : د. صلاح الدين المنجد: ٦٢ ، تقديم ومراجعة : نادي العطار : دار القاضي عياض للتراث ، القاهرة. وقد وجدت له نسخة محفوظة في مكتبة الأسد بدمشق ، تحت رقم : ٩٥٥ ، لكنها ناقصة ، من (ص ١٢٧ إلى ص ١٥٩). وقد سماه بعض العلماء (دلائل النبوة) ينظر : الفهرست : ١١٦ ، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي : ٢ / ٦٣ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٤ هـ . كما ذكره بعضهم باسم (أعلام النبوة) ينظر : سير أعلام النبلاء : الذهبي : ١٣ / ٢٩٧ ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٩ ، ١٤١٣ هـ ، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ : ١٥٦ ، والمعجم المفهرس أو تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنثورة : ابن حجر العسقلاني : ٧٦ ، تحقيق : محمد شكور محمود الميادين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨هـ.

(٥) ينظر : الإعلان بالتوبيخ : ١٥٦ .

(٦) ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٣ / ٤٠٢ ، والإعلان بالتوبيخ : ١٥٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١١ ــ دلائل النبوة . لإبراهيم بن إسحاق الحربي (٢٨٥ هـ) (١).

١٢ ــ دلائل النبوة . لجعفر بن محمد الحسن الفريابي (٣٠١ هـ).

" مطبوع " بإشراف : محمود الحداد، وأم عبدالله بنت محروس العسلي .

١٣ ــ دلائل النبوة . لثابت بن حزم السرقسطي (٣١٣ هـ) (٢).

١٤ ــ دلائل النبوة . لإبراهيم بن حماد بن إسحاق (٣٢٠ هـ) (٣).

١٥ ــ دلائل النبوة . لمحمد بن أحمد بن إبراهيم بن العسال (٣٤٩ هـ) (٤).

١٦ ــ دلائل النبوة . لأبي بكر محمد بن الحسن النقاش المقري (٣٥١ هـ) (٥).

١٧ ــ دلائل النبوة . لأبي القاسم الطبراني الحافظ (٣٦٠ هـ) (٦).

١٨ ــ دلائل النبوة . لمحمد بن علي القفَّال الشاشي (٣٦٦ هـ) (٧).

١٩ ــ دلائل النبوة . لأبي الشيخ عبدالله بن محمد الأصبهاني (٣٦٩ هـ) (٨).

٢٠ ــ دلائل النبوة . لعبدالله بن إسحاق بن مندة (٣٩٥ هـ) (٩).

٢١ ــ أعلام النبوة . لابن فارس " اللغوي " (٣٩٥ هـ) (١٠).

---

(١) ينظر : طبقات الحنابلة : أبو الحسين محمد بن أبي يعلى : ١ / ٨٦ ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار المعرفة ، بيروت ، وكشف الظنون : ١ / ٧٦٠ .

(٢) ينظر : الإعلان بالتوبيخ : ١٥٤ ، وكشف الظنون : ٢ / ١٤١٨ .

(٣) ينظر : الفهرست : ٢٨٢ .

(٤) ينظر : الإعلان بالتوبيخ : ١٥٥ .

(٥) ينظر : الفهرست : ٥٠ ، وسير أعلام النبلاء : ١٥ / ٥٧٤ ، والإعلان بالتوبيخ : ١٥٥ .

(٦) ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٦ / ١٢٨ ، والإعلان بالتوبيخ : ١٥٥ .

(٧) ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٦ / ٢٨٤ ، وطبقات الشافعية : أبو بكر بن أحمد بن محمد شهبة : ١ / ١٤٩ ، تحقيق : د. الحافظ عبدالعليم خان ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ ، وطبقات المفسرين : جلال الدين عبدالرحمن السيوطي : ١٠٩ ، تحقيق : علي محمد عمر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٩٦هـ.

(٨) ينظر : الإعلان بالتوبيخ : ١٥٥ .

(٩) ينظر : المصدر السابق : ١٥٥ ، وكفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب المعروف بالخصائص الكبرى : جلال الدين السيوطي : ١ / ١٧٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ.

(١٠) ينظر : الإعلان بالتوبيخ : ١٥٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢٢ ــ أعلام النبوة . لأبي المطرف عبدالرحمن بن محمد ابن فُطيس القرطبي(١).

٢٣ ــ البيان عن الفَرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات . للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني (٤٠٣ هـ). " مطبوع".

٢٤ ــ دلائل النبوة . للخركوشي عبدالملك بن محمد النيسابوري (٤٠٧ هـ) (٢).

٢٥ ــ تثبيت دلائل النبوة . للقاضي عبدالجبار بن أحمد الهمذاني (٤١٥ هـ).

" مطبوع " تحقيق: د. عبدالكريم عثمان.

٢٦ ــ إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم . لأحمد بن الحسين الهاروني الزيدي (٤٢١ هـ) . " مطبوع " تحقيق :خليل أحمد إبراهيم الحاج.

٢٧ ــ دلائل النبوة . لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني (٤٣٠ هـ). "مطبوع" تحقيق: د. محمد رواس قلعة جي، وعبدالقادر عباس.

٢٨ ــ دلائل النبوة . لجعفر بن محمد المستغفري (٤٣٢ هـ). " مخطوط " (٣).

٢٩ ــ دلائل النبوة . لأبي ذر عبد بن أحمد الهروي (٤٣٤ هـ) (٤).

٣٠ ــ أعلام النبوة . لعلي بن محمد الماوردي (٤٥٠ هـ) . " مطبوع " ضبطه وخرّج أحاديثه وعلق عليه الشيخ: خالد عبدالرحمن العك.

٣١ ــ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة . لأحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨ هـ) . " مطبوع " وثّق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: د. عبدالمعطي قلعجي.

٣٢ ــ دلائل النبوة . لابن دِلهاث: أحمد بن عمر الأندلسي(٤٧٨ هـ) (٥).

---

(١) ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٧ / ٢١٢ ، والإعلان بالتوبيخ : ١٥٦ .

(٢) ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٧ / ٢٥٦ .

(٣) ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٧ / ٥٦٤ ، والإعلان بالتوبيخ : ١٥٥ ، وطبقات الحفاظ : عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي : ٤٢٤ ، دار الكتب العلمية ،بيروت ،ط ١ ، ١٤٠٣ هـ ، وكشف الظنون : ١ / ٧٦٠ .

(٤) ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٧ / ٥٦٠ ، والإعلان بالتوبيخ : ١٥٦ ، وطبقات الحفاظ : ٤٢٥ .

(٥) ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٨ / ٥٦٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣٣ ــ أعلام النبوة . لعبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي (٤٨٧ هـ) [١].

هذا وستقوم الدراسة على الكتب الموجودة، سواء أكانت مطبوعة أم مخطوطة.

وبعد النظر فيما عثرت عليه من هذه الكتب، اتضح لي أنَّ العلماء الذين تحدثوا عن قضايا الإعجاز البلاغي للقرآن هم:

١ ــ الجاحظ[٢] في رسالته (حجج النبوة).

٢ ــ ابن قتيبة[٣] في كتابه (أعلام الرسول المتزلة على رسله صلى الله عليهم في التوارة والإنجيل والزبور والقرآن وغير ذلك، ودلائل نبوته من البراهين النيّرة والدلائل الواضحة).

٣ ــ الباقلاني[٤] في كتابه (البيان عن الفَرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات).

٤ ــ القاضي عبدالجبار[٥] في كتابه (تثبيت دلائل النبوة).

---

(١) ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٩ / ٣٥ .

(٢) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي ، صاحب التصانيف ، ومن بحور العلم ، توفي سنة ٢٥٥هـ. ينظر سير أعلام النبلاء : ١١ / ٥٢٦ ــ ٥٣٠ ، والأعلام : الزركلي : ٥ / ٧٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٤ ، ١٣٩٩ هـ ، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان : ٣ / ٤٧٠ ــ ٤٧٥ ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٩٨ هـ.

(٣) هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، العلامة الكبير ، ذو الفنون ، نزل بغداد وصنَّف وجمع ، وبَعُد صيته ، مات في رجب سنة ٢٧٦هـ. ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٣ / ٢٩٦ ــ ٣٠٢ ، والأعلام : ٤ / ١٣٧ ، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٣ / ٤٢ ــ ٤٣ .

(٤) هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم البصري البغدادي ، صاحب التصانيف ، كان يُضرب به المثل بفهمه وذكائه ، وكان ثقة وإماماً بارعاً، صنَّف في الردِّ على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية والكرامية ، مات في ذي القعدة سنة ٤٠٣هـ. ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٧ / ١٩٠ ــ ١٩٣ ، والأعلام : ٦ / ١٧٦ ، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٤ / ٢٦٩ ــ ٢٧٠ .

(٥) هو القاضي عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبار بن أحمد بن خليل ، العلامة المتكلِّم ، شيخ المعتزلة ، وَلِي قضاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥ ــ الزيدي[١] في كتابه (إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم).

٦ ــ أبو نعيم الأصبهاني[٢] في كتابه (دلائل النبوة).

٧ ــ أبو الحسن الماوردي[٣] في كتابه (أعلام النبوة).

٨ ــ البيهقي[٤] في كتابه (دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة).

القضاة بالري ، مات في ذي القعدة سنة ٤١٥هـ. ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٧ / ٢٤٤ ــ ٢٤٥ ، والأعلام: ٣ / ٢٧٣ .

(١) هو أحمد بن الحسين بن هارون الأقطع ، من أبناء زيد بن الحسن العلوي الطالبي القرشي ، إمام زيدي من أهل طبرستان ، غزير العلم ، له مصنفات في الفقه والكلام والنحو واللغة وعلوم القرآن ، توفي يوم عرفة سنة ٤٢١هـ. ينظر : الأعلام : ١ / ١١٦ . ومعجم المؤلفين : تراجم مصنفي الكتب العربية : عمر رضا كحالة : ١ / ٢٠٩ ، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي ، بيروت.

(٢) هو أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني الصوفي ، الإمام الحافظ ، الثقة العلامة ، ولد سنة ٣٣٦هـ ، كان أبوه من علماء المحدّثين والرحالين ، وأجاز له المشايخ وله ست سنين، له مصنفات كثيرة ، مات في محرم سنة ٤٣٠هـ. ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٧ / ٤٥٣ ــ ٤٦٢ ، وطبقات الحفاظ : ٤٢٣ ، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ١ / ٩١ .

(٣) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي ، ولي القضاء ببلدان كثيرة ، صاحب التصانيف ، كان حافظاً للمذهب، اتهم بالاعتزال ، قال ابن السبكي: والصحيح أنه ليس معتزلياً ، ولكنه يقول بالقدر وهي البلية التي غلبت على أهل البصرة ، مات في ربيع الأول سنة ٤٥٠هـ. ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٨ / ٦٤ ، وطبقات المفسرين : ٨٣ ، ومعجم المؤلفين : ٧ / ١٨٩ .

(٤) هو الحافظ ، الثبت ، الفقيه ، شيخ الإسلام ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني ، ولد سنة ٣٨٤هـ ، سمع الكثير ، ورحل وجمع ، تصانيفه عظيمة القدر ، غزيرة الفوائد ، كتب الحديث وحفظه من صباه ، توفي في عاشر شهر جمادى الأولى سنة ٤٥٨هـ. ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٨ / ١٦٣ ــ ١٦٩ ، وطبقات الشافعية : ١ / ٢٢٠ ــ ٢٢٢ ، ومعجم المؤلفين : ١ / ٢٠٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الأول :

قضايا الإعجاز البلاغي في كتب دلائل النبوة

المبحث الأول: المصطلحات البلاغية في كتب دلائل النبوة، وعلاقتها بالإعجاز:

المطلب الأول: **الفصاحة**.

المطلب الثاني: **البلاغة**.

المطلب الثالث: **النظم**.

المبحث الثاني: التحدي ببلاغة القرآن:

المطلب الأول: **مراحل التحدي**.

المطلب الثاني: **القدر المعجز للتحدي**.

المبحث الثالث: دعوى الإتيان بمثل القرآن:

المطلب الأول: **المعارضة المخفية**.

المطلب الثاني: **المعارضة المعلنة**.

المطلب الثالث: **القول بالصرفة**.

المبحث الرابع: التفاضل بين الآيات في البلاغة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول : المصطلحات البلاغية في كتب دلائل النبوة، وعلاقتها بالإعجاز

أسهم مؤلفوكتب دلائل النبوة في دراسة المصطلح البلاغي من خلال ما عرضوا له من قضايا ذات صلة بالبلاغة النبوية وإعجاز القرآن الكريم، وتفاوتوا في هذا الشأن إيجازاً وإطناباً.

هذا وسأعمل على تتبع ما ورد في هذه المؤلفات من المصطلحات البلاغية، وبيان علاقتها بالإعجاز.

المطلب الأول : مصطلح " الفصاحة ":

المتأمل في كتب دلائل النبوة يَلحظ أن مصطلح الفصاحة فيها كثيراً مايرد عرضاً، دون أن يُخصّ بفصل مستقل، إلا ماكان من الزيدي (٤٢١ هـ)، مما سأبيّنه فيما بعد.

ثم إن مصطلح الفصاحة في كتب دلائل النبوة يَرد في سياقات متقاربة تدور ـ غالباً ـ حول بيان أن إعجاز القرآن الكريم يكمن في فصاحته وبلاغته، وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعيش بين قومٍ بلغوا الغاية في الفصاحة والتصرّف في فنون الكلام، كما ورد في سياق عدم قدرة العرب على مايقارب نظم القرآن في فصاحته وبلاغته.

كما أن هذا المصطلح يختلف وروده عند العلماء قلّة وكثرة، فالجاحظ في رسالته "حجج النبوة" لم يتطرق له إطلاقاً، والباقلاني ذكره مرتين، بينما ذكره الزيدي أكثر من أربعين مرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

" الفصاحة " في اللغة والاصطلاح :

قال الزمخشري: فصح: أي سقاهم لبناً فصيحاً، وهو الذي أُخذت رغوته، أو ذهب لِباؤه وخلص منه. وأفصح العجميّ: تكلم بالعربية. وفَصُح: انطلق لسانه بها وخلصت لغته من اللكنة(١).

وقال ابن منظور: الفصاحة: البيان. وتقول: رجل فصيح وكلام فصيح: أي بليغ، ولسان فصيح: أي طَلْق. وأفصَحَ الصُّبحُ: بدا ضوؤه واستبان. وكل ما وَضَح فقد أفصح(٢).

والفصاحة في اصطلاح البلاغيين: سلامة المفردة والكلام مما يُخلّ ببيانها وفصاحتها، وتقع صفة للمفرد والكلام والمتكلم (٣).

" الفصاحة " في كتب دلائل النبوة:

لفظة الفصاحة في كتب دلائل النبوة لا تَخرج ـــ غالباً ـــ عن معناها اللغوي، وهو الظهور والبيان، كما أنها أيضاً مرتبطة بلفظة البلاغة ارتباطاً وثيقاً، مما جعل العلماء ـــ في كثير من كتبهم ـــ لم يفرقوا بينهما، و لم يضعوا حداً واضحاً بينهما، شأنهم في ذلك شأن كثير من البلاغيين.

يقول الباقلاني (٤٠٣ هـــ): ((وقد كان النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ مبعوثاً في قوم كانوا أفصح العرب وأبلغهم وأعظمهم تقدّما في اللسن والتصرف في فنون الكلام)) (٤).

---

(١) ينظر : أساس البلاغة : الزمخشري ، " فصح " : ٤٧٤ ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٢ هـــ .

(٢) ينظر : لسان العرب : " فصح " ١١ / ١٨٦ .

(٣) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني : ٧٨ ـــ ٨٦ .

(٤) البيان عن الفَرْق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات : الباقلاني : ٢٧ ، عُني بتصحيحه ونشره : الأب رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي ، المكتبة الشرقية ، بيروت ، ١٣٧٨ هـــ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويقول القاضي عبدالجبار (٤١٥ هـ): ((والفصاحة والبلاغة مثبوتة في رجالها ونسائها وعبيدها وإمائها وعقلائها ومجانينها)) (١)، ويقول كذلك: ((واعلم أن القرآن حجة من ثلاثة أوجه: فكل سورة منه حجة من طريق الفصاحة والبلاغة)) (٢).

ويقول أبو نعيم الأصبهاني (٤٣٠ هـ): ((فتحدّاهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقرآن يقرع به أسماعهم مع ما لهم من الفصاحة واللسان، والبلاغة والبيان، أن يأتوا بسورةٍ يخترعونها بأهون سعي وأدنى كلفة)) (٣).

والمتأمل لما أراده العلماء من إطلاقهم الفصاحة، يعلم أنهم إنما أرادوا بها الفصاحة والبلاغة، وليس الفصاحةَ بالمعنى الاصطلاحي التي تتعلق بجمال الألفاظ وسلاستها فحسْب.

هذا وقد عقد الزيدي (٤٢١ هـ) في كتابه" إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم " فصلاً كاملاً تحدّث فيه عن بيان أن القرآن في أعلى طبقات الفصاحة (٤)، ووقف عند الفصاحة طويلاً، وبيَّن أصلها فقال: ((اعلم أن أصل الفصاحة: هو الإبانة عن المعنى المقصود بحسن البيان. وهذا معنى ما حكى الله ـ عزّ وجل ـ عن موسى ـ صلى الله عليه ـ [وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ ´ µ ¶ Z (٥)، أي أحسن بيانا)) (٦).

ومن خلال حديث الزيدي عن الفصاحة يتضح أيضاً أنه لا يُفرّق بين الفصاحة والبلاغة، والدليل على ذلك أنه بعدما ذكر أصل الفصاحة ذهب يُعدّد أقسامها، وذكر فيها ما هو داخل ـ عند المتأخرين ـ في علوم المعاني، والبيان، والبديع:

---

(١) تثبيت دلائل النبوة : القاضي عبدالجبار الهمذاني : ١ / ٨٦ ، تحقيق : عبدالكريم عثمان ، دار العربية ، بيروت، ١٣٨٦ هـ .

(٢) المصدر السابق : ٨٦ .

(٣) دلائل النبوة : أبو نعيم الأصبهاني : ١ / ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، تحقيق : د. محمد روّاس قلعة جي ، و عبدالبر عباس ، دار النفائس ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ .

(٤) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : أحمد بن الحسين الزيدي : ٩٧ ـ ١٢٢ ، تحقيق : خليل أحمد إبراهيم الحاج ، دار التراث العربي ، مصر ، ط ١ ، ١٣٩٩ هـ .

(٥) سورة القصص : آية : ٣٤ .

(٦) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٩٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول الزيدي: ((ومن أقسام الفصاحة: الإيجاز. وذلك ينقسم إلى قسمين، قد يكون بتقليل الحروف مع استيفاء المعنى، وقد يكون بالحذف..)) [١]، ويقول كذلك: ((ومـــن أقسام الفصاحة: الاستعارات والتشبيهات، وإحداهما قريبة من الأخرى، وإن كان بينـــهما فصل..)) [٢]، ويقول كذلك: ((ومن أقسام الفصاحة: التجنيس، وهو أن يجمع بين كلمتين التقتا من حروف متجانسة، وذلك مثل قوله ـــ عزّ وجل ـــ حاكياً عن صاحبة سليمان ـــ صلى الله عليه ـــ:] ï مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ô ﴿٤٤﴾ Z [٣])) [٤] .

ومهما يكن من أمر فإن كتب دلائل النبوة لم تعرض لمصطلح الفصاحة قصداً بصفتها غاية تستحقّ النظر والتدقيق، ولكنها نظرت إليها بما يُسهم في توضيح إثبات نبوة الحبيـــب محمـــد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ؛ ولذلك لم نجد في كتب دلائل النبوة ما يدلنا على وقفة واضحة تحاول فرز مصطلح (الفصاحة) وتحديده، ولكن العلماء في هذه الكتب اســـتعملوا ماتيسّر لهم من هذه المصطلحات، ثم إن الطابع العام لمصطلح الفصاحة في تلك الكتـــب لم يخرج عن الدلالة اللغوية، أو المفهوم العرفي العام، و لم يصل إلى غاية التحديد الاصـــطلاحي الذي استقر عليه المصطلح.

---

(١) المصدر السابق : ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق : ١٠١ .

(٣) سورة النمل : آية : ٤٤ .

(٤) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

" الفصاحة " في كتب دلائل النبوة وكتب البلاغة :

لم يُحدّد العلماء في كتب دلائل النبوة معنىً خاصاً للفصاحة، وإنما كانت مرادفة للبلاغة كما مرّ، بل إن معنى الفصاحة قد ينحصر في الدلالة اللغوية، وربما زاد يسيراً ليكون بمعنى العرف اللغوي الذي يقترن فيه هذا المصطلح بمصطلح البلاغة.

وبعد تأمل النصوص التي ورد فيها مصطلح الفصاحة، تبيّن أن العلماء يستخدمون تصاريف مختلفة لهذا المصطلح، فعلى سبيل المثال:

أورد الباقلاني مصطلح الفصاحة بصيغتين مختلفتين، مرة بأفعل التفضيل، والأخرى بالمصدر، قال الباقلاني: ((وقد كان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مبعوثاً في قوم كانوا أفصح العرب وأبلغهم وأعظمهم تقدماً في اللسن)) (١)، وفي موضع آخر يقول: ((وجب على القادر على بلاغة تقارب نظم القرآن أن يسارع إلى مثلها لعلمه بأنه لابد أن يختلف الناس عند ذلك، وأن يظن كثير منهم أنه في رتبة القرآن في بلاغته وفصاحته)) (٢)، ففي المرة الأولى تتجه اللفظة إلى جنس المتكلم، وفي الأخرى تتجه إلى جنس الكلام، وفي هذا اتفاق بين استعمال هؤلاء العلماء لهذا المصطلح وبين ما اتفق عليه علماء البلاغة فيما بعد.

هذا وقد ميَّز علم البلاغة العربية ــ فيما استقرَّ عليه ــ بين الفصاحة والبلاغة، فجعل لكل منهما معنىً خاصاً (٣).

فقد عقد ابن سنان الخفاجي في كتابه " سرّ الفصاحة " فصولاً تحدث فيها عن فصاحة اللفظة المفردة، والألفاظ المؤلفة. والفصاحة عنده ((الظهور والبيان)) (٤)، ولكي تكون اللفظة الواحدة فصيحة ينبغي أن تتوفر فيها بعض الشروط، قال: ((إنَّ الفصاحة على ماقدمنا

---

(١) البيان عن الفَرْق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات : ٢٧ .

(٢) المصدر السابق : ٣٠ .

(٣) سيكون الحديث هنا خاصاً بالفصاحة ، أما البلاغة فسيأتي الحديث عنها في المطلب الثاني من هذا المبحث إن شاء الله تعالى .

(٤) سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي : ٤٩ ، شرح وتصحيح : عبدالمتعال الصعيدي ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، الأزهر ، ١٣٨٩ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نعتٌ للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم)) (١).

وتعد دراسة ابن سنان للفصاحة من أخصب الدراسات، ولا يكاد المتأخرون يخرجون عنها في كل ما ألفوا أو اختصروا أو شرحوا (٢).

كما تحدث الخطيب القزويني في " الإيضاح " عن الفصاحة فقال: ((الفصاحة يوصف بها المفرد، والكلام، والمتكلم)) (٣).

ويبيّن القزويني الفصاحة في المفرد أي: في الكلمة، فيضع لها شروطاً ثلاثة وهي: خلوصها من تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس الصحيح.

كما يبيّن فصاحة الكلام، فيشترط لها كذلك شروطاً ثلاثة وهي: خلوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد.

كما تحدّث أيضاً عن فصاحة المتكلم، فقال هي: مَلَكةٌ يُقْتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ صحيح.

والألفاظ الفصيحة في اصطلاح أهل المعاني عبارة عن ((الألفاظ البيِّنة الظاهرة المتبادرةِ إلى الفهم، والمأنوسة الاستعمال بين الكُتَّاب والشعراء لمكان حُسنها)) (٤).

وبهذا يَتبين أن الكلمة الفصيحة ما كانت سهلةً لا يتلعثم بها اللسان، ولا ينفر منها السمع، مألوفة، واضحة المعنى، لا يجد المخاطب عسراً في نطقها وفهم معناها، موافقة لقواعد اللغة، ومقاييس التصريف.

---

(١) سر الفصاحة : ٥٣ ــ ٥٤ .

(٢) ينظر : أساليب بلاغية (الفصاحة ــ البلاغة ــ المعاني) : د. أحمد مطلوب : ٣١ ، ط ١ ، وكالة المطبوعات، الكويت .

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني : ٧٨ ــ ٨٦ .

(٤) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع : السيد أحمد الهاشمي : ١٩ ، ضبط وتدقيق وتوثيق : د. يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٤ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن الفصاحة ليس مجالها الكلام المركَّب، وإنما تكون في الكلمة المفردة، ومجالها ودائرتها إنما هي الألفاظ فحسب (١).

ولا يكاد مفهوم مصطلح الفصاحة في كتب دلائل النبوة يختلف عما في كتب البلاغة في تلك الفترة؛ لأن كثيراً من البلاغيين لم يحسموا أمر هذا المصطلح وتمييزه عن مصطلح البلاغة، وإن كان لبعضهم اجتهاد في وضع الفروق بينهما.

(١) ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها " علم المعاني " : د. فضل حسن عباس : ٥٤ ــ ٥٥ ، دار الفرقان ، عمَّان ، ط ٧ ، ١٤٢١ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المطلب الثاني : مصطلح " البلاغة " :

مصطلح البلاغة في كتب دلائل النبوة مرتبط ـــ كما ذكرت آنفا ـــ بالفصاحة ارتباطاً وثيقاً، مما جعل العلماء لم يفرقوا بينهما، و لم يُحدّدوا معنىً خاصاً لكلٍّ منهما، ولهذا يكون السياق الذي يرد فيه مصطلح البلاغة هو ـــ في الأغلب الأعم ـــ نفسه الذي يرد فيه مصطلح الفصاحة، من بيان أن إعجاز القرآن الكريم يكمن في فصاحته وبلاغته.. (١)، غيرَ أن مصطلح البلاغة لم يَخصّه العلماء بفصلٍ مستقل، فهو كثيراً مايرد عرضاً دون أن يقف العالِم عنده لبيان المقصود به وإيضاحه، كما فعل الزيدي بمصطلح الفصاحة.

كما أن مصطلح البلاغة كذلك يختلف وروده عند العلماء في كتب دلائل النبوة قلّة وكثرة، فالجاحظ والقاضي عبدالجبار ذَكَراه ثلاث مرات (٢)، والباقلاني ذكره أكثر من عشرين مرة (٣) .

" البلاغة " في اللغة والاصطلاح :

سبقت الإشارة إلى أن البلاغة في اللغة تعني الوصول والانتهاء إلى الغاية (٤)، وفي الاصطلاح هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته (٥)، ولا يكون البليغ متصفاً بالبلاغة إلا إذا كان صاحب ذوق رفيع، وثقافة واسعة، وذا حفظ عظيم لتنطبع الصور في ذهنه ويحذو حذوها في أول الأمر، ثم ينطلق بعيداً عنها (٦).

---

(١) ينظر : ص ٤٢ من هذا البحث.

(٢) ينظر : حجج النبوة : ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، وتثبيت دلائل النبوة : ١ / ٨٦ .

(٣) ينظر على سبيل المثال ص : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،٢٨ ، ٢٩ ، وغيرها .

(٤) ينظر : ص ٢٥ من هذا البحث.

(٥) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ٨٦ .

(٦) ينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : د. أحمد مطلوب : ٢٣٧ ، مكتبة لبنان ، ط ٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

" البلاغة " في كتب دلائل النبوة :

لفظة البلاغة في كتب دلائل النبوة جاءت عامَّة غير مقيّدة بمعنى محدّد، لكن العلماء أخذوا يطلقونها لتدل بذلك على الجودة والروعة والتأثير في الكلام، يقول ابن قتيبة:((وقلنا في قوم من أهل الزيغ والإلحاد أوتوا طرفاً من البلاغة، وحظّاً من البيان، أن يصنعوا شيئاً يقرب منه، فيتلبسون به...)) (١)، ويقول الباقلاني في حديثه عن عدم قدرة الناس على مثل الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين : ((ولو كان على ما قالوه، لوجب أن لا يكون للشاعر المُقدم، والخطيب المسقع (٢)، والبليغ المترسل، فضل على العامي المعجم والأَلكن وسائر من ينثر الكلام نثراً ولا يتأتى له نظم مصراع ولا بيت من الشعر)) (٣).

ويقول الماوردي (٤٥٠ هـ): ((ولما بُعث محمدٌ ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عصر الفصاحة والبلاغة، خُصَّ بالقرآن في إيجازه وإعجازه، بما عجزَ عنه الفُصحاء، وأذْعَنَ له البُلغاء، وتبلَّدَ فيه الشعراء، ليكون العجز عنه أقهرَ، والتقصير فيه أظهر)) (٤).

ويقول البيهقي (٤٥٨ هـ): ((وقريشٌ كانت تتعاطى الكلام الفصيح، والبلاغة، والخطابة..)) (٥).

وبهذا يَتبيّن أن غاية ما يُفهم من العلماء عند إطلاقهم لمصطلح البلاغة أنهم يريدون بها الجودة والروعة والتأثير في الكلام ، والله أعلم.

كما أن مصطلح البلاغة قد اقترن بالفصاحة كثيراً؛ مما يدل على أن العلماء في تلك الفترة عموماً لا يفرقون بينهما في المرحلة الأولى من التأليف، فالجاحظ ـ مثلاً ـ في

---

(١) أعلام رسول الله : ابن قتيبة : ١٤٣ .

(٢) وهي لغة في " مصقع " . ينظر : لسان العرب : ٧ / ٢٠٩ .

(٣) البيان عن الفَرْق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات : ٢٥ .

(٤) أعلام النبوة : الماوردي : ١٢٦ ، ضبط نصّه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه : الشيخ خالد عبدالرحمن العك ، دار النفائس ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٤ م .

(٥) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : أحمد بن الحسين البيهقي : ١ / ١٦ ـ ١٧ ، وثّق أصوله وخرَّج حديثه وعلّق عليه : د. عبدالمعطي قلعجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رسالته " حجج النبوة " تعرّض للبلاغة والبلغاء ثلاث مرات، و لم يذكر مصطلح الفصاحة إطلاقاً، وكأنه يجريهما بمعنى واحد، كما فعل ذلك في مواضع كثيرة من كتابه " البيان والتبيين " فقال في تعريف البلاغة: ((وقال بعضهم ــ وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوَّناه ــ لا يكون الكلام يستحق اسمَ البلاغة حتى يسابق معناه لفظَه، ولفظُه معناه، فلا يكون لفظُه إلى سمعك أسبقَ من معناه إلى قلبك)) (١)، ولعل الفصاحة بمفهومها عند المتأخرين تدخل في هذا التعريف، وقد تحدّث عن الحروف وسلامتها وتآلفها، وتكلم على تنافرها وغرابتها ووحشيتها، وهذا ما أدخله المتأخرون في شروط فصاحة الكلمة المفردة، وفصاحة الكلام المركب (٢).

ومن خلال ما سبق يَتبيّن أن العلماء في كتب دلائل النبوة استعملوا مصطلح البلاغة بمدلوله العام، و لم يصلوا إلى غاية التحديد الاصطلاحي الذي استقرّ عليه المصطلح فيما بعد.

(١) البيان والتبيين : الجاحظ : ١ /١١٥ ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، دار الجيل ، بيروت .

(٢) ينظر : معجم المصطلحات البلاغية : ٥٤٥ ــ ٥٤٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

" البلاغة " في كتب دلائل النبوة وكتب البلاغة:

لم يُحدّد العلماء في كتب دلائل النبوة معنىً خاصاً للبلاغة، وإنما استعملوها ـــ فيما ظهر ـــ بمفهومها العرفي العام كما مرّ.

هذا وقد سبقت الإشارة إلى أن علم البلاغة العربية ـــ فيما استقرّ عليه ـــ ميَّز بين الفصاحة والبلاغة، وذكرت ما قاله البلاغيون عن الفصاحة (١)، أما البلاغة في الكلام فهي: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، وهي كذلك ((صفةٌ راجعةٌ إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب)) (٢).

وبلاغة المتكلم هي مَلَكة في النفس يقتدر صاحبها على تأليف كلام بليغ مطابق لمقتضى الحال مع فصاحته في أيِّ معنى قَصَدَه.

وتلك غاية لن يصل إليها إلا من أحاط بأساليب العرب خُبراً وعرفَ سَنن تخاطُبهم في منافراتهم، ومفاخراتهم، ومديحهم، وهجائهم، وشكرهم، واعتذارهم، ليَلبس لكلّ حالة لبُوسها " ولكل مقام مقال " (٣).

ومن خلال ما سبق يَتبيّن أن مصطلح البلاغة في كتب دلائل النبوة يختلف عما في كتب البلاغة، فالبلاغة في كتب دلائل النبوة تتجه إلى معنى عام في الكلام والمتكلم، وفي كتب البلاغيين تتجه إلى معنى خاص، وذلك باعتبارها وصفاً للألفاظ مع المعاني.

---

(١) ينظر : ص ٤٥ ـــ ٤٧ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة : ٨٧ .

(٣) ينظر : جواهر البلاغة : ٤٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المطلب الثالث: مصطلح " النظم ":

أشار العلماء في كتب دلائل النبوة إلى مصطلح النظم، وعدّوه واحداً من أهمّ وجوه إعجاز القرآن الكريم الدّالة على ثبوت نبوة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وصدقه فيما جاء به.

ومن خلال تتبّع مصطلح النظم في كتب دلائل النبوة يُلحظ أنه لم يُخصّ بمبحث أو فصلٍ مستقل، بل ورد ذكره في مسائل متفرقة، إلا ماكان من الزيدي والماوردي، مما سأبيّنه فيما بعد.

هذا ويختلف السياق الذي يَرد فيه هذا المصطلح من موضع إلى آخر، فتارة يَرد في مدح العرب وما وصلوا إليه من البيان، يقول الجاحظ:((ولهم بعد أصنافُ النَّظْم، وضروب التأليف كالقصيد والرجز والمزدوج))(١)، وتارة في بيان مداخل الطاعنين على القرآن، يقول ابن قتيبة:((واتبعوا متشابهه بأفهام كليلة وأبصار عليلة، وفِطَر في اللغة منحولة، فنسبوا شيئاً منه بجيلهم إلى اللحن، وإلى التناقض، وإلى الاستحالة، وإلى سوء النظم))(٢)، وتارة في بيان أن المعجز على ضربين: فشيء ينفرد به الله ــ سبحانه وتعالى ــ بالقدرة على فعله، كاختراع الأجسام، وشيء يدخل تحت قدرة العباد، كالبلاغة في نظم الكلام، وتارة عند عدم قدرة العرب على معارضة القرآن؛ لما فيه من بلاغة النظم، وحسن الوزن والرصف المفارق لجميع أوزان كلام العرب ونظومه (٣)، وتارة في بيان السرّ في إعجاز القرآن الكريم، وتارة عند بيان أن القرآن الكريم أنزل على وصفٍ مباينٍ لأوصاف كلام البشر؛ لأنه منظوم وليس بمنثور (٤).

---

(١) حجج النبوة : ٢٧٣ .

(٢) أعلام رسول الله : ١٤٣ .

(٣) ينظر : البيان عن الفَرْق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات : ٢٣ ــ ٣٠ .

(٤) ينظر : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا ويتباين ورود مصطلح " النظم " في كتب دلائل النبوة من حيث القلّة والكثرة، لكنَّ أغلب هذه الكتب ورد فيها هذا المصطلح بضع مرات (١)، باستثناء الزيدي الذي تكرر عنده أكثر من ثلاثين مرة (٢).

" النظم " في اللغة والاصطلاح :

جاء في معاجم اللغة من معاني النظم أنه بمعنى: التأليف، والجمع، والضمّ، والاتساق (٣).

يقول الزمخشري: ((نظمتُ الدُّرَّ ونظَّمتُه، ودرٌّ منظوم ومنظَّم، وقد انتظم وتنظّم، وتناظم، وله نظمٌ منه، ونِظام ونُظُمٌ . ومن المجاز: نَظَمَ الكلام، وهذا نَظْمٌ حسن، وانتظم كلامه وأمره، وليس لأمره نظام، إذا لم تستقم طريقته، وتقول: هذه أمور عِظام لو كان لها نِظام، ورمى صيداً فانتظمه بسهم، وطعنه فانتظم ساقيْه أو جنبَيْه)) (٤).

((ويقال: نظم القرآن: عبارتُه التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة)) (٥).

وإذا كان نظم اللآلىء في الخيط يعني ضمّ بعضها إلى بعض لتظهر بمظهر حسن؛ فإن ضمّ الكلمات بعضها إلى بعض، وقَرْن ما بعدها بما قبلها على نسق خاص في تأليف الكلام للدلالة به على المقاصد، هو عين النَّظم وصورته (٦).

---

(١) ينظر : حجج النبوة:٢٧٩،٢٧٤،٢٧٣،والبيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات:٣٠،٢٦،٢٥،٢٤،٢٣،وأعلام النبوة:١٤٥،١٤٢،١٣٠،١٢٨،١٢٧، ودلائل النبوة : ١١ ، ١٥ .

(٢) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٨٠،٦٠،٤٤،٤١،٢٣ ،٨٧ ،٨٨ ، ٩٠ ، وغيرها .

(٣) ينظر : لسان العرب : ١٤ / ٢٩٤ " نظم " ، والمعجم الوسيط : إخراج : إبراهيم مصطفى ، وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبدالقادر ، ومحمد علي النجار : ٢ / ٩٣٣ " نظم " ، دار المعارف ، ط ٢ .

(٤) أساس البلاغة : ٦٤١ " نظم " .

(٥) المعجم الوسيط : ٢ / ٩٣٣ " نظم " .

(٦) ينظر : النظم القرآني في آيات الجهاد : د. ناصر بن عبدالرحمن الخنين : ٩ ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ط١، ١٤١٦هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والنظم في الاصطلاح هو: ((تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني، متناسبة الدلالات، على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل)) (١).

"النظم " في كتب دلائل النبوة :

كثيراً ما يُطلق مصطلح النظم في كتب دلائل النبوة ليُفهم منه ضمّ الألفاظ والكلمات بعضها إلى بعض على نسق خاص، يقول الجاحظ: ((ليؤلِّف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاماً في نظم كلامه، كأقصر سورة يُخذّلكم بها، وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها)) (٢).

ويقول الباقلاني: ((لم يجز لأحد أن يطعن على إعجاز القرآن بما فيه من بلاغة النظم، وحسن الوزن، والرصف المفارق لجميع أوزان كلام العرب ونظومه)) (٣). ويقول البيهقي: ((فأبان جلّ جلاله أنه أنزله على وصفٍ مُباينٍ لأوصاف كلام البشر؛ لأنه منظومٌ وليس بمنثور، ونظمه ليس نظمَ الرسائل، ولا نظم الخطب، ولا نظم الأشعار، ولا هو كأسجاع الكهان)) (٤).

أما الزيدي فيدّلنا على مراده بالنظم بقوله: ((فإن قيل: إلى ماذا تشيرون بقولكم: هذا النظم المخصوص، والأسلوب المتميز، فإنا لانعقل فيه أمراً زائداً على الكلام المعتاد، و لم نعرف تميزاً إلا بالفصاحة ؟ قيل له: نريد بذلك ما نعرفه، ويعرفه كل متأمل كلام العرب، لأن كلامهم أجمع لا يخلو من أن يكون موزوناً أو غير موزون، فالموزون تختلف أجناسه،

---

(١) التعريفات : ٣١٠ .

(٢) حجج النبوة : ٢٧٤ .

(٣) البيان عن الفَرْق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات : ٢٤ .

(٤) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويتميز [قصيده] (١) عن رجزه، وكل ذلك مما يعرفه أهله، وما ليس بموزون منه ينقسم أربعة أقسام: منها نظم الخطب وطريقتها، ومنها نظم الرسائل ومنهاجه، ومنها أسجاع الكهنة، ومنها المحاورات التي تجري بين الناس..، ووجدنا أسلوب القرآن ونظمه مفارقاً لهذه الأساليب أجمع؛ لأنه ليس من نظم الخطب، ولا الرسائل، ولا أسجاع الكهان، ولا المحاورات، يعرفه كل من تأمله ممن له أيسر حظ من المعرفة لكلام العرب)) (٢).

كما أفرد الزيدي للنظم فصلاً خاصاً بيّن فيه أن إعجاز القرآن الكريم يكمن في النظم مع الفصاحة البالغة، وأنه لا يمكن أن يقال: إن إعجاز القرآن يتعلّق بمجرد النظم فقط ((لأنا نعلم ضرورة أن تميز نظم القرآن عن سائر أساليب الكلام المنثور، كأسلوب الخطب، وأسلوب الرسائل.. ليس أكثر من تميز بعض الأساليب عن بعض. وقد علمنا أن من يقدم في بعض هذه الأساليب حتى بلغ فيها الغاية، لايجوز أن يتعذر عليه الأسلوب الآخر، حتى لا يمكنه أن يأتي بشيء منه، وإن لم يمكنه التصرف فيه، وبلوغ الغاية، كما أمكنه في النظم الآخر)) (٣)، أو بمجرد الفصاحة فقط ((لأن ذلك لا يتم إلا بأن تعلم أن القرآن قد بلغ في الفصاحة مبلغاً تجاوزت الحدّ الذي يتمكن منها البشر تجاوزاً انتقضت به العادة..)) (٤).

وبهذا يتبيّن أن الزيدي من أوائل العلماء الذين تناولوا الحديث عن النظم، ووصفوا كلام الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ به.

أما الماوردي فقد ذكر أن إعجاز القرآن يكون من عشرين وجهاً، أحدها: فصاحته وبيانه، وذلك معتبرٌ بثلاثة شروط، أحدها: حسن نظمه، ثم وضّح هذا بقوله:

((وأما حسنُ نظمه فيكون من وجهين: أحدهما: أن يكون الكلام متناسباً لا يتنافر. والثاني: أن يكون الوزن معتدلاً لا يتباين.

---

(١) جاء في الأصل : (قصيره) بالراء ، ولعلها تحريف .

(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم :٨٠ .

(٣) المصدر السابق : ٨٧ .

(٤) المصدر السابق : ٨٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن قيل: قد يجتمع في كلام البشر ما يستكمل هذه الشروط، فبطل به الإعجاز ؟ فالجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن أسلوب نظمه على هذه الشروط معدومٌ في غيره فافترقا. والثاني: أن لنظم ألفاظه بهجةً لا توجد في غيره، فاختلفا، لأنك إذا جمعتَ بين قول الله تعالى:] وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ Z(١)، وبين قولهم: القتل أنفى للقتل، وجدتَ بينهما فروقاً في اللفظ والمعنى)) (٢). وكلام الماوردي جيّد لا مزيد عليه؛ وذلك لأن من جاء بعده من العلماء اتجه اتجاهاً مباشراً للكشف عن مضامين هذا المصطلح.

ومن خلال هذا العرض لمصطلح النظم في كتب دلائل النبوة، يتضح أن العلماء أسهموا في التأسيس لقضية من أهم قضايا البلاغة العربية وهي " نظرية النظم "، من خلال ورود هذا اللفظ وإن لم يتحدد معناه بشكل دقيق.

" النظم " في كتب دلائل النبوة وكتب البلاغة:

حدّد العلماء في كتب دلائل النبوة دلالة واضحة للنظم، تكمن في حسن التئام الكلمات بعضها إلى بعض، وأن يكون الوزن معتدلاً لا يتباين.

((ومن أبرز من عكف على تنظير فكرة النظم، وإظهار أثرها في إعجاز القرآن، بل جعلها أمارة إعجازه، هو عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١ هـ)، مستفيداً من جهود من سبقه من العلماء)) (٣).

هذا وقد حدّد عبدالقاهر معنى النظم قائلاً:

((اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمت

---

(١) سورة البقرة : آية : ١٧٩ .

(٢) أعلام النبوة : ١٢٧ ــ ١٢٨ .

(٣) النظم القرآني في آيات الجهاد : ١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لك، فلا تُخلّ بشيء منها)) (١)، ثم أخذ عبدالقاهر يذكر القواعد التطبيقية لنظريته هـذه، وعقد لها فصولاً كثيرة، كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، والفصل والوصل، وغيرها.

كما وقف الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣ هـ) في " التحرير والتنوير " عند نظرية النظم، وطبّق ما قاله عبدالقاهر الجرجاني حول هذه النظرية، يقول ابن عاشور عن النظم: ((إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة فجمل القرآن لها دلالتها الوضعية التركيبية التي يشاركها فيها الكلام العربي كله، ولها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء ولا يصل شيء من كلامهم إلى مَبْلغ بلاغتها.

ولها دلالتها المطويَّة وهي دلالةُ ما يذكر على ما يُقدَّر اعتماداً على القرينة، وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء وكثرت في القرآن مثل تقدير القول وتقدير الموصوف وتقدير الصفة)) (٢).

علاقة المصطلحات البلاغية: الفصاحة، والبلاغة، والنظم، بالإعجاز:

من خلال دراسة هذه المصطلحات البلاغية في كتب دلائل النبوة، يتضح أن علاقة هذه المصطلحات بالإعجاز القرآني علاقة سَبب ومسبّب، فهذه المصطلحات الثلاثة كانت ولا تزال أهمّ أسباب البحث في أسرار الإعجاز القرآني، كما كانت وسائل لإثبات كيفية الإعجاز، ثم إن السرّ الذي يكمن من ورائها هو إقامة الدليل على صدق ما جاء به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ، وبيان صحة الرسالة؛ ليتحقق بذلك فائدتها ومقصودها وهو اجتماع البشر والعباد على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والتدين لله بالرسالة.

---

(١) دلائل الإعجاز : ٨١ .

(٢) التحرير والتنوير : ١ / ١٠٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني
التحدي ببلاغة القرآن

حرص العلماء في كتب دلائل النبوة على تناول موضوع التحدي ببلاغة القرآن الكريم، كما نال نصيباً وافراً من جهودهم المباركة.

هذا وسأعمل على بيان المراحل التي مرَّ بها التحدي، والقدر المعجز من القرآن.

المطلب الأول: مراحل التحدي:

عدَّ بعض العلماء التحدي شرطاً في المعجزة وعنواناً لها دالاً عليها، فقد عرّف الإمام السيوطي ـــ رحمه الله تعالى ـــ المعجزة بأنها: ((أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة)) (١)، وقد جرى على هذا التعريف كثير من العلماء (٢).

والمقصود بالتحدي هو أن يتحدى الرسولُ البشرَ في الإتيان بمثل ما أتى به من البراهين والآيات الدالة على صدق نبوته.

وفي اتخاذ التحدي شرطاً للمعجزة كلامٌ فيه نظر؛ للأسباب الآتية:

١ ـــ أكثر معجزات النبي الكريم محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ كانت غير مقرونة بالتحدي، بل إنه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لم يتحدّ بغير القرآن الكريم، إذ لم يُنقل عنه أنه تحدى بغيره، قال ابن تيمية رحمه الله: ((ومما يلزم أولئك أن ما كان يظهر على يد النبي ﷺ في كلّ وقت من الأوقات ليست دليلاً على نبوَّته؛ لأنه لم يكن كلما ظهر شيء من

---

(١) الإتقان في علوم القرآن : الإمام السيوطي : ٤ / ٥ ، تحقيق : طه عبدالرؤوف سعد ،المكتبة التوفيقية، القاهرة .

(٢) نسبه الشيخ عبدالوهاب الشعرانيّ إلى جمهور الأصوليين ، ينظر : ((اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر)): ١٥٧ ، طبع عباس بن عبدالسلام بن شقرون ، ١٣٥١ هـ .
وارتضاه الشيخ أحمد القسطلاني في ((المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدية)) : ٢ / ٤٩٥ ، تحقيق : صالح أحمد الشامي ، نشر المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ . وارتضاه غيرهم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك احتجَّ به، وتحدى الناس بالإتيان بمثله، بل لم يُنقل عنه التحدي إلا في القرآن خاصة، ولا نُقل التحدي عن غيره من الأنبياء، مثل موسى، والمسيح، وصالح، ولكنَّ السحرة لما عارضوا موسى أبطل معارضتهم)) (١).

٢ ــ أن الله ــ عزّ وجلّ ــ سمى طلبَ المشركين من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ معجزة تدلّ على صدقه آية (٢)، و لم يشترط ــ سبحانه ــ التحدي (٣).

قال تعالى:] وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ Z(٤)، وقال سبحانه:] ! " # $ % & ' ( ) * Z (٥).

ولذلك ينبغي التنبه إلى أن التحدّي ليس مقصوداً لذاته، ((بل المقصودُ لازمه، وهو دلالته على أن النبي صادقٌ فيما يُبلِّغ عن الله، فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر، لحكمةٍ عاليةٍ، وهي إرشادُهم إلى تصديق ما جاء به، ليسعدوا باتباعه في الدنيا والآخرة)) (٦).

وقد تنبّه العرب منذ جاءهم القرآن بأمر التحدي إلى أن قصده إبانة عجزهم عن المجيء بمثله، كما فطن الجاحظ إلى أن القرآن قصد ــ إلى جانب التعجيز ــ أشياء أخرى، كالتقريع بالعجز (٧)، والتوقيف على النقص (١)، أي إعلام العرب جميعاً بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن إلزاماً لهم بالحجة أنَّ كلام الله لا يُؤتى بمثله.

---

(١) النبوات : ١ / ٥٤١ ، كما أوضح شيخ الإسلام ــ رحمه الله تعالى ــ هذا الأمر في آخر الكتاب. ينظر : ٢ / ٧٨٩ ــ ٧٩٤ .

(٢) أي سمّاها الله آية .

(٣) ينظر : إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء : ٣٥ .

(٤) سورة الأنعام : آية : ١٠٩ .

(٥) سورة الإسراء : آية : ٥٩ .

(٦) الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره : د. عبدالغني محمد سعد بركة : ٨ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٩ هـ .

(٧) ينظر : حجج النبوة : ٢٨٠ ، كما ذكره السيوطي في الإتقان : ٤/ ٧ ، و د. عمر الملا حويش في : تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية : ٢٥٨ ، مطبعة الأمة ، بغداد ، ١٣٩٢ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد تعددت أقوال العلمـــاء في كتب دلائل النبـــوة في بيـــان من تحدَّاهم القـــرآن كما يلي(٢):

ـــ المخالفون للنبوة، وفي ذلك يقول الباقلاني: ((وفيه من عظم الشأن ما ليس في غيره من آيات الرسل، وهو بقاؤه تحدياً أبداً للمخالفين في نبوته عليه الـــسلام، في الإتيـــان بمثلـــه وعجزهم عن ذلك)) (٣).

ـــ العرب، وقد وصلت إلينا من العلماء عدة أقوال، اقتُصِر في أحـــدها علـــى العـــرب في موضع، قال الزيدي: ((إن قيل: إنكم بنيتم دلالتكم هذه على أن النبي ـــ صلى الله عليـــه وسلم ـــ تحدى العرب بالقرآن، فدلوا عليه وبيّنوه، ليستتب غرضكم..)) (٤).

وجُمع بين العرب وقريش في موضع آخر، قال الجاحظ: ((إن محمداً ـــ صـــلى الله عليه وسلم ـــ مخصوصٌ بعلامة لها في العقل موقع، كموقع فَلْق البحر من العين، وذلك قوله لقريشٍ خاصة، وللعرب عامة، مع ما فيهما من الشعراء، والخطبـــاء، والبلغـــاء، والـــدُّهاة، والحُلماء، وأصحاب الرأي والمكيدة، والتجارب، والنظر في العاقبة: إنْ عارضتموني بـــسورةٍ واحدةٍ فقد كذبتُ في دعوايَ، وصَدَقتم في تكذيبي)) (٥).

ـــ الأمم، وفي ذلك يقول الماوردي: ((والوجه التاسع عشر من إعجازه: عجزُ الأمم عـــن معارضته، وقد تحدَّاهم أن يأتوا بسورة مثله، فلم تُخرجْهم أنَفَة التحدي، وصبروا على نغْصِ العجزِ مع شدة حميَّتهم، وقوةِ أنَفَتهم)) (٦).

ـــ الإنس والجن، وفي ذلك يقول ابن قتيبة:((ومن أعلامه ﷺ الكتاب الذي لو اجتمعـــت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا))(١)، ويقـــول

---

(١) ينظر : حجج النبوة : ٢٨٠ ، كما ذكره السيوطي في الإتقان : ٤/ ٧ ـــ ٨ ، و د. عمر حويش : ٢٥٨ .

(٢) جاء ترتيبهم حسب القلة والكثرة، مبتدئاً بالقليل فالأكثر .

(٣) البيان عن الفَرْق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات : ٣١ .

(٤) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٢١ .

(٥) حجج النبوة : ٢٧٣ .

(٦) أعلام النبوة : ١٤٩ ـــ ١٥٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القاضي عبدالجبار: ((لأنه قال لكل واحد من الإنس والجن: إنك لا تأتي بمثل هذا القـــرآن ولا أحـــدٌ يأتي بمثله في كلّ حـــال منفردين ولا مجتمعين)) (٢).

لكنّ المعنيَّ بالتحدي في المقام الأول العربُ، أهل هذه اللغة التي نزل بهـــا القـــرآن، وأصحاب الفصاحة والبلاغة اللذين هما مناط التحدي الأكبر، وإذا عجزوا عنه، فجميع منْ بعدهم بعد ذلك أعجز (٣).

هذا وقد عرضوا في هذا الموضوع بعض القضايا مثل:

ـــ **توجّه التحدي لغير العرب:** كعوام الفرس، والهند، والروم، والزنج، ومن جرى مجراهم من سائر الأمم: فهل التحدي موجّه إليهم أيضاً ؟

توصّل الزيدي في هذه القضية إلى جعل هؤلاء ثلاث فرق:

فرقة لا معرفة لهم بشيء من لغات العرب، وفرقة أخذوا اليسير من لغات العـــرب، فهؤلاء لايكون التحدي موجهاً لهم بطبيعة الحال.

وفرقة تعربت وكادت أن تناطح فصحاء العرب، وتباريهم في أقسام المنظوم وأصناف المنثور، وهؤلاء مع فصحاء العرب داخلون في التحدي.

والصحيح أن التحدي القرآني عـــام للعرب ولغيرهم، فعموم التحدي يُفهم من قوله تعالى:] وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ´ Z (٤)، وقولـــه تعالى:] وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ Z (٥)، فالتحـــدي شامـــل لكل ما يمتدّ عليه (من دون الله) من الراغبين في المعارضة، ولهم أن يحشدوا ما شاءوا من الأنصار، ويستعينوا بما شاءوا من مخترعات.

---

(١) أعلام رسول الله : ١٤٢ .

(٢) تثبيت دلائل النبوة : ١ / ٨٥ .

(٣) ينظر : في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم : أ.د. وليد قصاب : ١٧ ، دار القلم للنـــشر والتوزيـــع ، الإمـــارات العربية المتحدة ، ط ١ ، ١٤٢١ هـــ .

(٤) سورة يونس : آية : ٣٨ .

(٥) سورة البقرة : آية : ٢٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن قصر التحدي على العرب وجعل عجزهم دليلاً تفصيلياً على عجز العالمين عن المعارضة، فإنه لا يستند إلى النصِّ القرآني الصريح الموجه إلى العالمين جميعاً، كما أنه يتناقض مع عموم الرسالة الذي يقتضي عموم التحدي (١).

ـــ **قضية الملائكة:** وهل يجوز أن يكون الإتيان بمثل القرآن في مقدورهم ؟

ذهب الزيدي إلى أنه لا سبيل له ـــ من طريق النظر ـــ إلى المنع من ذلك، لأن أحوال الملائكة ـــ عليهم السلام ـــ لاتعرف.

كما تناول هذه القضية القاضي عبدالجبار في " إعجاز القرآن " و لم يدخل الملائكة في اعتبار الإعجاز، مثلهم في ذلك مثل الجن، وقال: ((يبين ذلك أنا نعلم بالسمع في بعض الملائكة أنهم يطيرون في الهواء، وأنهم يتصرفون ضروباً من التصرف، لو وقع مثلها ممن يدعي النبوة لكان معجزاً، ولا يمنع وقوع مثله منهم من ذلك؛ لأن عادتهم ليست معتبرة... ويبطل بهذه الطريقة قول من قال: إنما يصح كون القرآن معجزا إذا ثبت أن الملائكة عجزت عن المعارضة، وتعذر ذلك عليها؛ لأنا قد بينا: أن عادتهم غير معتبرة، فتعذرها أو تمكنهم منها لا يختلف في أنه لا يقدح في حال القرآن)) (٢).

ونقل السيوطي أنَّ محمود بن حمزة الكرماني (٣) قال في غرائب التفسير: إنما اقتصر في الآية على ذكر الجن والإنس؛ لأنه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ كان مبعوثاً إلى الثقلين دون الملائكة (٤).

---

(١) ينظر : القرآن يتحدى : ١٢٠ .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن : ١٦ / ٢٩٨ .

(٣) هو محمود بن حمزة بن نصر الكرماني النحوي ، أحد العلماء الفهماء النبلاء ، صاحب التصانيف والفضل ، لم يفارق وطنه ولا رحل ، وكان في حدود الخمسمائة ، وتوفي بعدها . ينظر : معجم الأدباء : ياقوت الحموي : ١٩ / ١٢٥ ، دار الفكر ، ط ٣ ، ١٤٠٠ هـ . وينظر : بغية الوعاة : ٢ / ٢٧٧ ـــ ٢٧٨ .

(٤) ينظر : غرائب التفسير وعجائب التأويل : محمود بن حمزة الكرماني : ١ / ٦٤١ ، تحقيق : شمران سركال يونس العجلي ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، دار الثقافة الإسلامية ، جدة ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ . وينظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن : السيوطي : ١ / ٧ ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلَّل البيضاوي عدم ذكر الملائكة في آية التحدي بقوله: ((لأن إتيانهم بمثله لا يخرجه عن كونه معجزاً، ولأنهم كانوا وسائط في إتيانه)) (١).

وذهب أبو حيان إلى أن الملائكة يحتمل أن يكونوا مندرجين تحت لفظ الجن؛ لأنه قد يطلق عليهم هذا الاسم، كقوله تعالى:] 4 5 6 7 8 Z (٢)، وإن كان الأكثر استعماله في غير الملائكة من الأشكال الجنية المستترين عن أبصار الإنس (٣). ويرى الآلوسي أنه خلاف الظاهر (٤).

وكأن السيوطي أراد هذا القول عندما نُسب إلى بعضهم أنه قال: الملائكة مَنْويون في الآية؛ لأنهم لا يقدرون أيضاً على الإتيان بمثل القرآن(٥).

ولعلّ طرح مثل هذه القضية مما لا أصل له، ويكون حب الجدل هو الدافع لها.

ـ **قضية الجنّ:** وهل يجوز أن يكون الإتيان بمثل القرآن في مقدورهم ؟

ذهب الزيدي فيها إلى مثل ما ذهب إليه في قضية الملائكة، إلا أنه زاد في قضية الجن قوله: ((إلا أنا من طريق السمع علمنا أنه ليس في مقدور الجن... فصار الاشتغالُ به مما لا يجدي، والاعتماد على قول الله عزّ وجلّ:] , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? Z (٦)، وعلى إجماع الأمَّة على ذلك)) (٧).

والحق أن الجن داخلون في التحدي؛ ليكون ذلك أبلغ في العجز، ولوجود النصِّ الصريح.

---

(١) تفسير البيضاوي : ٣ / ٢٦٦ .

(٢) سورة الصافات : آية : ١٥٨ .

(٣) البحر المحيط : أبو حيان : ٦ / ٧٧ ، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ .

(٤) ينظر : روح المعاني : شهاب الدين الآلوسي : ١٥ / ٢١٠ ، تحقيق : محمد أحمد الأمد ، وعمر عبدالسلام السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ .

(٥) ينظر : معترك الأقران : ١ / ٧ .

(٦) سورة الإسراء : آية : ٨٨ .

(٧) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٦٨ ـ ٦٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ **قضية العصْر**: هل التحدي مقصورٌ على أهل عصرِ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو هو عامٌ في جميعِ دهره؟

قال الماوردي:((اختُلف في ذلك على وجهين: أحدهما: يُعتبر فيه عجز أهل العصر؛ لأنهم حجةٌ على أهل كلِّ عصر. والوجه الثاني: أنه يُعتبر فيه عجزُ أهلِ كلِّ عصرٍ لعموم التحدي فيه لأهل كل عصر)) (١).

وقد حكى الباقلاني في كتابه " إعجاز القرآن " أن قوماً زعموا أن أهل عصر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اختصوا بالتحدي دون غيرهم، وأن عجزهم يكفي في الدلالة، أما أهل العصر الراهن فليسوا بعاجزين عنه. وخطَّأ الباقلاني هذا الزعم؛ لأن دلالة القرآن عنده عن معجزة عامة، شملت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدٍّ واحد، وذلك بغضّ النظر عن أنه من الحق عنده أن عجز أهل العصر الأول يُعلم وجه دلالته، ويغني عن نظرٍ مجدَّد في عجز أهل هذا العصر، كما أن عجز هذا العصر يغني عن النظر في حال أهل العصر الأول (٢).

ويبدو أن عبدالقاهر الجرجاني يخالف الباقلاني؛ لأنه يصف زمان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالزمان الذي نزل فيه الوحي، وكان فيه التحدي، ويصف عرب ذاك الزمان بالأصل والقدوة، الذين اختصوا بعلم ما يدخل الكلام من تفاضل، ومن عداهم تبع لهم وقاصر عنهم (٣).

ولم يذكر محمد الصادق عرجون رأياً صريحاً قاطعاً، إذ أعلن أن التحدي يشبه أن يكون خاصاً بجيل العرب الذين عاصروا نزول القرآن وشُوفهوا به؛ لأنهم كانوا أقدر على نظم الكلام في صورته البشرية العليا، كما كانوا أقدر على إدراك مواطن الإعجاز في أسلوب الكلام المعجز. وعالمنا اليوم ـ شرقه وغربه ـ ليس فيه قَوّام أصيل بالذوق

---

(١) أعلام النبوة : ١٥٤ .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن : الباقلاني : ٨ . وينظر : إعجاز القرآن : د. حسين نصار (التحدي) : ٤٧ ـ ٤٨ ، مكتبة مصر ، ط ١ ، ١٩٩٩ م .

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (الرسالة الشافية) : ١١٨ . وينظر : إعجاز القرآن : د. حسين نصار (التحدي) : ٤٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العربي، وإدراك أسرار التعبير الذي ينبع منه الإعجاز البياني في القرآن، ولو وجد هذا العبقري في عصرنا فإنه لا يخرج عن كونه حاكياً ومقلداً لأُصلاء العرب، وفحول الخطباء والمترسِّلين في الجاهلية وصدر الإسلام. والتقليد ـــ مهما بلغ به صاحبه ـــ فإنه عقيم، ليس فيه افتنان ابتكار، ولا تنوع ابتداع، فهو محدود المدى والغاية، ومثل هذا لا يرتفع إلى درجة التحدي بإعجاز القرآن المبين (١).

ويرى محمد أبو زهرة أن القرآن معجزة خالدة يتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بمثله (٢).

وذهبت د. عائشة عبدالرحمن مذهب الجرجاني، ورأت أن نفرِّق بين الإعجاز والتحدي، أما الإعجاز فقائم في كل عصر، لا يختص به أهل زمان دون زمان، وأما مناط التحدي فهو عجز بلغاء العرب ـــ في عصر المبعث ـــ عن معارضة القرآن، وهم أصحاب اللسان العربي الذين يدركون أسرار بيانه، دون أن يُفهم من هذا أن حجة إعجازه خاصة بعصر دون عصر، أو على العرب دون العجم.

وأعلنت أن الخلط بين ما في ثبوت عجز المشركين من العرب عن المعارضة من حسم لموقف التحدي، وبين خلود المعجزة وبقاء الحجة بها ثابتة على مرِّ الدهر، هو مدعاة الالتباس في هذه القضية وطول الجدل فيها.

واتهمت الباقلاني بالاضطراب، ثم قالت: أخشى أن أظلم القاضي الباقلاني بنقل فقرات من كلامه قد أراها تحدد موقفاً له من قضيتي الإعجاز والتحدي، فالحق أنني ما أكاد أستبين له رأياً في فقرة أنقلها من كلامه، حتى يبدو لي في فقرة أخرى تالية غير ما فهمته من الفقرة قبلها، وأحسبه ما تحير في موقفه إلا لأنه لم يفصل بين الإعجاز باقياً أبداً ملزماً للناس جميعاً، على اختلاف العصور وامتداد الزمن، وبين التحدي للعرب المشركين في عصر

(١) ينظر : القرآن العظيم : هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين : محمد الصادق إبراهيم عرجون : ١٦٤ ـــ ١٦٥ (بتصرف يسير) ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٠ هـ .

(٢) ينظر : المعجزة الكبرى " القرآن " : محمد أبو زهرة : ١٥ ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبعث، قد حسمه عجزهم عن أن يأتوا بمثله، وفيهم أمراء البيان ومن يظاهرهم من جن فيما زعموا (١).

ووافق د. عمر الملا حويش رأي الباقلاني، فأعلن أن آيات التحدي لم تقترن بـــزمن معين، كما لم تختص بجماعة دون أخرى، ولا بجيل معين، وإنما جاءت الآيات التي تضمنت التحدي مطلقة، والمطلق يؤخذ على إطلاقـــه ما لم يُقيَّد بنص، فما دام القرآن يتلى، وما دام هناك تحدي، فالعجز عن الإتيان بمثله حاصل (٢).

ولعل الأقرب للصواب هو أنَّ التحدي بالإتيان بمثل القرآن قائم ما دامت البـــشرية موجودة، وأنَّ العجز عنه قد ثبت، ولا يزال ثابتاً، وسيبقى القرآن معجزة خالدة أبد الدهر.

مراحل التحدي:

تحدى الله مشركي العرب ـــ حين اتهموا رسوله ﷺ باختلاق القرآن ـــ أن يـــأتوا بمثله، وكان الحديث عن مراحل التحدي عند علماء دلائل النبوة منقسماً قسمين:

١ ـــ قسمٌ اعتنى بالترتيب، وكان منهم البيهقي والزيدي، فالبيهقيُّ رتّبها من الكثير إلى ما دونه، بمعنى: أنه جعل المرحلة الأولى، التحدي بالإتيان بمثـــل القـــرآن، ثم التحـــدي بالإتيان بعشر سورٍ مثله، ثم التحدي بالإتيـــان بسورة من مثـــله (٣). وأما الزيدي فبـــدأها

(١) ينظر : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق : د. عائـــشة عبـــدالرحمن : ٧٤ ـــ ٧٧ ، دار المعـــارف ، القاهرة ، ط ٢ . وينظر : في إعجاز القرآن الكريم : د. محمد بركات حمدي أبو علي : ٣٢ ، ١٣٥ ، مؤســـسة الخافقين ومكتبتها ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـــ . وينظر : إعجاز القرآن (التحدي) : د. حسين نصار: ٤٩.

(٢) ينظر : تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية : ٢٥٢ .

(٣) ينظر : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالقليل فالكثير، كما ذكر المواضع التي تتضمن معنى التحدي ولو لم يكن اللفظ لفظ التحدي (١).

٢ ــ وقسمٌ تكلّم عن التحدي، ولم يعتنِ بالحديث عن مراحله، وإنما أشار إلى بعضٍ منها، وهم: الجاحظ(٢)، وابن قتيبة(٣)، والباقلاني(٤)، والقاضي عبدالجبار(٥)، والأصبهاني(٦)، والماوردي(٧).

ولعل البيهقي كان أقربهم للصواب، حيث اعتنى بترتيبها، فابتدأ بالكثير ثم تدرج إلى ما دونه، مع عدم ذكره الآية التي في سورة يونس.

والذي يظهر لي أنَّ مراحل التحدي لا بد أن تكون مرتبة على حسب نزول الآية(٨):

فأول ما نزل من آيات التحدي في القرآن الكريم هي الآية من سورة القصص، قال الله تعالى:] © فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ ´ µ ¶ ¸ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ

---

(١) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٢٢ ــ ٢٥ .

(٢) ينظر : حجج النبوة :٢٧٣ ــ ٢٧٧ .

(٣) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٢ .

(٤) ينظر : البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات : ٢٨ .

(٥) ينظر : تثبيت دلائل النبوة : ١ / ٨٥ .

(٦) ينظر : دلائل النبوة : ٢٢٩ ــ ٢٣٠ .

(٧) ينظر : أعلام النبوة : ١٤٩ ــ ١٥٠ .

(٨) هذا الترتيب لعله هو الترتيب المناسب لآيات التحدي ، وهو الذي أميل إليه وإن لم يكن عليه دليل نقلي ، كما أن باقي الأقوال ليس عليها دليلٌ أيضا ، ((وفي المسألة خلاف ، لكنَّ تعقيب الله ــ تعالى ــ آية البقرة بقوله : ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ** ﴾ هذا التعقيب مشعر أن هذه الآية هي الآية الأخيرة في التحدي ، حيث لم تُعقَّب باقي آيات التحدي بمثل هذا التعقيب القاطع لآمال من يريد المعارضة ؛ حيث إنه ليس وراء طلب المثلية الناقصة في سورة واحدة شيءٌ ، والله أعلم)) إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء : ٥٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ Z (١)، وسورة القصص مكية، وهي السورة الثامنة والأربعون في ترتيب النزول (٢).

ثم نزلت سورة الإسراء المكية بعد سورة القصص مباشرة، وهي السورة التاسعة والأربعون في ترتيب النزول (٣)، وفيها قول الله تعالى:] , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? Z(٤)، والمِثل هنا يراد به ما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى (٥)، كما أن المِثل هنا ((ينطبق على القليل والكثير منه وعليه كله))(٦).

ثم نزلت بعدها مباشرة سورة يونس المكية، وهي السورة الخمسون في ترتيب النزول (٧)، وفيها آية التحدي، قال تعالى:] أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ © وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ´ Z (٨)، والمراد بالمثل هنا أي تمام المطابقة في البلاغة وحسن الارتباط، وجزالة المعنى على وجه الافتراء (٩).

ونزلت بعدها مباشرة سورة هود المكية، وهي السورة الحادية والخمسون في ترتيب النزول (١٠)، وفيها آية التحدي، قال تعالى:] ! " # $ % & ' ( )

---

(١) سورة القصص : آية : ٤٩ ــ ٥٠ .

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٩٣ .

(٣) ينظر : المصدر السابق : ١ / ١٩٣ .

(٤) سورة الإسراء : آية : ٨٨ .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : محمد بن محمد أبو السعود : ٥ / ١٩٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٦) إعجاز القرآن (التحدي) : د. حسين نصار : ٦٣ .

(٧) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٩٣ .

(٨) سورة يونس : آية : ٣٨ .

(٩) ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٥٨ .

(١٠) ينظر : المصدر السابق : ١ / ١٩٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(* + , - . / 0 1 2 3 4 Z[1] يقول الزيدي: ((

فأدحض الله تعالى حجتهم، وكذَّب قولهم، وفضَحَهُم بقوله تعالى:] & ' (

(* Z [2]، ودلَّ ذلك على أنَّ الإعجازَ تعلَّق بنظمِه، وإن كان أيضاً متعلّقاً بمعانيه)) [3].

وبعد فترة نزلت سورة الطور المكية، وترتيبها الخامسة والسبعون في النزول [4]، وفيها آية التحدي، قال تعالى:] + , - / 0 1 2 3 4 5 6 7

8 9 Z [5]، أي صادقين في أن محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ تقوله من عند نفسه، وعجزهم عن أن يأتوا بمثله دليل على أنهم كاذبون، ومعنى المثلية في قوله] 5 Z المثلية في فصاحته وبلاغته، وهي خصوصياتٌ يدركونها إذا سمعوها، ولا تحيط قرائحهم بإيداعها في كلامهم [6].

وبهذا يتبين أن آيات التحدي في هذه السور الخمس كلها مكية بالإجماع، ثم نزلت أول سورة بالمدينة، وهي سورة البقرة [7]، وذكر فيها آخر آيات التحدي، قال تعالى:

] وَإِن ´ µ ¶ ¸ نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ Z [8]، وتعني المثلية هنا مطابقة جزئية في أحد الوجوه التي تفوقُ القرآنَ الكريم فصاحة وبلاغة وإيجازاً ونظماً، وغير ذلك من وجوه الحسن في سوره،

---

(١) سورة هود : آية : ١٣ .

(٢) سورة هود : آية : ١٣ .

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٢٣ .

(٤) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٩٣ .

(٥) سورة الطور : آية : ٣٣ ــ ٣٤ .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٧ / ٧٧ ــ ٧٨ .

(٧) أخرج أبو داود في الناسخ والمنسوخ عن عكرمة قال : أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة . ينظر : الدّر المنثور : جلال الدين السيوطي : ١ / ٤٦ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ .

(٨) سورة البقرة : آية : ٢٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتحدَّاهم القرآن في آية البقرة ــ وهي آخر آيات التحدي ــ أن يأتوا بِمِثْلِيَّةٍ ناقصة في مطابقتها، ولا شيء دون هذا في التحدي.

وفي كتب التفسير كلام طويل في (مِنْ) من قوله تعالى:] مِّن مِّثْلِهِۦ Z هل هي تبعيضية أو بيانية أو ابتدائية، وفيها كلام في مرجع الضمير من قوله تعالى:] مِّثْلِهِۦ Z أعلى] عَبْدِنَا Z أم على (ما) من قوله تعالى:] ۥ نَزَّلْنَا Z، وعود الضمير على القرآن الكريم هو المناسب للسياق، وعليه أكثر المفسرين (١).

وقد اتفق أغلب العلماء على ترتيب نزول آيات التحدي المذكورة على النحو المتقدم.

ويلاحظ أن التحدي قد تتابع ما بين السور ٤٨: ٥١، والسبب في ذلك هو اشتداد البلاء على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، من سفهاء قومه بعد وفاة أبي طالب، ووفاة أم المؤمنين خديجة ــ رضي الله تعالى عنها ــ بعده بقليل (٢).

هذا وقد اختلف بعض المفسرين في تقدُّم سورة يونس في النزول وفيها] بِسُورَةٍ © Z على سورة هود وفيها] & ') Z: فذهب المبرّد إلى أن الآية التي فيها التحدي بسورة واحدة قد نزلت قبل آية هود التي تحداهم الله فيها بعشر سور مفتريات (٣)، ورواه ابن الضُّريس (٤) في فضائل القرآن عن ابن عباس (٥)، وهو الذي استقرت عليه الرواية من الثقات كما يقول الزركشي (٦)، ووجه ذلك أنَّ ما وقع أولاً

---

(١) ينظر : روح المعاني : ١ / ٢٦٢ ــ ٢٦٣ .

(٢) ينظر : القرآن يتحدى : ١١٠ .

(٣) ينظر : معالم التنزيل : البغوي : ٤ / ١٦٥ ، تحقيق : محمد عبدالله النمر ، وعثمان جمعة ضميرية ، وسليمان مسلم الحرش ، دار طيبة ، الرياض ، ط ٤ ، ١٤١٧ هـ ، والتحرير والتنوير : ١١ / ٢١٩ .

(٤) أبو عبدالله محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس البجلي الرازي ، من حفاظ الحديث ، مات سنة ٢٩٤ هـ . ينظر : الأعلام : ٦ / ٤٦ .

(٥) ينظر : فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما نزل بالمدينة : ابن الضريس : ٧٣ ، تحقيق ودراسة : د. مسفر بن سعيد الغامدي، دار حافظ للنشر والتوزيع ، جدة، ط ١ ، ١٤٠٨هـ ، وينظر: الإتقان : ١ / ٤٢ .

(٦) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٩٣ ــ ١٩٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هو التحدي بسورة مثله في البلاغـــة والاشتمال على أخبار المغيَّبـــات والأحكام وأخواتها، فلمـــا عجزوا عن ذلك أَمَرَهم بأن يأتوا بعشر سور مثلـــه في النظم، وإن لم تشتمل على ما اشتمل عليه من الإخبار عن المغيبات والأحكام (١).

وذهب البعض ومنهم أبو حيان الأندلسي، وابن كثير ـــ رحمهم الله ـــ إلى أن الآية التي في سورة هود، والتحدي بعشر سور هو النازل أولاً (٢).

وذهب إلى هذا كثير من العلماء (٣)، ومنهم ابن كثير ـــ رحمـــه الله ـــ فقـــال في تفسير آية سورة يونس:] أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ © وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ´ Z (٤): ((فمحمد بشرٌ مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القـــرآن فأتوا أنتم بسورة مثله، أي من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكلّ من قَدرتم عليه من إنس وجان. وهذا هو المقامُ الثالثُ في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانـــــوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد، فلْيُعارضوه بنظير ما جاء به وحده، ولْيَستعينوا بمـــن شاءوا، وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى:] , - .

? > = < ; : 9 8 7 6 5 4 3 2 1 0 /

Z (٥)، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول سورة هـــود:] ! " # |

Z 4 3 2 1 0 / . - , + *) (' & %

---

(١) ينظر : روح المعاني : ١٢ / ٣٠٩ .

(٢) ينظر : البحر المحيط : ٥ / ٢٠٨ . وينظر : تفسير القرآن العظيم : ٢ / ٣٧٩ ـــ ٣٨٠ ، ابن كـــثير ، راجعـــه ونقَّحه : الشيخ خالد محمد محرّم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٢٠ هـــ .

(٣) ينظر : روح المعاني : ١٢ / ٣٠٩ ، والبرهان في علوم القرآن : ٢ / ١١٠ ، والنبأ العظيم : د. محمـــد عبـــدالله دراز : ١٠٤ـــ ١٠٥ ، اعتنى به وخرّج أحاديثه : عبدالحميد الـــدخاخني ،دار طيبـــة،الرياض ، ط ١ ، ١٤١٧ هـــ ، ومعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ودلائل صدق نبوته : الـــشيخ : إبـــراهيم جلـــهوم ، والـــشيخ : عبدالسلام حماد : ٣٠ ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٤٢٥ هـــ .

(٤) سورة يونس : آية : ٣٨ .

(٥) سورة الإسراء : آية : ٨٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١)، ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة:] أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ © وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ´ Z(٢)، وكذا في سورة البقرة وهي مدنية، تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال :] فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ Z (٣) الآية، هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارُهم ومعلّقاتُهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قِبل لأحدٍ به)) (٤).

ولعل الرأي الأول هو الأقرب للصواب؛ حيث ساعد عليه تاريخ النزول، أما الثاني فليس عليه دليل (٥).

ومما يلفت النظر في آيات التحدي أنّ جميعها نزلت بمكة، ما عدا آية البقرة فقد نزلت في المدينة، وهي ليست رداً على الخلق جميعاً، بل هي ردٌّ على من دخل قلبه الشكّ، ولهذا قال سبحانه:] وَإِن ´ µ ¶ ¸ نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ Z (٦)، ولهذا جاءت السور المكية خطاباً لجميع الناس، أما السور المدنية فأغلبها خطاب لمن أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين (٧).

لقد تحداهم الله في سورة البقرة، فقَطع لهم أنهم لن يفعلوا، وهي كلمةٌ يستحيل أن تكون إلا من الله، وقد سمعوها واستقرّت فيهم ودَارت على الألسنة، وعرفوا أنها تَنفي عنهم

---

(١) سورة هود : آية : ١٣ .

(٢) سورة يونس : آية : ٣٨ .

(٣) سورة البقرة : آية : ٢٤ .

(٤) تفسير القرآن العظيم : ٢ / ٣٧٩ ــ ٣٨٠ .

(٥) ينظر : في ظلال القرآن : سيد قطب : ٤ / ١٨٦١ ، دار الشروق ، بيروت ، ط ١٣ ، ١٤٠٧ هـ .

(٦) سورة البقرة : آية : ٢٣ .

(٧) ينظر : أسرار ترتيب سور القرآن : السيوطي : ٢١ ، تحقيق : رضى فرج الهَمامي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٥ هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القدرة على الإتيان بذلك مدى الدَّهر، وتُعجزهم آخر الأبد فما فعلوا ولا طَمعوا قطّ أن يفعلوا (١).

تحَّداهم القرآن ((والكلام كلامُهم وهو سيِّد عملِهم، فقد فاض بيانُهم، وجاشت به صدورُهم، وغلبتهم قوتُهم، عليه عند أنفسهم، حتى قالوا في الحيات والعقارب...

ومحالٌ في التعارف، ومستنكَرٌ في التصادق، أن يكون الكلامُ أخْصَرَ عندهم، وأيسرَ مئونةً عليهم، وهو أبلغ في تكذيبهم، وأنقضُ لقوله، وأجدر أن يعرف ذلك أصحابُه فيجتمعوا على ترك استعماله، والاستغناء به، وهم يبذلون مُهَجَهُم وأموالهم، ويخرجون من ديارهم في إطفاء أمره، وفي توهين ما جاء به، ولا يقولون، بل لا يقول واحدٌ من جماعتهم: لِمَ تقتلون أنفسكم، وتستهلكون أموالكم، وتخرجون من دياركم، والحيلةُ في أمره يسيرة، والمأخذ في أمره قريب ؟! ليؤلِّف واحدٌ من شعرائكم وخطبائكم كلاماً في نظم كلامه، كأقصر سورة يُخذِّلكم بها، وكأصغر آيةٍ دعاكُم إلى معارضتها)) (٢) .

ولأحد الباحثين المعاصرين (٣) كلام لطيف تحت عنوان: ((من إيحاءات آيات التحدي)) قال فيه:

ـ ((توزَّعت هذه الآياتُ في القرآن المكي والمدني، وفي ذلك استمرارٌ للتحدي، فحيثما وجد كافر يطعن في مصدر القرآن فيوجه له التحدي لمعارضته)).

ـ ((كان يسبق آية التحدي إشارة إلى شك الكافرين في القرآن)).

ـ ((كان يتبع آية التحدي إشارةٌ إلى مصدر القرآن)).

ـ ((كلمة ﴿ **مثْلِه** ﴾ وردت في كل آيات التحدي، فليس المطلوب الإتيان بنفس القرآن؛ لأنه كلام الله، ولكن المطلوب الإتيان بمثله، والمثلية ليست المثليةَ في معانيه وأخباره

---

(١) ينظر:إعجاز القرآن والبلاغة النبوية:مصطفى صادق الرافعي:١٦٦،دار الفكر العربي،مصر، ١٤١٦ هـ .

(٢) حجج النبوة : ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٣) هو د. صلاح عبدالفتاح الخالدي ، في كتابه : البيان في إعجاز القرآن،دار عمَّان،الأردن،ط ٣ ، ١٤١٣ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلومه وأحكامه (١)، ولكنها المثلية في جمله ومفرداته وكلماته، المثلية في أسلوبه وفصاحته وبلاغته)) (٢).

فالقرآن الكريم إذن ــ بشهادة التاريخ الناطقة ــ قد أعجز العرب عجزاً لم يستطيعوا له دفعاً، و لم يجدوا عنه مهرباً.

ومضى الأمر على ذلك حتى انتهى عصر نزول القرآن، وتتابعت بعده العصور، وكلما جاء عصرٌ كانت معجزة القرآن أسطع بريقاً وأشدّ توهجاً، وكان أهله أشدّ عجزاً في التجرؤ على مطاولته (٣).

(١) الدكتور صلاح الخالدي يحصر الإعجاز في القرآن بالإعجاز البياني فقط ، وقد ذكر رأيه هذا في عدد من صفحات كتابه ، ينظر : ٧٨ ــ ٩٢ .

(٢) البيان في إعجاز القرآن : ٦٥ ــ ٦٧ .

(٣) ينظر : الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره : ١١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المطلب الثاني: القدر المعجز للتحدي:

ومما يتصل بالحديث عن مراحل التحدي بالقرآن، الحديث عن القدر المعجز من القرآن الكريم، وقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تحديد القدر المعجز من القرآن الكريم: أيتحقّق الإعجاز بسورة كاملة؟ أم بآية؟ أم بكلمة؟ أم بحرف؟ أم أن الإعجاز لا يتحقق إلا بالقرآن كاملاً أو بعشر سور منه؟ ولعلّ مردّ هذا الخلاف ــ والله أعلم ــ إلى تلك الآيات التي أنزلت في مناسبات مختلفة تحدياً لأولئك المشركين الذين تصدّوا للدعوة الإسلامية في مهدها، وزعموا أن بإمكانهم أن يأتوا بمثل القرآن، قال تعالى: [s t u v w x y z { | } ~ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ Z (١).

هذا وقد أشار بعض العلماء في كتب دلائل النبوة إلى القدر المعجز، لكنّ آراءهم قد تبايَنَتْ حوله.

والجدير بالذكر أنَّ أولَ إشارةٍ إلى القدرِ المعجزِ من القرآن، وأقدمَ نصٍّ في هذا الصدد، كان لواحدٍ من هؤلاء العلماء وهو الجاحظ، فقد ذهب إلى أن السورة القصيرة هي أقلّ المعجز، وذلك حين قال:((لو أنَّ رجلاً من العرب قرأ على رجلٍ من خُطَبائهم وبُلَغائهم سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، لتبيَّن له في نِظَامِها ومَخْرجها، وفي لفظِها وطَبْعها، أنه عاجزٌ عن مثلِها، ولو تحدَّى بها أبلغ العربِ لظهرَ عجزُه عنها)) (٢)،كما نفى الجاحظ ــ صراحة ــ أن يكون الإعجاز فيما دون السورة الواحدة، إذ استمرَّ فقال:((وليس ذلك في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين. ألا ترى أنَّ الناسَ قد كان يتهيَّأ في طبائعهم، ويجري على ألسنتهم أن يقول رجلٌ منهم: الحمد لله، وإنَّا لله، وعلى الله توكَّلْنا، وحسبُنا الله ونعم الوكيل، وهذا كلُّه في القرآن، غير أنَّه متفرّقٌ غير مجتمع، ولو أرادَ أنْطَقُ الناسِ أن يُؤلِّف من

---

(١) سورة الأنفال : آية : ٣١ .

(٢) حجج النبوة : ٢٢٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الضَّرب سورةً واحدةً، طويلة أو قصيرة، على نظمِ القرآن وطَبْعِه، وتأليفه ومخرجه، لما قَدَر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومَعد بن عدنان)) (١).

ويتضح من خلال هذا النصّ أنَّ الجاحظَ يجعل المقدار المعجز في السورة الواحدة، طويلة كانت أم قصيرة، وينفيه عن جزء الآية من الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين.

والعجيب في الأمر أنَّ الجاحظ في مواضع أخرى أشار إلى القدر المعجز، لكنه في هذه المرة جعله في الآيات المجتمعة دون أن تكون سورة مستقلّة، كما جعله في الآية الواحدة، قال الجاحظ: ((بعث الله محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً...، وهو في ذلك يحتجُّ عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة.

فكلَّما ازداد تحدياً لهم بها، وتقريعاً لعجزهم عنها تكشَّف من نقصهم ما كان مستوراً، وظَهر منه ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجَّة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنُك ما لا يمكننا.

قال: فهاتوها مفتريات، فلم يَرُم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع فيه لتكلَّفه، ولو تكلَّفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجدَ مَنْ يستجيده ويحامي عليه [ويكابر] (٢) فيه، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض.

فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، واستحالة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه، وخطباء أمته؛ لأنَّ سورة واحدة، أو آيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال.)) (٣).

---

(١) المصدر السابق : ٢٢٩ .

(٢) [يكابر] وردت في موضع : يكايد ، وفي موضع آخر : يكابد ، وأحسب أن الأولى هي الأقرب .

(٣) ينظر : الإتقان : ٤ / ٧ ، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١٦٧ ــ ١٦٨ ، وفكرة إعجاز القرآن : ٢٨ ، وبلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار وأثره في الدراسات البلاغية : ٤٣٣ ــ ٤٣٤ ، والإعجاز البلاغي : دراسة تحليلية لتراث أهل العلم : د. محمد محمد أبو موسى : ٣٦٣ ــ ٣٦٤ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٢ ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويقول الجاحظُ في موضعٍ آخر: ((ليؤلِّف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاماً في نظم كلامه، كأقصر سورة يُخذِّلكم بها، وكأصغر آيةٍ دعاكُم إلى معارضتها)) (١).

وبهذا القول يكون الجاحظ قد خالف أقواله السابقة التي يرى فيها أنَّ السورة القصيرة هي أقلّ المعجز، ويُعتقد بأن عبارة (أصغر آية) جرت على قلمه استرسالاً في الحديث على سهوٍ منه، أو أنها محرَّفة عن (أطول آية) (٢).

ويتفق ابن قتيبة مع الجاحظ في بيان أن السورة القصيرة هي أقل المعجز، وفي ذلك يقول:((وقلنا في قوم من أهل الزيغ والإلحاد أوتوا طرفاً من البلاغة وحظّاً من البيان، أن يصنعوا شيئاً يقرب منه، فيتلبسون به، فلما وجدوه مكان النجم فريد التناول، مالوا إلى السور القصار، كسورة الكوثر، وسورة الفتح وأشباههما؛ لوقوع الشبهة على الجهال فيما قلَّ عدد حروفه، ولأن المعجزة إنما تظهر في التأليف والاتصال، فإذا قلَّ التأليف وقعت الشبهة)) (٣).

وكذلك الباقلاني اتفق تماماً مع الجاحظ وابن قتيبة، فذهب ينفي أن يكون الإعجاز فيما دون السورة، حيث قال: ((لم يجز لأحد أن يطعن على إعجاز القرآن بما فيه من بلاغة النظم، وحُسن الوزن، والرصف المفارق لجميع أوزان كلام العرب ونظومه، بأن الناس يقدرون على مثل الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين، وآية وبعض آية، لأنّ الكثير من ذلك مفارق للقليل)) (٤).

ثم إن الباقلاني في كتابه " إعجاز القرآن "، جعل الإعجازَ متعلّقاً بسورةٍ تامةٍ قصيرة كانت أو طويلة، أو بآية تعادل قدرها، وقال هذا هو ((الذي ذَهب إليه عامةُ أصحابِنا، وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري (٥) في كُتبه، أنَّ أقلّ ما يُعجز عنه من القرآن السورةُ،

١٤١٨ هـ .

(١) حجج النبوة : ٢٧٤ .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن (التحدي) : د. حسين نصار : ٩٥ .

(٣) أعلام رسول الله : ١٤٣ .

(٤) البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات : ٢٥ .

(٥) هو إمام المتكلمين أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقَدْرها. قال: فإذا كانت الآيةُ بقدْرِ حروف السورة، وإن كانت سورة الكَوْثَر، فذلك مُعجِز. قال: و لم يقمْ دليلٌ على عَجزِهم عن المعارضةِ في أقلّ من هذا القدْر)) (١).

وأما الزيدي فقد ألمح إلى القدر المعجز، و لم يحدّده بقدر معيّن، غير أنَّه يُفهم من كلامه إرادة تحديده بسورة (طويلة) تامة، فقد قال وهو يتحدّث عن إعجاب بعض من كان يتعاطى الفصاحة من أهل عصره بفصلٍ يُحكى عن طُليحة الأسدي (٢):((وهذا الفصل إنما صار له يسيرٌ من الروْنق؛ لأنه أدخل فيه شيئاً من ألفاظ القرآن... على أنَّ هذا القَدر، وبأضعافه لا يمكن أن يُعرف حال الكلام، وحال المتكلّم، كما أن بالبيت الواحد، وبالبيتين لا يمكن أن يُعرف حال الشاعر، وبالفصل الواحد وبالفصلين وبالثلاثة لا يمكن أن يُعرف حال الكاتب والكتابة، وإنما يمكن أن يُعرف ذلك إذا امتدَّ نَفَس الكلام، وظهر التصرّف فيه، ولهذا نقول: إن بهذا القدر من القرآن لا يمكن أن يُعرف إعجازه؛ لأنَّ هذا القدر من القرآن لا يمكن أن يُعرف إعجازه؛ لأنَّ هذا القدر وأضعافه قد يتَّفق فيه مالا يمكن لصاحبه الاستمرار عليه))(٣).

فقوله: (وبالفصل الواحد وبالفصلين وبالثلاثة لا يمكن أن يُعرف حال الكاتب والكتابة، وإنما يُعرف ذلك إذا امتدّ نفس الكلام، وظهر التصرّف فيه) إشارة إلى أنَّ السورة القصيرة، والآية الواحدة لا يتعلّق فيهما الإعجاز، والدليل على هذا قوله في موضع آخر: ((فأما السُّور القِصار، فليس يبعد عندي أن يُقال: إنهم صُرفوا عن الإتيان بمثلها، إذ ليس يظهر

ولد سنة ٢٦٠ هـ ، ولما برع في الاعتزال كرهه وتبرأ منه ، وصعد للناس فتاب إلى الله منه ، ثم أخذ يردّ على المعتزلة ويهتك عوارهم ، مات ببغداد سنة ٣٢٤ هـ .

ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٥ / ٨٥ ــ ٨٩ .

(١) إعجاز القرآن : ٢٥٤ .

(٢) وهو ممن ادعى النبوة في عهد أبي بكر رضي الله عنه، أسلم لما توفي الصدّيق ، أبلى يوم نهاوند ، ثم استشهد رضي الله عنه. ينظر :سير أعلام النبلاء:١/٣١٧ ،وفتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري: ابن حجر العسقلاني:١٣/٢٥٨،رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه واستقصى أطرافه ونبّه على أرقامها في كلّ حديث:محمد فؤاد عبدالباقي،وقام بإخراجه وتصحيح تجاربه وأشرف على طبعه:محب الدين الخطيب،دار الفكر.

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٤٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لنا في نظمها وفصاحتهـــا ما يمكن أن نقول: إن الإعجاز يُعلّق فيه)) (١)، مع أنَّ الزيدي لا يؤمن بمبدأ القول بالصرفة (٢)، إذ عَقَّب على كلامه السابق مباشرة بقوله: ((وهذا فيه نظر، والله أسأل حسن التوفيق)) (٣)، لكنه أراد أن يشير ـــ والله أعلم ـــ إلى أنَّ القدر المعجـــز هو ما تعلَّق بسورة طويلة تامة.

وأما الماوردي فيرى أنَّ الإعجاز يتعلّق بالسورة التامة، وأنَّ القدر المعجز ((مختصٌّ بما وقع به التحدي، كأقصر سورة في القرآن، آيات وحروفاً، وهي سورة الكوثر، وما قـــصر عنه لا إعجاز فيه)) (٤).

ومن خلال ما سبق يتبيّن اختلاف علماء دلائل النبوة في القدر المعجـــز للتحـــدي، فمنهم من جعله متعلّقاً في السورة الواحدة طويلة كانت أو قصيرة كالجاحظ وابـــن قتيبـــة والباقلاني والماوردي، ومنهم من ألمح إلى أنَّ الإعجاز يكون في الـــســـورة الطويلـــة دون القصيرة كالزيدي، ومنهم من رأى أنَّ الآيـــة إذا كانت بقدر حروف سورة فذلك معجـــز كالباقلاني.

والجدير بالذكر أنَّ الجاحظ جاء بكلّ ما تحدّث عنه العلماء إلى وقتنا هذا، من طول السورة وقصرها التي يتحدى القرآن بها، وبيان حكم الآيات المجتمعة أو الآية الطويلة الـــتي بقدر سورة واحدة، وكذلك بيان حكم ما هو أقصر من السورة.

هذا وقد اختلف المفسرون في القدر المتحدَّى به، وذلك عند تفسيرهم لقوله تعـــالى:] & ') (* Z (٥)، فذهب أكثرهم إلى أنه قَدْر عشر سور من تماثل القرآن في نظمه ومعناه، والمراد بالمعنى ما يتضمنه القرآن من إخبار عـــن الغيـــب، ووعـــد ووعيد، وحِكم وأحكام.

---

(١) المصدر السابق : ٩٦ .

(٢) سيأتي الحديث عنه في المبحث الثالث من هذ الفصل إن شاء الله .

(٣) المصدر السابق : ٩٦ .

(٤) أعلام النبوة : ١٣٢ .

(٥) سورة هود : آية : ١٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وذهب آخرون ومنهم الزمخشري، والبيضاوي، والبغوي، وابن عطية، والبقاعي، والآلوسي، إلى أن المطلوب في المتحدى به هو مماثلة بعض القرآن في حسن النظم والبيان فحسب، دون المغيبات، والحِكم والأحكام، والوعد والوعيد (١).

قال ابن عطية ــ رحمه الله تعالى ــ عند تفسير هذه الآية: ((ووقع التحدي في هذه الآية بعشر؛ لأنه قيدها بالافتراء، فوسع عليهم في القدر لتقوم الحجة غاية القيام، إذ قد أعجزهم في غير هذه الآية بسورة من مثله دون تقييد، فهذه مماثلة تامة في غيوب القرآن ومعانيه الحجة، ونظمه ووعده ووعيده وعجزوا في هذه الآية بل قيل لهم: عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير، والغرض واحد، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه، فهذه غاية التوسعة)) (٢).

وقال البقاعي ــ رحمه الله تعالى ــ عند تفسيره هذه الآية من سورة هود: ((مفتريات: أي إنكم قد عجزتم عن الإتيان بسورة، أي قطعة واحدة، آيةٍ أو آيات من مثله، فيما هو عليه من البلاغة والإخبار بالمغيبات والحِكم والأحكام، والوعد والوعيد، والأمثال، وادعيتم مكابرة أنه مفترى فارغ عن الحِكم، فأتوا بعشر مثله في مجرد البلاغة غير ملزمين بحقائق المعاني وصحة المباني)) (٣).

ولعلّ مذهب الفريق الثاني هو الراجح؛ ففي سورة هود جاء تقييد القرآن السور المماثلة بقوله " مفتريات "، و لم يرد نظير هذا القيد الإضافي في سورة يونس على الرغم من التشابه في السياق، قال تعالى في سورة يونس:] أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ © وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ´ Z (٤)، والافتراء هو الكذب، وهل

(١) ينظر : الكشاف للزمخشري : ٣ / ١٨٧ ، تحقيق : عادل أحمد عبدالموجود ، وعلي محمد معوض ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ . وينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي : ٣/ ١٣٠ ، إعداد وتقديم : محمد المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ٧ / ٢٥٠ ــ ٢٥١ .

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : البقاعي : ٩ / ٢٤٨ ، الدار السلفية ، الهند ، ط ١ ، ١٣٩٥ هـ .

(٤) سورة يونس : آية : ٣٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكذب إلا مخالفة الخبر للواقع، إذاً المطلوب منهم عشر سورٍ لا تحتوي على معان وأخبار وعلوم تطابق الواقع، فهل خلاف الحقّ والواقع في ذلك يُعقل أن يُعدَّ مماثلاً لما في القرآن ؟ لذلك تحتَّم أن يقال إنما ورد التحدي هنا بأسلوب القرآن البياني دون أوجه الإعجاز الأخرى، وهذا مقتضى إعمال الفهم في لفظ " مفتريات " واعتباره يحمل معنى؛ لأن القرآن ــ ولله الحمد ــ بريء عن الفضول في القول والتزيد في الكلام (١).

كما اختلف العلماء أيضاً ــ فيما بعد ــ في هذا القدر على أقوال هي:

القول الأول: أن الإعجاز متعلّقٌ بجميع القرآن لا ببعضه، وهذا ما ذهب إليه بعض المعتزلة، وهذا القول مردودٌ بالآيات التي تتحدى بعشر سور، وبسورة واحدة، أو حديثٍ مثله(٢).

القول الثاني: رأي الجمهور، وهو أنَّ الإعجاز متعلق بسورة واحدة طويلة أو قصيرة، وأضاف بعضهم ما كان بقدر سورة تامة(٣).

القول الثالث: أن الإعجاز يتعلّق بقليل القرآن وكثيره.

لقوله تعالى:] 3 4 5 6 7 8 9 Z (٤).

وروى ابن حزم أنَّ سائر أهل الإسلام ذهبوا إلى هذا الرأي (٥)، وقد ذهب الشيخ مناع القطان ــ رحمه الله ــ إلى أنَّ الإعجاز لا ينحصر في قدرٍ معيَّن؛ ((لأننا نجده في

---

(١) ينظر : المعجزة الخالدة : ١١٨ .

(٢) ينظر : الإتقان : ٤ / ١٩ ، ومباحث في علوم القرآن : مناع القطان : ٢٥٦ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١٣، ١٤٢٥ هـ ، ودراسات في علوم القرآن الكريم : أ .د. فهد بن عبدالرحمن الرومي : ٢٧٠ ، ط ١٢، ١٤٢٤ هـ .

(٣) ينظر : إعجاز القرآن : الباقلاني : ٢٥٤ ، والبرهان :٢ / ١٠٨ ، والإتقان:٤ / ١٩، ومناهل العرفان : ٢ / ٣٠٦ .

(٤) سورة الطور : آية : ٣٤ .

(٥) ينظر : الفِصَل في الملل والأهواء والنحل : ابن حزم الظاهري : ٣ / ٢٩ ، تحقيق : د. محمد إبراهيم نصر ، و د. عبدالرحمن عميرة ، مكتبة عكاظ ، المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أصوات حروفه، ووقْع كلماته، كما نجده في الآية والسورة، فالقرآن كلام الله وكفى)) (١).

ولعل القول الثاني هو الأرجح؛ لأنه هو الموافق لتعريف القرآن، حيث عرّفه العلماء بقولهم: هو كلام الله تعالى، المنزل على محمد ﷺ للإعجاز بسورة منه المتعبد بتلاوته (٢).

(١) مباحث في علوم القرآن : ٢٥٦ .

(٢) ينظر : روح المعاني : ١ / ١٣ ، والتحرير والتنوير : ٢٧ / ٢١٨ ، والنبأ العظيم : ١٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثالث
دعوى الإتيان بمثل القرآن

أورد المؤرخون والرواة أخباراً متعدّدة تكشف أنه قد وقعت عدّة محاولات لمعارضة القرآن، وشَغْل الناس عنه، والإتيان بما يماثله. ومن هذه المحاولات ما هو ثابتٌ تاريخياً، ومنها ما هو موضع شكّ كثير أو قليل (١).

ومن المعلوم أنّ العرب أهل أَنَفَة ومكابرة؛ ولهذا لما نزلت الآيات التي تطالبهم بالإتيان بمثل القرآن، لم يُسلِّموا بأنه كلام الله سبحانه وتعالى؛ تجبراً منهم وطغيانا.

هذا وقد كان العلماء في كتب دلائل النبوة من الأوائل الذين طرقوا هذا الموضوع، وبيّنوا ما كان عليه العرب من أحوالٍ أثبتت عجزهم عن معارضة القرآن، كما بيّنوا اعتراف بلغائهم بإعجاز القرآن، كما ساقوا شيئاً من المحاولات السخيفة التي ضحك منها أنصارهم قبل خصومهم، والتي فضحت عجزهم عن مجاراة القرآن.

هذا وسيكون الحديث في هذه القضية حول ثلاثة مطالب هي:

١ ــ المعارضة المخفية.

٢ ــ المعارضة المعلنة.

٣ ــ القول بالصرفة.

والمعارضة كما وردت في كتب الدراسات القرآنية، يلخصها الدكتور عبدالرؤوف مخلوف بقوله:((أن ينشئ إنسان كلاماً يزعم أنه على غرار القرآن، ويثبت له ما للقرآن من صفات فنية)) (٢).

---

(١) ينظر : إعجاز القرآن (المعارضة) : د. حسين نصار: ١١٣ .

(٢) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن : دراسة تحليلية نقدية : ٢١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد اتفق أصحاب الرأي من أهل الفصاحة والبلاغة على أن المعارضة بين الكلامين لا تعد إلا إذا كان بينهما مقاربة، بحيث يلتبس أحدهما على الآخر أو يكون مقارباً له، يقول الخطابي: ((وسبيل من عارض صاحبه في خطبة أو شعر أن ينشئ له كلاماً جديداً، ويحدث له معنى بديعاً، فيجاريه في لفظه، ويباريه في معناه، ليوازن بين الكلامين، فيحكم بالفلج لمن أبر منهما على صاحبه، وليس بأن يتحيف من أطراف كلام خصمه فينسف منه ثم يبدل كلمة مكان كلمة، فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع وتلفيق، ثم يزعم أنه قد واقفه موقف المعارضين)) (١).

وقد دَرَج بعض العلماء على اعتبار قعود العرب عن معارضة القرآن أحد أوجه إعجاز القرآن الكريم (٢)، والصواب أنَّ قعودهم عن المعارضة دليلٌ يثبت إعجاز القرآن، وليس وجهاً من أوجه إعجازه؛ لأنَّ وجه الإعجاز لابدَّ أن يكون أمراً قائماً بالقرآن (٣).

(١) بيان إعجاز القرآن : ٥٨ .

(٢) ينظر : النكت في إعجاز القرآن ضمن(ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ١٠٩ ، وإعجاز القرآن للباقلاني : ٢١ ــ ٢٤ .

(٣) ينظر : المعجزة الخالدة : ١٢٦ ، وإعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء : ١٧٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المطلب الأول : المعارضة المخفية :

يبدو أنَّ هناك من ادعى أنه قد وجدت معارضات مخفيَّة للقرآن الكريم، غير أنَّ المسلمين ــ عندما صارت السلطة لهم ــ تمكنوا من القضاء على هذه المعارضات، وإعدام أخبارها، فصارت كأن لم تكن؛ ولذلك تصدَّى المفكرون المسلمون لهذا الزعم (١).

وكان أول من فعل ذلك من العلماء في كتب دلائل النبوة هو القاضي عبدالجبار، حيث قرَّر تعذُّر التواطؤ على كتمان المعارضة حين كانت القوة والغلبة للمسلمين، وفي ذلك يقول:((فإن قيل: ما تنكرون أن يكونوا قد أتوا بمثله، قيل له: لو أتوا بمثله لجاء ذلك مجيء القرآن، ولكان العلم به كالعلم بالقرآن، ولجاء مجيء أمثاله من الأمور التي كانت بينهم وبينه، وما قاله لهم وقالوه له.

فإن قيل: فإن الغلبة والدولة منعت من إظهار ذلك ونشره ونقله والتحدث به؛ لأنه ظهر وقهر في حياته، وقام أبو بكر بعده فقتل مسيلمة، وردَّ الرِّدة، وأسر طليحة، وغزا فارس والروم، وأذلَّ أعداء محمد ﷺ في كلِّ مكان، وأسكتهم وأخرصهم، وأعزَّ أولياءه وأهل طاعته، وكذا من أتى بعده من الأولياء والملوك. وبعد: كيف تنقلون ذلك وتذكرونه وأنتم تكرهونه، وفيه بطلان قولكم ودينكم؟

قيل له: إنك ما تزيدنا على الدعاوى الخالية من كل حجة، وإذا أثبتنا لك بطلان دعواك الأولى، انتقلت إلى دعوى أخرى، فإنك قلت في الأول: أتوا بمثله، فقلنا لك: فأين هو وأين العلم به، فانتقلت فادعيت أن الغلبة والدولة منعت من إظهاره ونقله، فدعواك الثانية كالأولى. على أن دليلنا هذا قد دلَّ على أنهم ما أتوا بمثله، ولا بما يقاربه، ولا بما يدانيه، ما هناك شيء يُنقل ولا يذكر ولا يكتم ولا يستر، ولا فرق بين من ادعى هذا أو ادعى أن مائة ألف قد أتوا بمثله، وإنما الدولة قهرتهم ومنعتهم من إظهار ما أتوا به)) (٢). ثم

---

(١) ينظر : إعجاز القرآن : د. حسين نصار : ٩٦ .

(٢) تثبيت دلائل النبوة : ٢ / ٣٧٢ ــ ٣٧٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سرد القاضي عبدالجبار أمثلة كثيرة بيَّن فيها عدم جواز إسهام الدول والممالك في كتمان المعارضات، وأن المسلمين أنفسهم قد نقلوا ذلك وخلَّدوه، مع ما فيه من إساءة لهم(١).

ولا يختلف الزيدي كثيراً عن القاضي عبدالجبار، غير أنه فصلَّ القول في عدم جواز الكتمان، وبيَّن أنَّ معارضة القرآن لو تمَّت لنُقلت ووصلت إلينا، يقول الزيدي:

((فإن قيل: فما الدليل على أنَّ رسول الله ــ صلى الله عليه وعلى آله ــ لما تحدَّاهم بالقرآن لم يعارضْه أقوامٌ و لم يأتوا بمثله ؟

قيل له: الدليل على ذلك أنه لو كان لنُقل، ولو نُقل لوَقَع العِلْم، فلمَّا لم يقَع العلم به، عَلمنا أنَّه لم يُنقل، وإذا ثَبَت أنه لم يُنقل، ثبت أنه لم يكن)) (٢).

كما يُبيّن في موضع آخر أنَّ معارضة القرآن لم تقع؛ خوفاً من السيف، وعلوّ كلمة الإسلام فيقول:

((فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون خوف السيف، وعلوّ كلمة الإسلام، أوجب خفاء نقل المعارضة، أو منع ابتدائها.

قيل له: أما ابتداؤها والإتيان بها لو لم يتعذر عليهم كان لا يجوز أن يكون ما ذكرتم مانعاً لهم منها؛ لأن الأحوال كانت على خلاف ذلك...، وأما النقل فلا يجوز أن يخفى لما ذكرتم، ألا ترى أنَّ عامة الأحوال مع قوة جملة المسلمين، وظهور أمره لم يسلم من أن يكون فيها من كان يطعن على النبي ــ صلى الله عليه وعلى آله ــ ويروم القدح في الإسلام ؟))(٣).

ثم يضرب الزيدي مثلاً بيزيد بن معاوية لما حُمِل إليه رأس الحسين بن علي ــ رضي الله عنه ــ ومثلاً آخر بالوليد بن عبدالملك بن مروان، وأنَّه يَظن في أيام خلافته في المصحف، وقيل إنه حرقه، وقد ساق الزيدي لهما أبياتاً (٤)، علَّق على الأولى منها

---

(١) ينظر : المصدر السابق : ٢ / ٣٧٣ ــ ٣٧٨ .

(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٣٣ .

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٣٦ .

(٤) هذه الأبيات لا يحسن ذكرها هنا ؛ لما فيها من الفجور والفسق ، ولأنها ــ إن صحت ــ قد تخرج صاحبها من الإسلام ، والعياذ بالله .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بقوله:((فمن لا يتحاشى أن يقول ذلك، أيّ مانع يكون في زمانه من نقل معارضته القرآن، وهو السلطان المنتصب للخلافة)) (١)، وعلى الثانية بقوله: ((فكيف يظن بأن نقل المعارضة للقرآن يخفى في زمانه، أو كان يقع الكف عنها، لولا التعذر. ثم كان في آخر أيام بني أمية، وأول أيام بني العباس، مثل ابن المقفع الذي تهوس (٢)، وأوهم الأغمار (٣) أنه ممن يعارض القرآن، و لم يتحاش ذلك)) (٤).

كما أوضح الزيدي أنَّ ابن الراوندي (٥) صنَّف " الفريد " في الطعن على نبوة نبينا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ والقدح في معجزاته، غير خائف ولا متحاشٍ، كما صنَّف " التاج " في قدم العالم، و " الزمرد " في إبطال النبوات (٦). ويستمر الزيدي بتعليقه حيث يقول: ((وإذا كانت الأحوال على ما وصفنا، فكيف يظن: أنَّ معارضة القرآن ــ لو كانت ــ يخفى نقلها، سيما في زماننا هذا، والباطنية (٧) قد اتسعت أحوالهم، وكثر بذلهم الأموال على الاستدعاء إلى ما هم عليه من الجحد للتوحيد والنبوات، فلو وجدوا سبيلاً إلى ذلك لحصلوه بما لهم من طارف أو تَليد.

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٣٦ .

(٢) الهَوَس : طرف من الجنون . لسان العرب : ١٥ / ١٠٩ .

(٣) الأغمار : جمع غُمْر ، بالضم ، وهو الجاهل الغِرُّ الذي لم يُجرب الأمور . ينظر : لسان العرب : ١١ / ٨٢ .

(٤) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٣٧ .

(٥) هو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين ، أحد مشاهير الزنادقة ، وهو ممن طعن في القرآن ، كما وضع كتاباً لليهود والنصارى ، وفضَّل دينهم على الإسلام والمسلمين ، عاش ستاً وثلاثين سنة ، ومات عام ٢٤٥ هـ ، وقيل عام ٢٥٠ هـ . ينظر : البداية والنهاية : ابن كثير : ١١ / ١١٢ ــ ١١٣ ، مكتبة المعارف ، بيروت، ط ١ ، ١٩٦٦ م . ومَعَاهد التنصيص على شواهد التلخيص : عبدالرحيم بن أحمد العباسي : ١ / ١٥٧، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٣٦٧ هـ .

(٦) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٣٧ .

(٧) الباطنية فرقة من فرق المجوس ، ظهروا في أيام محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر بخراسان . ينظر : الفرق بين الفرق ، وبيان الفرقة الناجية منهم : عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي : ١٦ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبمثل هذه الطريقة يتبيَّن أنَّ معارضة القرآن لو كانت ممكنة في شيء من الأعصار(١) التي بيننا وبين النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ لأتي بها، ولم يكن دونها مانع ولا حاجز))(٢).

ومن خلال النصوص السابقة يتبيَّن أنَّ الزيدي يريد تعذُّر التواطىء على كتمان المعارضة، وعدم جواز خفاء نقلها.

كما تطرَّق الزيدي إلى أمرٍ آخر، وأفاض فيه، حيث ساق شُبهةً بيَّن فيها جواز خفاءِ المعارضة على العرب، وأنها ليستْ من عاداتهم، فقال:((فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون ذلك خَفي عليهم، لأنهم كانوا إخوانَ الحروب، وأصحاب الغارات، ولم يتواترْ أن ضَربوا في الجَدَلِ وطَرائقه بسهْم، ولا ثبتَ لهم في ذلك قَدم، ولم يكن النظر في الديانات، والبحث عن صَحيحِها وسقيمِها، والتنْقير عن الطُرق المؤدِّية إلى الفصْلِ بين الحُججِ والشُّبه من عاداتهم)) (٣).

ويردّ الزيدي على هذه الشبهة بقوله: ((قيل له: هذا ما لا يجوز أن يخفى عليهم، لأن علمهم بالمعارضات وطرقها كان أقوى علومهم، ومعرفتهم بها أكثر معارفهم، وما يجري هذا المجرى يكون العلم به ضرورياً، ثم العلم بأنَّ من ادعى حالاً من الأحوال، واعتصم لصحته بأمرٍ من الأمور، فأقوى الأشياء في إيضاح كذبه، والإبانة عن افترائه وتقوّله، هو تبيين فساد ما اعتصم به، وسقوط ما التجأ لتصحيح دعواه إليه من العلوم الضرورية التي يشترك فيها العقلاء، والمراهقون الذين قارنوا كمال العقل، وإن لم يكونوا بَلغوه، ولهذا ترى المخْتلفين في قيمة سِلعة إذا ذكر المغالي بها سلعة على صفة، يجب أن يغالي بها من أجل تلك الصفة التي تحدّ المخالف له في ذلك أن يطعن في تلك الصفة، وينازع فيها، ولا يشتغل بغير ذلك. وتجد الصبيين إذا ادعى أحدهما أمراً، أحسن صراعاً من الآخَر لوجهٍ يُورده، ترى

---

(١) جمع " عَصْر " وهو الدَّهر . وجمعه : أعْصُر ، وأَعْصار ، وعُصُر ، وعُصُور . ينظر : لسان العرب : ١٠ / ١٦٩ .

(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٣٧ .

(٣) المصدر السابق : ٥٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المباري له ينازعه في تلك الصفة، يحاول إيراد ما يمنعه من الاحتجاج بها، ثم تجد أحوال أصحاب المهن من الصناعات، والمشتغلين بالزراعات يستوون فيما ذكرناه، ويتبارون فيما حَكَيْناه، فإذا ثبت ذلك بأن ما ادَّعوا خفاءه على العرب من أحوال المعارضات باطل، لا يدَّعيه عاقل.

على أنهم بعد مُهاجرة النبي ــ صلى الله عليه ــ إلى المدينة قد خالَطوا أهل الكتاب، واستعانوا بهم، ولهذا انضمَّ قريش وغَطَفان بعضها إلى بعض، وانضمَّ إليهم اليهود الذين كانوا حول المدينة يوم الأحزاب، واجتمعوا وتناصروا، وكان السَّاعي في ذلك والجامع لشملهم والمؤلِّف بينهم " حييّ بن أخطب " (١) وهو القائل لرسول الله ــ صلى الله عليه ــ يوم قُريظة حين قدم لضرب عُنقه: " يا محمَّد ما لُمت نفسي في عداوتك ".

واليهود كانوا يتعاطَون النَّظر في الدِّيانات، وكذلك النصارى، فهلا تهيَّأ لهم من ذلك ما خَفي على مشركي العرب ؟ وهلا اهتمَّ بها ــ أعني اليهود والنصارى ــ إذ كان فيهم الفُصَحاء والبُلَغاء وأرباب الألسن، لولا علمهم بتعذرها عليهم.

على أنَّ ما روي عن الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وأميَّة بن خَلَف (٢)، فيما تقدَّم ذكره، يدلُّ على أن القوم كانوا فَطِنوا لذلك، و لم يكن يخفى عليهم، وكانوا قد صرفوا همّهم إلى الاشتغال به، فبان أن الذي أوجب كفَّهم هو التعذر، وإنما كان لسهو عرض لهم، وخطأ في التدبير اتفق عليهم، فقد يعرض السهو فيما يكون العلم به ضرورة، ويتفق الخطأ والذهاب عن الرأي في كثير من التدبير)) (٣).

---

(١) من رؤساء يهود بني قريظة ، وعدو من أعداء الله ، حاصره النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع قومه في حصونهم بعد غزوة الأحزاب ، وألقى الله في قلوبهم الرعب ، فقُتِل مع مَن قُتل في ذلك الحصار .
ينظر : البداية والنهاية : ٤ / ١١٦ ــ ١٢٦ .

(٢) من كبار زعماء قريش . ينظر : السيرة النبوية : عبدالملك بن هشام المعافري : ٢ / ٢٧ ــ ٢٨ ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبدالموجود ، والشيخ علي محمد معوض ، و أ.د. فتحي عبدالرحمن أحمد حجازي ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ .

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٥٢ ــ ٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتعرَّض الماوردي لهذه المسألة، وذهب إلى وقوع الكتمان في بعض ما يتصل بمحمد صلى الله عليه وسلم، لكنَّه رفض كتمان معارضة القرآن، فقد صاغ اعتراض القائلين بالكتمان بقوله: ((فإن قيل: فليس يمتنعُ أن يكونوا قد عارضوه بمثله فكُتِم كما كُتم ما هُجِيَ به من الأشعار، وقُرِف به من المعار(١)، فعنه جوابان:

أحدُهما: أنَّهم لو عارضوه لظَهر، ولو ظهر لانتشر؛ لأنَّ تكاتم الاستفاضة لا تُستطاعُ لما في الطباع من الإذاعة، وفي نَفَثات الصدور من الإشاعة، ولقيل: قد عُورض فكُتِمَ، كما قيل: هُجِيَ فكُتم، ولو جاز هذا في معارضة القرآن، لجاز مثلُهُ في معجزةِ كلِّ نبيٍّ أن يقال قد عُورضَ معجزةٌ فكُتم، فيُفضي إلى إبطالِ كلِّ معجزٍ، وهذا مدفوعٌ في معارضة غير القرآن، فكان مدفوعاً في معارضة القرآن.

والثاني: أنَّه قد جعل معارضَتَه حُجةً لهم في ردِّ رسالته، فلو عارضُوه لاحتجُّوا عليه بالمعارضة، ولما احتاجوا معه إلى القتال والمحاربة، مع بذل النفوس واستهلاك الأموال، ولدَفَعُوه بالأهونِ دونَ الأصعب)) (٢).

وذكر البيهقيُّ أنَّ النبيَّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لهم ــ أي للعرب ــ ائْتوني بسورةٍ من مثله إن كنتم صادقين، فطالت المُهْلَةُ والنَّظِرَةُ لهم في ذلك، وتواتَرت الوقائع والحروبُ بينه وبينهم، فقُتلتْ صَناديدُهم، وسُبِيتْ ذراريهم ونساؤُهم، وانتُهبت أموالهم، ولم يتعرَّض أحدٌ لمعارضته، فلو قَدروا عليها لافْتدوا بها أنفسَهُم وأولادَهم وأهاليَهم وأموالَهم، ولكان الأمرُ في ذلك قريباً سهلاً عليهم؛ إذ كانوا أهلَ لسانٍ وفصاحة، وشعرٍ وخطابة. فلما لم يأتُوا بذلك ولا ادَّعوه صحَّ أنهم كانوا عاجزِين عنْه (٣).

(١) المعار : جمع معرَّة ، وهي الإثم أو الأذى . ينظر : لسان العرب : ١٠ / ٩٠ .

(٢) أعلام النبوة : ١٥٠ ــ ١٥١ .

(٣) ينظر : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١/ ١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخلاصة ما سبق: أنَّ العلماءَ في كتب دلائل النبوة لم يُغفلوا قضيةَ المعارضةِ المخفية، بل تناولوها من جوانب عدَّة هي:

ـــ أنَّ معارضة القرآن الكريم لو تَمَّت لنُقلت ووصلت إلينا.

ـــ أنَّ معارضة القرآن الكريم لم تقع خوفاً من السيف وعلوِّ كلمة الإسلام.

ـــ تعذّر كتمان المعارضة، وأنَّ العرب لو استطاعوا إليها سبيلاً، لما خاضوا الحروب، ووقعت الوقائع بين النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وبينهم .

إن المعارضة المخفية من القضايا المهمة والشُّبه الرئيسة التي حاكها أعداء الإسلام ضد القرآن الكريم، ومن خلال تتبعي لأبعاد هذه القضية واستقصائي لزواياها استطعت أن أصنف أبرز الشبه التي اتكأ عليها هؤلاء الأعداء في هذه القضية والردود التي تصدى بها العلماء على كل واحدة منها على النحو التالي:

الشبهة الأولى: وجود المعارضة المخفية.

١ - بداية أقول: تناول العلماء قديماً هذه القضية، فهذا الجاحظ في كتابه "الحيوان" يتحدث عنها بقوله: ((ولذلك لم نَجِدْ أحَداً طمِع فيه، ولو طمِعَ فيه لتَكلَّفه، ولو تكلَّف بَعضهُمْ ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شُبهة لعظُمت القصَّة على الأعْراب وأشباه الأعراب، والنِّساءِ وأشباه النساء)) (١)، ويقول في موضع آخر:

((ولو طَمع فيه لتكلَّفه، ولو تكلَّفه لظَهر ذلك، ولو ظَهر لوجدَ مَنْ يستجيده ويُحامِي عليه ويُكايد فيه، ويزعُم أنه قد عارضَ وقابلَ وناقَض، فدلَّ ذلكَ العاقل على عجزِ القومِ مع كثرةِ كلامِهم، واسْتحالَةِ لُغتهم، وسهولةِ ذلك عليهم، وكثرةِ شُعرائهم، وكثرة من هَجَاهُ منهم، وعارضَ شُعراء أصحابه، وخطباء أمَّته؛ لأنَّ سُورةً واحدةً،

(١) الحيوان: الجاحظ: ٤ / ٨٩، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦ هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أو آيات يسيرة كانت أنقضَ لقولِـــه، وأفسدَ لأمرِه، وأبلَغَ في تكذيبِـــه، وأسرعَ في تفريقِ أتباعِـــه من بذلِ النُّفُوسِ، والخُروج من الأوطـــان، وإنْفاقِ الأَموال)) (١).

وكان للباقلاني مشاركة في هذه القضية، وذهب إلى ما رآه الجاحظ فيها، فقال:

((ولو كان وُجِدَ له مِثْلٌ لكان يُنْقل إلينا، ولعرفناهُ، كما نُقل إلينا أشعارُ أهلِ الجاهلية، وكلامُ الفصحاءِ والحُكمـــاءِ من العرب، وأُدِّيَ إلينا كلام الكُهانِ وأهل الرَّجزِ والـــسَّجْعِ والقصيدِ، وغير ذلك من أنواع بلاغاتِهم، وصُنُوف فصاحاتِهم))(٢).

وأفاض القاضي عبدالجبار في هذه القضية، فقد بيَّن أنَّ معارضة القرآن، وإيراد مثلـــه لم تقع، وأنَّ الشيء لا يمكن عدُّه موجوداً إلا إذا وجدت أخبار عنه؛ لأنَّا نعلم أنه لـــيس بـــين بغداد وحُلوان مدينة مثل بغداد؛ لأنه لو كان لظهر الخبر كظهور بغـــداد؛ لأنَّ الـــداعي إلى الخبر عنهما يتفق.

ولو كان بعده ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أو في أيامـــه ممن يدعي النبوة ممن ظهـــر حاله، لوجب نقل خبره.

وعليه: فلو كان من تحداهم ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بمثل القرآن أتوا بالمعارضـــة لوجب أن ينقل على وجه يظهر كظهور نقلهم للقرآن وتحديه به ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ولكان من يُعادي ويُنافس يديم نقله وحفظه كالقرآن، وكان يجب أن يكون ظاهراً. وبطلان ذلك يبيّن أن القوم لم يعارضوا القرآن، وأنهم سلموا له الأمر.

ولولا صحة ذلك لم نعلم تقدُّم العلماء والشعراء في الأزمنة المتقادمة، بل كنا نجوز في أصحاب رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من لم ينقل خبره، ممن هو أشـــهر بـــالعلم والفضل، ممن نقل خبره (٣).

---

(١) الإتقان: ٤ / ٧، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٦٧ ـــ ١٦٨، وفكرة إعجاز القرآن: ٢٨، وبلاغـــة القـــرآن في آثار القاضي عبدالجبار وأثره في الدراسات البلاغية: ٤٣٣ ـــ ٤٣٤، والإعجاز البلاغـــي: دراســـة تحليليـــة لتراث أهل العلم: ٣٦٣ ـــ ٣٦٤ .

(٢) إعجاز القرآن: ٢٤ .

(٣) ينظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل: ١٦ / ٢٥٠ ـــ ٢٥١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لذلك قال القاضي عبد الجبار: قال شيوخنا(١): لو كان القوم أتوا بالمعارضة لكان حالها كحال القرآن فيما يقتضي وجوب نقلها؛ لأن قُرب العهد واحد، والحاجة والدواعي فيهما تتفق، فكان يجب أن يُنقلا على حدٍّ واحد، فإذا لم يحصل نقل المعارضة علمنا أنه لا أصل لها (٢).

٢- ثم إننا لو سلمنا بوجود المعارضة فقد كان يجب فيها كما تظهر أن تُنقل، وأن لا يختلَّ نقلها؛ لأن الحاجة فيما يرجع إلى الدين تقتضي قوة النقل، فما هو حجة أولى من نقل الشبهة، ولو صحت المعارضة لكانت كالحجة، وكان القرآن كالشبهة؛ لأن بالمعارضة تعلم من حاله أنه ليس بمعجز، وتكون المعارضة من حيث كشفت ذلك من حال القرآن ودلَّت عليه حجة، فكان يجب أن تكون بالنقل أولى من القرآن... فكيف يصح والحال هذه أن ينقل القرآن ولا تُنقل المعارضة ؟ (٣).

٣- ولا يقال: إن المعارضة قد وقعت ولم تنقل؛ لأن ذلك يفضي إلى القول بأنه كان مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قرآنٌ آخر أعظم حالاً من هذا القرآن، حتى صار لعظم حاله بحيث لا يشك أحد من الفصحاء أنه مما لا تمكن فيه معارضة ومساواة، ولم ينقل، وإن كان قد نقل هذا القرآن، بل كان يجب أن يجوز في زمانه من ادعى النبوة، وظهرت عليه المعجزات الباهرة، ونسخ شريعته، ودلَّ على بطلان أمره، ولم ينقل شيء من أمره (٤).

٤- ويذكر القاضي عبدالجبار أنَّ العربَ لو عارضت القرآن لوجَبَ أن يُنقل ما لَحقَ النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه من تأثير المعارضةِ، كما نُقل اليَسيرُ مما كانَ

---

(١) لعل القاضي عبدالجبار يقصد بشيوخه: أبا علي بن خلاد، وأبا هاشم الجبائي، فهو كثيراً ماينقل عنهم، ينظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل: ١٦ / ٩ ، ١٣ ، ١٦ ، ٢١.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ١٦ / ٢٥٢.

(٣) ينظر: المصدر السابق: ١٦ / ٢٥٣.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ١٦ / ٢٥٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يلحق أمره من الاضطراب عند الحُروب وغيرها، فإذا لم يُنقلْ ذلك فليسَ إلاَّ لأنَّه لم يكن، وهذا يَقتضي نقض عادة، وإن كان ذلك قد وَقع ثم لم يُنقل، فهو نقضُ عادة ثانية (١).

٥- كما يذكر القاضي عبدالجبار أنَّ أبا هاشم الجبائي قال: ((إنَّ العَادةَ لم تجرِ بأنْ يتمكَّن العاقل منْ فضلٍ باهِر، يُساوي به منْ تقدَّم كل التقدُّم، ويحبّ كتمانه لبعض الأغراض، وإنْ أوجَبَ ذلك في وقت لتقيةٍ وخَوف، فلا بدَّ من أن يَجب نشرُه من بعد، فلا يجوز فيما حلَّ هذا المحلّ أن لا يَظهر في الواحد فكيف في الجماعة)) (٢).

الشبهة الثانية: الخوف من التصريح بالشبهة.

١- تعرَّض الخطابيُّ لهذه القضية على صورة سؤال اعتراضي، حيث قال: ((فإن قيل: ما أنكَرتُم أنَّ القومَ قد عَارضُوه، ولكنَّه لم يُنقل إلينا وغُيِّب عنَّا ذكرُه، وكُتِم الخبرُ فيه لما اتَّسَع الإسلامُ وخافوا على أنفسِهم، فانقطع رسْمُه، وامَّحَى أثرُه. قيل: هذا سؤالٌ ساقِط. والأمرُ فيه خارجٌ عمَّا جرتْ به عاداتُ الناسِ، خواصّهم وعوامّهم، من نقلِ الأخبارِ، والتحدُّثِ بالأمور التي لها شأْن، وبالنفوس تعلُّق، ولها فيها وقْع، وكيف يجوزُ ذلك عليهم في مثل هذا الأمر العَظيم الذي قد انزعَجَتْ له القلوب، وسَار ذكرُه بين الخَافقَيْن)) (٣).

كما بيَّن الباقلاني أنه لا يصح أن يقال بجواز وقوع معارضتهم، إلا أن خوف السيف منع إظهار المعارضة، وذلك لأن الأمر لو كان كذلك لجاز نقله وذكره، وذكر المعارض والمتولي له، ولوجب بمستقر العادة أن يغلب إظهاره على كتمانه، حتى يكون العلم به كالعلم بالقرآن، إذ لابدَّ من تحدُّثهم بينهم إذا خَلَوا وجالسوا من يأمنون سيفه، كتحدُّث الناس بعيوب سلاطينهم وجبابرتهم، وإن لم يُنقل ذلك نقلاً ظاهراً (٤).

---

(١) ينظر: المصدر السابق : ١٦ / ٣٣٩ ــ ٣٤٠ .

(٢) المصدر السابق : ١٦ / ٢٧٣ .

(٣) بيان إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ٥٥ .

(٤) ينظر: التمهيد في الردِّ على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: ١٢٢، تقديم وتعليق: محمود محمد الخضيري، ومحمد عبدالهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٦ هـ. وينظر: نكت الانتصار لنقل القرآن: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: ٢٤٦، تحقيق:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أفرد القاضي عبدالجبار شيخه أبا هاشم الجبائي (١) بالذكر من شيوخه الـذين تصدوا لإبطال دعوى كتمان المعارضة، قال: ((ذكر شيخنا أبو هاشم أنَّ المعارضةَ لو وقعت من القليل كانت لا تلبث أن تنكشف على الأيام، إن لم تنكشف في الحال؛ لأن العـادة لم تجر في كتمان مثل ذلك بالاستمرار...

والمتعالم من حال أسرار الملوك، مع تشدُّدهم في كتمها أنها قد انكشفت على الأوقات، فكيف يجوز في مثل ذلك أن ينكتم أبداً ؟!)) (٢).

٢- كما ردَّ الباقلاني على أصحاب هذا الزعم بأنه لو كان الخوف من السيف مانعـاً من نقلهم المعارضة لمنع ذلك أيضاً من دعوى المعارضة (٣).

٣- ومن أهمِّ ما استشهد به القاضي عبدالجبار على أقواله، نقله للأخبار التي وقعـت للمسلمين، و لم يكن المسلمون راضين عنها، ومن ذلك:

أنه نُقل أنهم تعاطوا في محاربته، مع ما فيها من بذل المُهَج والأموال، والإقدام على ما يتضمن الأخطـار، ما تكلَّفوه؛ فلو كانت المعارضة وقعت لكان إظهـارها والاحتجاج بها أدلّ على فسـاد حالـه، وأقرب إلى بلوغ مرادهم منه، فكيف يجوز نقل مالا يؤثر، وترك نقل ما يؤثر ؟ (٤).

ثم إنه نقل الهجو والوقيعة، ونسبته ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ إلى الـسحر وغـير ذلك، فكيف يجوز أن لا تنقل المعارضة مع ما فيها من الفوائد، لو كانت قد وقعت (٥).

محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٣٩١ هـ. وينظر: الرسالة الشافية لعبدالقاهر: ١٣٧ .

(١) هو عبدالسلام بن محمد بن عبدالوهاب الجبائي بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان، وهو ابن شيخ المعتزلة أبـو علي الجبائي، توفي ببغداد سنة ٣٢١ هـ. ينظر: تاريخ بغداد: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغـدادي: ١١ / ٥٦ ـــ ٥٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ. والوافي بالوفيات: خليل بن أيبـك بـن عبـدالله الصفدي: ٤ / ٧٤، اعتناء: هلموت ريتر، جمعية المستشرقين الألمانية، دار فرانز ستايز بفيـسبادن، ط ٢، ١٣٨١ هـ. والفهرست : ٢٤٧ .

(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل: ١٦ / ٢٧٣ .

(٣) ينظر: التمهيد في الردِّ على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة: ١٢٢ .

(٤) ينظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل: ١٦ / ٢٥٥ .

(٥) ينظر: المصدر السابق : ١٦ / ٢٥٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤ - ثم يؤكد القاضي عبدالجبار على أنَّ المعارضةَ لو صحَّت لقويتْ أحوالُ الكفار بها، وظهرت لأجلها أحوالهم، فكان يصير سبباً للقوةِ وزوالِ الخوف.

والمتعالم من حال الخائف: أن يَبذُلَ جهدَه في التوصّل إلى زوال خوفِه، فكان يجب على هذه الطريقة، نقل المعارضة من وجهين:

أحدهما: التخلُّص من الشريعة، وإبطال أمره صلى الله عليه وسلم.

والثاني: زوال الخوف من مستجيبيه، لما كان يحصل فيه من توهين حالهم، وقوة أحوالِ من ينقل المعارضة، ويحتج بها (١).

٥ - كما تحدث القاضي عبدالجبار عن الكتمان لأجل الخوف، وأفاض في الردِّ عليه، فقال: ((فإن قال: هلا جوَّزتم القول بأنه إنما لم يُنقل لغلبة مُستَجِيبيه ــ أي محمَّد صلى الله عليه وسلم ــ وتخوُّفهم منه.

قيل له: لا تسلْ عن هذا من يَعرفُ أحوال العرب، وأحوال الأخبار؛ لأنَّ المُتعالم من حال الأخبار أنه لا يَنقطِعُ بهذا الجِنْسِ من الخوف، بل لا ينقطع بشيء من الخوف؛ لأنَّ الخوفَ إنما يَقتضي ترك الإظهار لا ترك النقل.

وربما دعا المنع إلى الإكثار من النقل، وهذه طريقةٌ معروفةٌ فيما يَقع المنع فيه، من سُلطانٍ وغيرِه أن يكون أقرب إلى الانْتشار، من حيث تَقْوى الدَّواعي وتزداد بحصول المنع... على أن الخوف إنما يقدح فيما لم يتقدَّم ظهورُه، فأما إذا تقدم ذلك فيه، فلا يقع المنع به.

وقد كان يجب في المعارضة لو وقعت أن تظهر حالُها في من يعاديه ــ صلى الله عليه ــ وقد علمنا أنهم كثرةٌ عظيمة، قد كانوا أكثر من المستجيبين عدداً، فكيف يقال في الخوف: إنه منع من ذلك ؟

وكيف يصحُّ في الخوفِ الذي لا يجري مجْرى المُواطأة أن يَمنع من نقل الأخبار ! وإنما يجري هذا المجْرى بأن يكون صادراً عن سلطان، فتجمعهم المخافة في حال أو

---

(١) ينظر: المصدر السابق : ١٦ / ٢٥٩ ــ ٢٦٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحوال، فأما إذا لم يكن كذلك، فلابد من أن يخاف البعض دون البعض، أو تختلف الاعتقادات فيه، فلا يجوز في مثله أن يكون مانعاً من الأخبار الظاهرة)) (١).

الشبهة الثالثة: قياس ما لم ينقل خبره بما لم يُنقل.

وقدلخص القاضي عبدالجبار هذه الشبهة بقوله: ((فإن قال: فقد جوَّزتم أن يكون في أيام أقْليدس وصاحب المْجسطي مَن يُساويهما، فيما ظَهر عنهُما من العلمِ، وإن لم يُنقل خَبره، فجوّزوا مثله في المعارضة)).

وقد رد عليها القاضي بقوله: ((قد بيَّنا أن المعارضةَ لو وقعتْ لكان حالُها كحال القرآنِ، فيما يَقتضي نقلُه، بل أزْيد، فبيّن فيما سألتَ عنهُ أنَّ حالَ غيرهما كحالهما، فيما يُوجب نقل خبره، ليتمَّ سؤالك، وإنما يَتمُّ لك ذلك لو وَقع في الوقت، فيما ألْقَياهُ وتَعَاطياهُ، من المُنافسةِ مثل ما ذكرناه في حال القرآن، فكان يجب أن يكون نقلُ خبر غيرهما كخبرهما، فأما إذا ما جازَ في وقتِهما أن لا يُنافس فيما تعاطياه، بل يجوز أن لايكون حالهما قد ظهرت في وقتهما كظهورهما الآن؛ لأنه لا يَمتنع في كثير من العُلماء أن يكونُوا على ضربٍ من الخُمُول، ثم يَظهر حالُهم فيما صنعوه، فكيف يَصحُّ ما ادَّعيته؟

على أنا نجوّز في أيامِهما من هو مثلهما أو فوقهما، و لم يُصنّف ما يجب نقله، بل عوَّل على تصنيفِهما، أو لم يكنْ له إلى ذلك داعٍ، فلا يجب نقل خبره، كوجوب نقل حالهما لهذه المباينة.

على أنا قد بيَّنا اختصاصَ المعارضة ــ لو كانت ــ والقرآن بقُرب العَهد ووجوب النَّقل، وليس كذلك حال ما سأل السائلُ عنه؛ لأن بُعد العَهد وقلَّة الحاجةِ إلى النقل تُؤثر في ذلك، فلا يمتنع إثباتُ النقل في بعضِه دونَ بعض، كما نعلم اختصاصَ العالمينَ في زمنٍ واحد، ويختصّ أحدهما بأصحاب ومتعصبين، فيُنقل من أمره ما لا ينقل من أمرِ صاحبِه، وهذا معروفٌ من أحوال كثير من العلماء في أمَّة نبينا محمد صلى الله عليه.

(١) المصدر السابق : ١٦ / ٢٥٩ ــ ٢٦٠.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولهذه الجملة قلنا: إنه لا يَمتنع في موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ لبُعد العهد، وفَقْد الحاجة، وخِفَّة الدَّواعي أن يُنقل خبرُهم دون معجزاتِهم، أو معجزاتهم دون شرائعهم، و لم يَجوز مثل ذلك في شريعته ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ولا في سائر أحوالِه)) (١).

الشبهة الرابعة: تأثير المصالح.

كما أشار القاضي عبدالجبار إلى شبهة أخرى تتلخص في تأثير المصالح فقال: ((فإن قال: إنَّ الرَّغبةَ والمنفعةَ والمشاركةَ في الرِّياسةِ التي مَنَعتْ من نقل المعارضة؛ لأنهم رأوْا أنَّ في نقلِها حرمان ما يَرجونَه فلذلك لم تُنقل)).

وقد ردَّ عليها القاضي مباشرةً فقال: ((إنَّ هذا أضعف من الأوَّل، وما قدَّمناه يُسقطه؛ لأنه لو كان لمثل هذا أن لا تُنقل الأمور الظاهرة، لأدَّى إلى التَّشكُّك في أكثر الأخْبارِ، بأن يقال: إنَّ التَّعقُبَ والرَّجاءَ في قوة الرِّياساتِ وما شاكَلَهُما منع من النَّقل، فكيف يَصحُّ مع ذلك أنْ نعلَمَ أخبار طوائفَ مختلفة الأحْوال، مع تعصّب كل فريقٍ منْهم لصاحبِه، فإذا كان ذلك لا يمنع من نقل الأخبار وظهورها، فكذلك القول في المعارضة)) (٢).

الشبهة الخامسة: افتراض الكتمان.

كما ردَّ القاضي عبدالجبار على افتراضِ الكِتمان بأنَّ القول بالتواطىء عليه مبنيٌّ على أن المعارضة لا تمكن إلا من النَّفرِ القَليل.

يقول القاضي: ((إنما يَصحُّ ذلكَ لو تحدَّاهم بكلِّ القرآن فأما إذا تحدَّاهم بمثلِ سُورةٍ منهُ، فقد يَصِحُّ ذلك في المتوسِّط في الفَصاحة، كما يَصح من المتقدِّم؛ لأن المُتعالم من حال المتوسِّط أنه قد يُساوي المتقدَّم في كثيرٍ من كلامه، بل رُبَّما اتَّفَق في شعره وخُطبه القليل، مما يزيدُ في الفَصاحةِ على جميع الكلامِ الواقع ممن تقدَّمه...

---

(١) المصدر السابق : ١٦ / ٢٥٥ ـــ ٢٥٦.

(٢) المصدر السابق : ١٦ / ٢٦١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولهذا الوجهِ يقعُ في كلام المتقدِّم في الفصاحة المتوسِّط الرَّكِيك، ولو كان تقدُّمه يقتضي في عموم كلامه التقدُّم لما صحَّ ذلك... ولذلك نجد المُبرز تختلف أحوالُه فيما يأتِيه من الكلام بحسب الاتِّفاقات، وهذا بيِّن في سُقُوط ما ظنَّه هذا السائل.

وبعد فالمتوسِّط إذا أتى بما يُقارب القرآن، كان بمنزلةِ أن يأتي بما يُماثله في أنَّ التَّقريع يَبطُل به، فقد كان يجب أن يَفعلوا ذلك، إنْ حَصَل من المتقدمينَ مُواطأة، وقد كان يجب في هذا الوقت وفي الأزْمَانِ الماضِية، أن يأتوا بما يُقارب أو يُماثل؛ لأنَّ المُواطَأةَ والسببَ فيها قد زال، وهذا الذي قدَّمْناه يبُطل ما يتعلَّقون به من أنَّ الفصاحةَ لابدَّ من أنْ تنتهي إلى عددٍ قليلٍ أو واحد)) (١).

وقد أغلق القاضي عبد الجبار كل أبواب الشبه حينما قرر أنه لا يصح أن يقال بجواز وقوع معارضتهم، لكنه لم ينقل لعلَّة من العلل؛ لأن العلل التي تمنع من نقل الأمور الظاهرة التي قد علم من حال ما يقاربها وجوب النقل لا بد من أن تكون ظاهرة، كالتواطؤ الذي نذكره في الأخبار، والتخويف إلى ما شاكله. وقد علمنا أن كل ذلك لا يتأتَّى في نقل المعارضة (٢). وهذا يستلزم وجوب إسقاط ما قد يُقدِّمه المعارضون من تعلاَّت لعدم نقل أخبار ما وقع من معارضات (٣).

نَعم كلُّ هذا تناوله القاضي عبدالجبار في هذه القضية، ومن خلال ذلك يتبيَّن أنه قد استفاد من العلماء قبله، وخاصة الجاحظ الذي فطن ــ ولأول مرَّة ــ إلى ضرورة إسقاط كلِّ دعوى تُؤكِّد وجود معارضات مخفية، وأنَّ المسلمين استطاعوا ــ عندما صارت السلطة لهم ــ القضاء على هذه المعارضات، وإعدام أخبارها، فكانت فكرته هذه هي المُنطَلق والأساس لكلِّ الرُّدود التي جاءت بعدها، وأنَّ القاضي عبدالجبار ((هو الذي تحمَّل العِبء

(١) المصدر السابق : ١٦ / ٢٧٤ ــ ٢٧٥.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ١٦ / ٢٥٨ ــ ٢٥٩، والتحدي في آيات الإعجاز: د. قحطان عبدالرحمن الدوري: ٥٤ ــ ٥٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن (العجز): د. حسين نصار: ١٠٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأكْبر في الرَّد، وعالجه من جوانب متعدِّدة، بل من حيث المبادئ التي يجب أن يقوم الـــردُّ عليها، فجاءت أقوالُه أشبهَ بالرسالة الكاملة في هذا الشأن)) (١).

وأرى أنه من الواجب في ختام هذا المطلب أن أشير إلى أن بعض العلمـــاء القـــدماء والمحدثين قد تناولوا هذه القضية وكان لهم جهد واضح فيها وإن لم يسهبوا الحديث عنـــها، فقد أشار لهذه القضية الزمخشري بقوله: ((لأنَّهُم لوْ عَارضُوه بشيءٍ، لم يمتنعْ أن يَتواصـــفَه النَّاسُ ويَتناقلُوه، إذْ خفـــاءُ مثلِه فيما عليه مبْنَى العَـــادةِ مُحَالٌ، لا سيَّما والطـــاعنونَ فيـــه أكْثف عدداً من الذابِّين عنه، فحين لم يُنقل عُلم أنه إخبارٌ بالغيب على ما هو بـــه فكـــانَ مُعجزة))(٢).

كما تعرَّض للمسألة يحيى بن حمزة العلوي، وردَّ عليها بأربعة أجوبة، أخذها كلـــها من المعتزلة، والقاضي عبدالجبار (٣).

وصرَّح عبدالرحمن الإيجي (٤) ـــ وهو يتحدث عن إثبات نبوة محمد صلى الله عليـــه وسلم ـــ بأنَّ القرآن لم يُعارض، واستفاد من كلام الزمخشري الســـابق، فقال: ((لأنـــه ـــ يعني القرآن ـــ لو عُورضَ لتواتَر، سيَّما والخصوم أكثر من حَصَى البطْحاء، وأحرص الناس على إشاعة ما يبطل دعواه)) (٥).

---

(١) إعجاز القرآن (العجز): د. حسين نصار: ١٠٩ .

(٢) الكشاف: ١ / ٢٢٤ .

(٣) ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغـــة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة بن علي بـــن إبـــراهيم العلـــوي اليمني: ٣٧١ ـــ ٣٨٦، أشرفت على مراجعته وضبطه وتدقيقه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بـــيروت، ١٤٠٠ هـــ. وإعجاز القرآن: د. حسين نصار: ٩٩ .

(٤) هو عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالغفار القاضي عضد الدين الإيجي العلامة الشافعي المشهور بالعـــضد، صـــنَّف في كثير من العلوم ، وألَّف كتابه " المواقف في علم الكلام " لغياث الدين وزير خدابنده، وهـــو كتـــاب جليـــل القدر رفيع الشـــأن اعتنى به الفضلاء ، توفي سنة ٧٥٦ هـــ. ينظـــر : بغيـــة الوعـــاة : ٢ / ٧٥ ـــ ٧٦ ، وكشف الظنـــون : ٢ / ١٨٩١ .

(٥) المواقف: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي: ٣ / ٣٧٧، تحقيق: د.عبـــد الـــرحمن عمـــيرة، دار الجيـــل، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأشار الآلوسي وهو يُفسِّر قوله تعالى:

] أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ ۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ Z(١) إلى أنَّ النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ تحدى مصاقع العرب بسورة ما منه، فلم يأتوا بذلك، وإلا لنقل إلينا لتوفر الدواعي إلى نقله (٢).

وتبعه محمد رشيد رضا فقال: لو وجد له معارضٌ أتى بسورة مثله، لتوفرت الدواعي على نقلها بالتواتر أيضاً، بل لكانت فتنة ارتدَّ بها المسلمون على أدبارهم (٣).

وذكر الزرقاني أنَّ الأيام القريبة تحدِّثنا أنَّ زعماء البهائية والقاديانية وضعوا كتباً يزعمون أنهم يُعارضون بها القرآن، ثم خافوا وخجلوا أن يُظهروها للناس، فأخفوها ولكن على أمل أن تتغير الظروف ويأتي على الناس زمان تروج فيه أمثال هذه السفاسف، إذا ما استحرَّ فيهم الجهل باللغة العربية وآدابها، والدين الإسلامي وكتابه، ألا خيَّبهم الله وخيَّب ما يأملون (٤).

وأجمل نعيم الحمصي ما يتصل بهذه القضية بقوله: ((وقال بعضهم بأنَّ هذه المعارضة ربما وجدت، ولكنَّ المسلمينَ أهملُوها وأَخْفوها. وأُجيبوا بأنه لو وُجِدت معارضةٌ يصحُّ أنْ تُساوي القرآنَ وتقاربه لاشْتهر أمرُها، ولقضتْ على سلطانِ القرآن، وأثبتتْ كذب صاحب الدَّعوة في تلقِّيه الوحي، ولكان لها من القيمة أضعافَ القرآن.

والأقربُ للصواب أن يكون العربُ قد حاولوا معارضةَ القرآن، فما استطاعوا وجاؤا بما هو دونه بمراحل)) (٥). ويؤكد على هذه الفكرة في موضع آخر فيقول: ((وعلى كلِّ حال فمن المرجَّح، إذا لم يكن من المؤكَّد، أنَّ هذه المعارضة الصالحة، لو وُجِدت لقضتْ على مكانة القرآن، وزَعْزعَتْ مركز النبي السياسي والديني، ولاشتهرت

---

(١) سورة يونس: آية: ٣٨.

(٢) ينظر: روح المعاني: ١١ / ١٥٨.

(٣) تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار: محمد رشيد رضا: ١ / ١٦٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٢ هـ.

(٤) ينظر: مناهل العرفان: ٢ / ٣٠٧.

(٥) فكرة إعجاز القرآن: ٢٤ ــ ٢٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اشتهار القرآن، أو كانت هي الأشهَر، ولتداولَ المشركون الحديث عنها خلفاً عن سلف. فلم يكن هنالك إذن من معارضة قيِّمة حقيقية)) (١).

ويقول في موضع آخر: ((وتحدِّي النبيّ العرب لا يُنكره أحد؛ لأنه مذكور في القرآن في أكثر من آية. وهم يستدلون على أنَّ مَن تحداهم النبي قد عجزوا عن مثل القرآن؛ لأنهم لو جاءوا به لوصل إلينا كما وصل إلينا الشعر الجاهلي والخطب، أنه لا يصح أن يقال: إنَّ المسلمين أخفوها أو إنها ضاعت؛ لأن الخصوم كانوا يحفظونها لو وجدت، ولا يتأتَّى أن يجهلها المسلمون لو وجدت؛ لأنها تنقض ما يؤيِّد عقيدتهم، ثم إنَّ اعتقاد الناس قروناً وأجيالاً بأنه فوق الطاقة كافٍ لأنْ يُبرهن أنَّ أحداً لم يستطعْ الإتيان بمثله)) (٢).

ويؤيد محمد حنيف فقيهي ما ذهب إليه الجاحظ فيقول: ((لو كانت لقضت على مكانة القرآن، وزعزت مركز النبي، ولاشتهرت اشتهار القرآن، بل وفاتَتْه وروَّجها المناهضون للنبي أيما ترويج)) (٣)، وكذلك منَّاع القطان بقوله: ((لو تسنى لهم معارضة القرآن الكريم لأُثِر هذا عنهم، وتطاير خبره في الأجيال، فالقوم قد تصفَّحوا آيات الكتاب وقلَّبوها على وجوه ما نبغوا فيه من شعرٍ ونثرٍ فلم يجدوا مسلكاً لمحاكاته، أو منفذاً لمعارضته، بل جرى على ألسنتهم الحق الذي أخرسهم عفو الخاطر عندما زلزلت آيات القرآن الكريم قلوبهم)) (٤).

وذكر محمد أبو زهرة أن الأفَّاكين قالوا كلاماً بيَّنوا فيه أنَّ التاريخ الإسلامي لم يروِ غير الذين صدَّقوا وآمنوا، فحذفوا ما كانت فيه معارضة للقرآن الكريم.

وصرَّح بأنَّ هذا القول يردّه أمران:

أولهما: أنه ما كان يمكن أن يعم الإيمان، وثمة معارضون للقرآن في جدٍّ لا لهو فيه ولا عبث.

---

(١) المرجع السابق: ٢٧.

(٢) المرجع السابق: ٤٢.

(٣) نظرية إعجاز القرآن عند عبدالقاهر الجرجاني عن كتابته: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز: محمد حنيف فقيهي: ٢٠ ــ ٢١، الشؤون الدينية بدولة قطر، ط ١، ١٤٠١ هـ.

(٤) مباحث في علوم القرآن: ٢٥١ ــ ٢٥٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانيهما: أن أعداء الإسلام كانوا في كلِّ زمان منذ ظهر محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى أن قبضه الله تعالى، ودخل الناس في دين الله تعالى أفواجاً أفواجاً، فالزنادقة كانوا منبثين في مشارق الأرض ومغاربها لا يألون للمسلمين وبالاً، وكان أعداء الإسلام في أوساط المسلمين وبين ظهرانيهم، فبثوا فيهم الأفكار المنحرفة، والأقوال الهادمة، والمذاهب المخربة، وأولئك ما كانوا ليستروا الكلام الذي عورض به القرآن إذ يرون فيه هدم الأصل (١).

هذا ما ذكره العلماء حول هذه المسألة، والحقُّ أنَّ أفكارهم وأقوالهم ــ غالباً ــ هي التي أسَّس لها الجاحظ، وهو الذي فطن لأول مرة إلى ضرورة الردِّ على هذه الدعوى.

والغريب في الأمر أنَّ الجاحظ، والباقلاني ــ وهما ممن كتبا في دلائل النبوة ــ لم يُشيرا إلى هذه القضية أبداً في كتبهم الخاصة بدلائل النبوة، بل كتبا عنها وأسَّسا لها في كتب أخرى لهم.

وخلاصة الأمر هي أن ما حصل من محاولات سخيفة نُقلت إلينا ــ كما سيأتي في المطلب التالي ــ ولو حصلت معارضة مخفية لفضحت عجزهم عن مجاراة القرآن.

(١) ينظر: المعجزة الكبرى: القرآن: ٧٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المطلب الثاني: المعارضة المعلنة :

لا يخلو تاريخ الأمة من بعض الأخبار الغريبة التي تبعث على الاستغراب والدهشة، ومن تلك الأخبار التي وصلت إلينا ما قام به جماعة ممَّن فَسدت عقائدهم وسُلِبت عقولهم من محاولاتٍ سخيفةٍ فاشلةٍ لمعارضة القرآن الكريم.

((والثابت أنَّه لم يُحاول أحد من أهل البيان أن يأتي بمثل القرآن، ولم يُعرف ذلك، وإذا كان التاريخ قد ذكر شيئاً من هذه المحاولة، فإنه كان في أيام الرِّدة من مُسيلمة الكذاب (١) وأشباهه، وأن هذا الجزء الذي رواه التاريخ الذي روى تلك الكلمات التي حاول بها مسيلمة الكذاب أن يجاري فيها القرآن، يبيِّن مقدار إدراك المشركين، إذ لم يحاولوا المجاراة، حتى لا يُسَفوا، ويكونوا أضحوكة بين العرب، وموضع سخرية يسخرون بعقولهم)) (٢).

هذا وقد أورد العلماء في كتب دلائل النبوة أخباراً متعددة، تكشف أنه وقعت عدة محاولات لمعارضة القرآن، والإتيان بما يماثله.

فقد كان للجاحظ مشاركة مهمة في هذه القضية إذ يعتبر ((أول من عُني بالكشف عما امتلكت الشخصية العربية من صفات، كان من شأنها أنْ دفعتهم إلى مقاومة الدين، وأن تدفعهم إلى معارضة القرآن. وأورد من ذلك صفات متعددة، دارت في الكتب بعده نصَّاً ومعنى، فقد وجدت قبولاً واسعاً، وأخص منها بالذكر الأنفة والحمية، وهما الصفتان اللتان اشتهر بهما العربي في كلِّ مكان)) (٣).

---

(١) هو مسيلمة بن حبيب اليماميّ ، وفد إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع قومه بني حنيفة ، ثم تنبَّأ ، وكان له شأن في أيام الرِّدة ، حتى قتله المسلمون بعد حروب عظيمة ، وكان يدعي أنه يوحى إليه ، وما أتى به كلام في غاية السخف ، وقد قُتل على يد وحشي بن حرب ، سنة (١٢ هـ). ينظر : البداية والنهاية : ٦ / ٣٢٣ ــ ٣٢٧ ، ٣٤١ ــ ٣٤٢ .

(٢) المعجزة الكبرى " القرآن " : ٧١ .

(٣) إعجاز القرآن (العجز) : د. حسين نصار : ٢٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول الجاحظ عن العرب:((وهل يُذعنُ الأعرابُ وأصحابُ الجاهليَّةِ للتَّقريع بالعجز، والتوقيف على النقض، ثم لا يبذلون مجهودهم، ولا يخرجون مكنونهم، وهم أشدُّ خلق الله أَنَفَةً، وأفرطُ حَميَّةً، وأطلبهُ بِطَائلة، وقد سمعوه في كل مَنْهلٍ وموقِف))(١).

كما وصف الجاحظُ العربَ بأنهم أثبتُ الناس حقداً، وأنهم أَذْكر الناس لخير أو لشرّ، كما أنهم أهجى الناس بالعجز (٢).

و لم يَخص الجاحظ ــ في حجج النبوة ــ أحداً ممن عارض القرآن علانية بالذكر، بل اكتفى بالحديث عن أهمية المعارضة عند العرب، وذكر دواعيها، ومن ذلك سهولتها عليهم، يقول الجاحظ: ((الكلام أخصر عندهم، وأيسر مؤونة عليهم)) (٣)، ويقول في موضع آخر: ((تحبير الكلام أهون من القتال، ومن إخراج المال)) (٤)، ويقول كذلك: ((تحدَّاهم بما كانوا لا يشكُّون أنهم يقدرون على أكثر منه)) (٥)، كما أخذ الجاحظ يردّد التقريع وهو ينكر إذعان الأعراب دون بذل الجهد في المعارضة، فاكتفى مرة بذكر تقريع محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ مجرَّداً، وأضاف مرة التقريع بالعجز، ومرة التقريع بالنقص (٦)، كما ذكر من دواعيها: التذكير والتنبيه: يقول الجاحظ: ((بل لو نَسُوا ما تركهم حتى يُذكِّرهم، ولو تغافلوا ما ترك أن يُنبِّههم، بل لم يرض بالتنبيه دون التوقيف)) (٧)، كما ألمح الجاحظ إلى أن من دواعي المعارضة شدة عداوة الكفار للإسلام (٨)، وبيان رِفعة شأن القرآن ((ولو لم يكن تحداهم من كلِّ ما قلنا، وقرَّعهم بالعجز عما وصفنا، وهل

(١) حجج النبوة : ٢٧٥ .
(٢) ينظر : المصدر السابق : ٢٧٤ .
(٣) المصدر السابق : ٢٧٤ .
(٤) المصدر السابق : ٢٧٦ .
(٥) المصدر السابق : ٢٧٩ .
(٦) ينظر : المصدر السابق : ٢٧٥ .
(٧) المصدر السابق : ٢٧٤ .
(٨) ينظر : المصدر السابق : ٢٧٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا إلا بمديحه له، وإكثاره فيه، لكان سبباً موجباً لمعارضته ومغالبته وطلب تكذيبه؛ إذ كان كلامهم هو سيِّد عملهم)) (١)، كما أشار الجاحظ إلى ألوان المقاومة من العرب، فبيَّن ما واجه به الكفار دعوة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأنهم بادَوْه بالعداوة، وادَّعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه (٢)، وهو قوله عزَّ وجل: [s t u v w x y z { | } ~ Z (٣)، كما ذكر من ألوان المقاومة: الطعن على القرآن، ويبدو أن الجاحظ خاف أن يَظن أحد بعد أن يقرأ كلامه بأن العرب سارعوا إلى قبول القرآن دون أية مقاومة، فقال: ((ولم يُقَل: إن القوم قد تركوا مساءلته في القرآن والطعن فيه، بعد أن كثُرت خصومهم في غيره. ويدلُّك على ذلك قولُه عز وجل: [وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ Z (٤)، وقوله عز ذكره: [! " # $ % ' ( ) * + , - . / 0 1 Z (٥)، وقوله تعالى جل ذكره: [8 9 : ; < = > ? @ A B C Z (٦)، ويدلك كثرة هذه المراجعة، وطول هذه المناقلة، على أن التقريع لهم بالعجز كان فاشياً، وأن عجزهم كان ظاهراً)) (٧)، كما خصَّ الزنادقة بفقرة خاصة، فذكر أنهم كانوا يصنعون الآثار، ويُولِّدون الأخبار، ويبثُّونها في الأمصار، ويطعنون في القرآن، ويسألون عن متشابهه، وعن خاصه وعامه، ويضعون الكتب على أهله(٨)، ثم أفرد فصلاً في آخر رسالته((في ذكر امتناعهم من معارضة القرآن لعلمهم بعجزهم عنها))(٩)

(١) المصدر السابق : ٢٧٧ .
(٢) ينظر : المصدر السابق : ٢٧٤ ــ ٢٧٥ .
(٣) سورة الأنفال : آية : ٣١ .
(٤) سورة الفرقان : آية : ٣٢ .
(٥) سورة يونس : آية : ١٥ .
(٦) سورة الفرقان : آية : ٤ .
(٧) المصدر السابق : ٢٧٦ .
(٨) ينظر : المصدر السابق : ٢٧٨ .
(٩) المصدر السابق : ٢٧٧ ــ ٢٧٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذكر فيه: أنَّ كل نبي جاء قومه بآية معجزة من جنس ما كانوا بارعين فيه، بل هم أقدر الناس عليه، كمعجزة موسى ــ عليه السلام ــ وكالذي جاء به عيسى ــ عليه السلام ــ من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه، وأن الأمر كان((كذلك دهر محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان أغلبُ الأمور عليهم، وأحسنُها عندهم، وأجلها في صدورهم، حسنَ البيان، ونظمَ ضروب الكلام، مع علمهم له، وانفرادِهم به. فحين استحكمت لفهمهم وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله عزَّ وجل، فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه. فلم يزل يُقرِّعهم بعجزهم، وينتقصهم على نقصهم، حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامِّهم، كما تبين لأقويائهم وخواصِّهم. وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط (١)، مع سائر ما جاء به من الآيات، ومن ضروب البرهانات))(٢).

أما ابن قتيبة فقد اكتفى بذكر النصوص التي عارض بها بعض العرب القرآن، والتي حاولوا من خلالها التشبه بالسور القصار، ومن نماذج المعارضة التي ذكرها ابن قتيبة قول مسيلمة: يا ضفدع نقِّي كمْ تَنقين، لا الماء تُكدِّرين، ولا الشراب تمنعين. ويُعلِّق ابن قتيبة على هذه المعارضات بقوله:((وهذا الكلام مع قلَّة حروفه من السخافة على ما لا خفاء به على من لا يعلم فضلاً على من يعلم، فأين هؤلاء المعارضون لكتاب الله بالتمثيل والتشبيه عن سورة النحل وسورة الكهف ثم هود وطه)) (٣).

أما الزيدي فقد أفاض في الحديث عن المعارضة المعلنة، وأكَّد في بداية الأمر على أنَّ معارضة القرآن لم تقع؛ لأنها لو وقعت لنُقلت(٤). ثم أجمل الحديث عن هذه القضية فقال:((وجملة الكلام في هذا: أنها تنقسم قسمين: إما أن تكون كلاماً مسترذلاً لا ينحط عن كلام المتوسطين في العربية من أهل هذا العصر والأعصار التي كانت قبله، فكيف أن تبلغ مرتبة كلام فصحائهم ما جرى هذا المجرى، لا يُخيل على أحد أنه ليس

(١) ولعل الحكمة في ذلك بقاء معجزة القرآن إلى قيام الساعة ، والله أعلم .

(٢) المصدر السابق : ٢٧٩ ــ ٢٨٠ .

(٣) أعلام رسول الله : ١٤٣ .

(٤) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٣٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يجوز أن يظن به أنه معارض للقرآن، كما لا يجوز أن يظن أن أشعار الحبر الوردي (١) تصلح أن تكون معارضة لأشعار امرئ القيس، والنابغة أو الأعشى، أو يكون المورد له أخذ ألفاظ القرآن فقدَّم منها البعض، وأخَّر البعض وزاد فيها، ونقص منها. ومثل هذا لا يُعد معارضة؛ لأنه لو عُدَّ معارضة لكان لا يتعذر على المفحم إذا عرف وزن الشعر أن يعارض ديوان امرئ القيس، وسائر الشعراء الفحول من القدماء والمحدثين)) (٢).

ثم أورد الزيدي ما حُكي عن مسيلمة الكذاب، وما قاله من كلام سخيف، كقوله: ((والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس ... وكان يقول: ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون))(٣)، وأعقب ذلك بقوله : ((وهذه الفصول أبْين سخافة، وأظهر ركاكة من أن يحتاج إلى ذكرها في كتابنا هذا، على أنها مما ليست فيه شبهة على أحد سمعها، لكنا ذكرناها ليتعجَّب منها المتعجِّب، وليعلم أنها لو كانت للقرآن معارضة في الحقيقة لنقلت، كما نقل هذا الكلام السخيف الذي لو أراد بعض المتعلمين الذين تكون بضاعتهم في اللغة مزجاة، إيراد أسجاع في هذا المعنى لم يرض لنفسه بمثل هذا.

والرجل ــ أعني مسيلمة ــ وإن كان كذاباً وقحاً، فإنه كان رجلاً من العرب، ولم يبلغ به جهله إلى أن يدعي أنه يعارض بمثل هذا الكلام القرآن؛ لأنه لو فعل ذلك كان يفتضح بين قومه، وهو لم يوردها على أنها معارضة، وإنما كان يوردها على أنها منزلة عليه، وليس كل ما يقصد أن يدعي فيه أنه منزل من عند الله يمكن أن يقال فيه: أنه معارضة للقرآن؛ لأنا لا ندعي إعجاز القرآن من حيث أنه منزل من عند الله تعالى فقط، بل لأوصاف أخرى تخصُّه)) (٤).

---

(١) لم أعثر له على ترجمة .

(٢) المصدر السابق : ٣٨ .

(٣) المصدر السابق : ٣٨ .

(٤) المصدر السابق : ٣٨ ــ ٣٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم ساق الزيدي لمسيلمة أقاويل أخرى، غير أنَّ الزيدي هذه المرة بيَّن أن هذه الأقاويل مع سخافتها إلا أنها أخف مما تقدم من كلامه، والعلة في ذلك: أن مسيلمة أدخل في كلامه شيئاً من ألفاظ القرآن، وأخذ الابتداء من بعض سوره، فاكتسى كلامه هذه المرة ضرباً من الزِّبْرج (١)؛ لما فيه من ألفاظ القرآن (٢). ويُعقّب الزيدي على هذا بقوله: ((واعلم أن الشاعر يُدخل لفظةً من القرآن في بيت من الشِّعر، أو يُدخلها الكاتب في فصل من كتابه، والمحاور في فصل من محاورته، فيكتسب ذلك البيت، وذلك الفصل من العذوبة والرَّوْنق ما يُصيّره غرَّة في سائره، وهذا من عجيب ما اختص به القرآن، وفيه دلالة واضحة: أنه مُباينٌ لكلام البشر والحمد لله)) (٣)، ولهذا قال أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ لما بلغه شيء من كلام مسيلمة: " إنه كلام لم يخرج من إله " يعني من عند الله تعالى (٤).

ثم يُتبع ذلك بالحديث عن إعجاب بعض من كان يتعاطى الفصاحة ويدعي البلاغة من أهل عصره، بفصلٍ يحكيه عن طليحة الأسدي (٥)، وأن سبب إعجابهم ما أدخله طليحة في كلامه من ألفاظ القرآن، فصار له يسير من الرَّوْنق (٦).

ويعلِّق الزيدي على ما سبق بقوله: ((على أنَّ هذا القَدر، وبأضعافه لا يمكن أن يُعرف حال الكلام، وحال المتكلّم، كما أن بالبيت الواحد، وبالبيتين لا يمكن أن يُعرف حال الشاعر، وبالفصل الواحد وبالفصلين وبالثلاثة لا يمكن أن يُعرف حال الكاتب والكتابة، وإنما يمكن أن يُعرف ذلك إذا امتدَّ نَفَس الكلام، وظهر التصرّف فيه، ولهذا نقول: إن بهذا القدر من القرآن لا يمكن أن يُعرف إعجازه؛ لأنَّ هذا القدر من القرآن لا يمكن

---

(١) الزِّبْرِج بالكسر : الزِّينة من وَشْيٍ أو جوهر ، والذهب والسحابُ الرقيق فيه حُمْرة . ينظر : القاموس المحيط : الفيروزآبادي : ٢٤٤ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

(٢) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٣٩ .

(٣) المصدر السابق : ٣٩ .

(٤) ينظر : المصدر السابق : ٤٦ .

(٥) ينظر : ترجمته في ص ٧٨ .

(٦) ينظر : المصدر السابق : ٤٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن يُعرف إعجازه؛ لأنَّ هذا القدر وأضعافه قد يتَّفق فيه مالا يمكن لصاحبه الاستمرار عليه)) (١).

وينتقل الزيدي للحديث عن ابن المقفع (٢)، ويبيّن أنَّ ما ذُكر عنه في معارضة القرآن أكثر، ومن ذلك قوله: ((وأما الذين يزعمون أن الشك في غير ما يفعلون، وتنتهي الثقة إلى ما يقولون، أولئك ممن غضب عليهم ربهم، إنه خبير بما يعملون، الذين اتخذوا من دونه نصيرا، أولئك لا يجدون ولياً ولا هم ينصرون، ومنهم من يتخذ أنداداً من دون الله رجماً بالغيب، أولئك وراءهم شر ما يظنون)) (٣) ويُعقِّب الزيدي على معارضة ابن المقفع بقوله: ((فانظروا ــ رحمكم الله ــ إلى صفاقة هذا الإنسان، كيف جاء إلى ألفاظ القرآن فحرفها عن مواضعها، وأوهم أنها من كلامه، فأفسد وضعه ونظمه، وما أشبهه إلا بما حَكى لي بعض أهل الأدب أنه أنشد قول المتنبي:

بَقائي شاءَ ليس هُمُ ارتِحالا وحُسنَ الصَّبرِ زَمّوا لا الجِمالا (٤)

فقال: أخذ قول أبي تمام، فنسخه، وفسخه (٥)، ومسخه (٦)، يعني قوله:

قالوا الرحيلُ فما شَكَكْتُ بأنها نفسي عن الدنيا تُريدُ رحيلا (٧)

فأُبلغت الحكاية المتنبي، فقال: هلا وهبه لقولي: " وحسنَ الصبر زمّوا لا الجمالا ".

---

(١) المصدر السابق : ٤٠ .

(٢) أحد المشهورين بالكتابة والبلاغة والترسل والبراعة ، عاش ستاً وثلاثين سنة ، ومات سنة خمس وأربعين ومائة . ينظر : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : ٣ / ٩١٠ ، حققه وضبط نصه وعلق عليه : د. بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ .

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٤٠ .

(٤) من (الوافر) للمتنبي ، ينظر : ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ، المسمى (التبيان في شرح الديوان) : ٣ / ٢٢١ ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه : مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبدالحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٩١ هـ .

(٥) أي نقضه . ينظر : لسان العرب : ١١ / ١٨٠ .

(٦) المسْخ هو تحويل صورة إلى صورة أقبح منها . ينظر : لسان العرب : ١٤ / ٧١ .

(٧) من (الكامل) لأبي تمام ، ينظر : ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي : ٣ / ٦٦ ، تحقيق : محمد عبده عزام، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٣٨٥ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وابن المقفع أسوأ حالاً من المتنبي؛ لأنه ليس لكلامه من الحسنات ما يوهب له السيئات)) (١)، ثم بيَّن أن كلام ابن المقفع مستدل من العامة والسُّوقة، وأعقب ذلك بمقارنة كلام الله ــ تعالى ــ بكلام ابن المقفع؛ لأن الأخير أراد أمراً في معارضته للقرآن، لكنه لم يُصرح به، فعلَّق الزيدي على عمل ابن المقفع بكلام جيد، يقول الزيدي: ((ولعمري إن الفصيح قد يعدل عن التصريح إلى التلويح، لكن على وجه يكون أبلغ من التصريح، وبألفاظ تكون أجزل من ألفاظ التصريح، ويكون ذلك لغرض صحيح، وذلك مثل قول الله تعالى: [F G H I J K L M N O Z (٢) أراد أبي (٣) على الهدى، وأنتم في ضلال مبين، فعدل عن ذلك إلى الإيجاز والتلويح بلفظ هو أشرف وأجزل، وكان الغرض في هذا: بيان ذلك بما يكون أجمل، والتنبيه عليه بما يكون ألطف، وكلام هذا المختلف لا يحتمل ذلك)) (٤).

واستمر الزيدي يذكر نماذج كثيرة من كلام ابن المقفع، واصفاً إياه بالجاهل، ويُعلِّق على كل واحد منها، مُقلِّلاً من شأنها وشأنه، والنتيجة فيها واحدة: كلام ابن المقفع لا يصح البتة (٥) على وجه من الوجوه أن يسمى معارضة،وإن القرآن معجز (٦).

وأما الماوردي فقد ذكر أن الوجه التاسع عشر من إعجاز القرآن الكريم: عجز الأمم عن معارضة القرآن، وقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة مثله، فلم تُخرجهم أَنَفَة التحدي، وصبروا على نَغْصِ العجز مع شدة حميَّتهم وقوة أنفتهم، ولو وجدوا إلى المعارضة

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٤٠ ــ ٤١ .

(٢) سورة سبأ : آية : ٢٤ .

(٣) المقصود : أصحاب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد قالوا للمشركين : والله ما نحن وإياكم على أمر واحد . ينظر : تفسير القرآن العظيم : ٣ / ٥٠١ .

(٤) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٤١ ــ ٤٢ .

(٥) بَتَّة : مذهب سيبويه وأصحابه أن (البَتَّةَ) لا تكون إلا معرفة ، وإنما أجاز تنكيره الفراء وحده . ينظر : كتاب سيبويه : عمرو بن عثمان بن قَنبر : ١ / ٣٧٩ ، تحقيق وشرح : عبدالسلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ولسان العرب : ١ / ١٢ .

(٦) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم: ٤٣ ــ ٤٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبيلاً، وكان في مقدورهم داخلاً، وقد جعل معارضته حجة لهم في ردِّ رسالته، فلو عارضوه لاحتجُّوا عليه بالمعارضة، ولما احتاجوا معه إلى القتال والمحاربة، مع بذل النفوس واستهلاك الأموال، ولدَفَعُوه بالأهونِ دون الأصعب، وقد نُقِل ما عُورض به فظهر فيه العجز، وبان فيه النقص، حتى فَضَحتْه ركاكة لفظه، وسخافةُ نظمه (١).

ثم ذكر الماوردي أنَّ ابن قتيبة حكى عن مسيلمة أنه قال في معارضة القرآن، وذكر شيئاً منه، ثم ذكر نماذج أخرى من المعارضات، نسب أحدها إلى الأسود العنسي (٢)، والصحيح أنها لسجاح بنت الحارث بن عقبان (٣)، كما نسب نصّاً آخر للنضر بن الحارث (٤)، على أن كثيراً من العلماء ينسبه إلى مسيلمة الكذاب.

ويُعلق الماوردي على هذه النماذج بقوله: ((فأنزل الله تعالى في ذلك:] m l Z z y x w v u t s r q p o n (٥). فهذه المعارضة وقد احتذوا فيها مثالاً عدلوا بها عن طِوال السُّور إلى قصارها، فأتوا بسقيم الكلام دون سليمه، وبسخيفه دون جميله، فكيف يُقابل به غايته القصوى ويُوازي به طبقته العليا، وهل ذلك إلا كمن عارض فصاحة سحبانٍ بعيٍّ باقِل، أو تخليط مجنون بحزم عاقل، أو قاس الدُّرَّ بالمدر، وشاكل بين الصفْوِ والكدر، ومن تعاطى ما ليس في طبعه افتضح، فخرَّ صريعاً وهوى سريعاً)) (٦) .

---

(١) ينظر : أعلام النبوة : ١٤٩ ــ ١٥١ .

(٢) هو عيهلة بن كعب بن عوف العنسي المذحجي ، ذو الخمار ، متنبئ مشعوذ من أهل اليمن ، أول مرتد في الإسلام ، قتل قبل وفاة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشهر واحد ، سنة ١١ هـ . ينظر : الأعلام : ٥ / ١١١ .

(٣) ينظر : أعلام النبوة : ١٥١ . وينظر : إعجاز القرآن للباقلاني : ١٥٧ .

(٤) هو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف ، من بني عبد الدار ، من قريش ، صاحب لواء المشركين ببدر ، كان من شجعان قريش ووجوهها ، وله اطلاع على كتب الفرس وغيرهم ، أسره المسلمون يوم بدر ، وقتلوه بعد الوقعة في السنة الثانية من الهجرة . ينظر : الأعلام : ٨ / ٣٣ .

(٥) سورة الأنعام : آية : ٩٣ .

(٦) أعلام النبوة : ١٥٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما تحدث البيهقي عن هذه القضية، وأشار إلى ما ذكره الجاحظ من توفر الدواعي إليها، فقال: ((إن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لهم: ائتوني بسورة من مثله إن كنتم صادقين، فطالت المهلة والنَّظِرَةُ لهم في ذلك، وتواترت الوقائع والحروب بينه وبينهم، فقتلت صناديدهم، وسُبيت ذراريهم ونساؤهم، وانتُهبت أموالهم، ولم يتعرض أحدٌ لمعارضته، فلو قدروا عليها لافتدوا بها أنفسهم وأولادهم وأهاليهم وأموالهم، ولكان الأمر في ذلك قريباً سهلاً عليهم؛ إذ كانوا أهل لسان وفصاحة، وشعر وخطابة.

فلما لم يأتوا بذلك ولا ادعوه صحَّ أنهم كانوا عاجزين عنه... قال أبو عبدالله: الحسين بن الحسن الحليمي (١) ــ رحمه الله ــ: فإن ذكروا سجع مسيلمة فكل ما جاء به مسيلمة لا يعدو أن يكون بعضه محاكاة وسرقة، وبعضه كأساجيع الكهان، وأراجيز العرب، وقد كان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول ما هو أحسن لفظاً، وأقْومُ معنى، وأبْينُ فائدة)) (٢)، ثم ختم حديثه بقوله: ((ومن وقف على ما أخذه العلماء من القرآن على إيجازه من أنواع العلوم، واستنبطوه من معانيه، وكتبوه ودوَّنوه في كتب لعلها تزيد على ألف مجلدة، علم أنَّ كلام البشر لا يفيد ما أفاد القرآن، وعلم أنه كلام رب العزَّة، فهذا بيِّن واضح لمن هدي إلى صراط مستقيم)) (٣).

ومن خلال ما سبق يتبيَّن أن العلماء في كتب دلائل النبوة كان لهم دور كبير وريادي في التأسيس لهذه القضية، خاصة الجاحظ الذي يعتبر ــ بحق ــ أقدم الباحثين عن دواعي المعارضة بعامة، ومعارضة القرآن بخاصة، وأكثرهم تأصيلاً لهذه القضية؛ حيث لم أعثر على أحد تكلم عن هذه القضية قبله، كما أنَّ كل من جاء بعده ــ غالباً ــ يُردِّد معنى العبارات التي أتى بها الجاحظ.

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم المعروف بالحليمي الجرجاني ، ولد سنة ٣٣٨ هـ ، وتوفي في جمادى الأولى سنة ٤٠٣ هـ . ينظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان : ٢ / ١٣٧ ــ ١٣٨ .

(٢) دلائل النبوة : ١ / ١٢ ــ ١٣ .

(٣) المصدر السابق : ١ / ١٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعد هذا العرض لما ورد في هذه القضية من خلال كتب دلائل النبوة، أودّ التنبيه على أنه لم يصلنا أنَّ أحداً من العرب حاول معارضة القرآن استجابة للتحدي إلا ماروى ابن رشيق من أنَّ فصحاء قريش عكفوا على لُباب البرّ وسلاف الخمر ولحوم الضأن والخلوة، إلى أن بلغوا مجهودهم، فلما سمعوا قول الله عز وجل:] وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ Z (١) يئسوا مما طمعوا فيه، وعلموا أنه ليس بكلام مخلوق (٢).

وهذا النصّ يعطينا أن فصحاء قريش طمعوا في معارضة القرآن، وأعدّوا أنفسهم لها، واستعانوا عليها بالأسباب التي توهموها معينة على بلوغ الغاية، غير أن هذا النص يوهم بأن ما سبق من آيات القرآن على هذه الآية لم يكن كافياً لأن يقطع طمع قريش، وأن في هذه الآية من روائع البلاغة ما ليس فيما تقدم من آيات، وهذا الكلام في رأي أحد الباحثين (٣) ((مدخول قصد به إلى إيهام أن نهاية الإعجاز تتحقق في بعض الآي دون بعض، ثم جازت هذه الخدعة على المؤلفين من أصحاب النيات السليمة والإيمان الصحيح، فرووها دون أن يتنبهوا إلى ما تحمل في طياتها من مغزى غير لائق بجلال القرآن جملة وتفصيلا، ثم هل بلغ البَله من قريش أن يغفلوا عن أن البيان سليقة وطبيعة، وأنه لا حاجة إلى هذه (المظاهرة) ويستعينوا بلباب البر وسلاف الخمر ولحوم الضأن، كأن هذا الطعام وهذا الشراب مما يولد في اللسان بياناً لم يكن فيه. ولو أن قريشاً أرادت معارضة القرآن لكان من سلائقها وطبائعها ما يُعينها على ذلك لو كان ممكنا)) (٤).

---

(١) سورة هود : آية : ٤٤ .

(٢) ينظر : العمدة في صناعة الشعر ونقده : ابن رشيق القيرواني : ١ / ٣٣٩ ، حققه وعلّق عليه ووضع فهارسه : د. النبوي عبدالواحد شعلان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ .

(٣) هو أ.د. علي العماري في كتابه : حول إعجاز القرآن .

(٤) حول إعجاز القرآن : أ.د. علي العماري : ٢٥ ـ ٢٦ ، مطابع روز اليوسف الجديدة ، مجلة الأزهر ، شوال ١٤١٩ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والحق في ذلك ما قاله الجاحظ عن المعارضة: ((فلم يَرُم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع فيه لتكلَّفه، ولو تكلَّفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجدَ مَنْ يستجيده ويحامي عليه ويكايد فيه، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض)) (١).

هذا وقد ذكر العلماء في كتب دلائل النبوة وغيرها أسماء قوم زعموا أنهم عارضوا القرآن، كالنضر بن الحارث، والأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، وابن المقفع، وابن الراوندي، والمتنبي.

١ ــ المعارضات المنسوبة للنضر بن الحارث:

كثيراً ما يذكر العلماء معارضة مسيلمة الكذاب قبل غيره، مع أن هناك مَن سبقه إلى المعارضة، فأقدم ما عثرت عليه من المعارضات الفعلية للقرآن ما فعله النضر ابن الحارث. فقد روى عبدالملك بن هشام المعافري عن محمد ابن إسحاق أن النضر كان يَنْصِب لمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ العداوة ويؤذيه، وكان قد قدم الحيرة من العراق، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأخبار رستم واسفنديار من أبطالهم، فكان إذا جلس محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ مجلساً فذكَّر فيه بالله، وحذَّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمته، خَلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه،فهلمّوا أنا أحدّثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم بما جمع (٢). وكان النضر بن الحارث يعتبر عمله هذا فيه معارضة للقرآن، والدليل على ذلك أنه كان ممن حكى القرآن قوله في سورة الأنفال: [s t u v w x y z { | } ~ Z (٣)، وأن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يقول: إنه كان يقول في كتاب الله ــ عز وجل ــ ما يقول (٤).

---

(١) الإتقان : ٤ / ٧ .

(٢) ينظر : السيرة النبوية : ابن هشام : ١ / ٣٢٦ .

(٣) سورة الأنفال : آية : ٣١ .

(٤) ينظر : تفسير القرآن العظيم : ٢ / ٢٧٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد اعتذر مصطفى صادق الرافعي عن ذكر ما أورده النضر من أخبار الفرس وملوك العجم؛ إذ كان يرى أنه مَخْرق(١) بذلك؛ لأنه جاء بأخبار يجهلها العرب، ولم يحفل أحد من المؤرخين ولا الأدباء بهذا الرجل؛ لحماقته فيما زعم، وإنما ذكرناه نحن إذ كنا لا نرى الباقين أعقل منه (٢).

٢ ــ المعارضات المنسوبة للأسود العنسي:

وبعد النضر بن الحارث جاء عيهلة بن كعب والذي يقال له الأسود العنسي، فادعى النبوة في أواخر حياة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما يذكر ذلك المؤرخون (٣). ويذكر الرافعي أن الأسود كان رجلاً فصيحاً، معروفاً بالكهانة والسجع والخطابة والشعر والنسب، ولا يُذكر له قرآنٌ غير أن الوحي يترل عليه، وكان إذا ذهب مذهب التنبؤ أكبّ ثم رفع رأسه وقال: يقول لي كيت وكيت، يعني شيطانه (٤).

٣ ــ المعارضات المنسوبة لمسيلمة الكذاب:

تناقل كثير من العلماء ما أورده مسيلمة الكذاب من معارضة للقرآن الكريم، وأخذ كل منهم يدلي بدلوه في هذه القضية، وانقسموا في ذلك قسمين:

ــ قسم نسب هذه المعارضة إلى مسيلمة، وأخذ يعلق عليها وينقدها، ومن ذلك ما قاله الجاحظ في كتاب " الحيوان " عند الكلام على الضفدع: ((ولا أدري ما هيج مسيلمة على ذكرها، ولم ساء رأيه فيها، حيث جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه يا ضفدع نِقّي كم تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدِّرين، ولا الشارب تمنعين)) (٥)، كما اتهم الجاحظ مسيلمة بالسطو على القرآن، فقال عن كلامه: ((يعلم كل من سمعه أنه

---

(١) أي جاء بما هو خارق للعادة.

(٢) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١٧٤ .

(٣) ينظر : تاريخ الأمم والملوك : محمد بن جرير الطبري : ٢ / ٢٥٢ ــ ٢٥٧ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ . وينظر : صيد الخاطر : ابن الجوزي : ٣٣٧ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٤٥ هـ .

(٤) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١٧١ ــ ١٧٢ .

(٥) الحيوان : ٥ / ٥٣٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنما عدا على القرآن، فسلبه وأخذ بعضه، وتعاطى أن يقارنه)) (١)، وإن كنت أظن أن الجاحظ لم يقصد بكلامه هذا إلا الاستهزاء والسخرية بما ينقله الرواة عن مسيلمة، ولعل مما يؤكد هذا قول الجاحظ السابق ((فلم يَرُم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع فيه لتكلَّفه، ولو تكلَّفه لظهر ذلك)) وذلك عندما نفى المعارضة حقها وباطلها.

كما علَّق الخطابي على خبر عمرو بن العاص ـــ رضي الله عنه ـــ عندما واجه مسيلمة فقال: ((صدق عمرو. هل يخالج أحداً شك في ضلالة من هذا سبيله، وسقوط من هذا برهانه ودليله ؟. وأي معنى تحته، وأي حكمة فيه حتى يتوهم أن فيه معارضة للقرآن، أو مباراة له على وجه من الوجوه ؟ ولكن البائس أعلم بنفسه حين يقول: أُرسلت في المحقَّرات، ولا يراد أحقر مما جاء به وأقل...)) (٢)، والغريب في الأمر أن الخطابي ـــ مع أنه كان عالماً بالحديث ـــ نقل هذا الخبر؛ فالذي روى هذا الخبر هو " سعيد بن نشيط "، وهو من المجهولين المتهمين، قال ابن حجر عن سعيد بن نشيط: ((شيخ ابن لهيعة، لا يعرف، مجهول، ذكره ابن حبان في ذيل الضعفاء، قال: روى عنه عبدالله بن عقبة، لا يصح، قلت: وابن عقبة هو ابن لهيعة نسبة لجده)) (٣)، كما يذكر الرازي في " الجرح والتعديل " بأنه مجهول (٤)، وقال ابن خلكان: ((ابن لهيعة بن عقبة بن لهيعة الحضرمي الغافقي المصري، كان مكثراً من الحديث والأخبار والرواية، قال محمد بن سعد (٥) في حقه: إنه كان ضعيفاً، ومن سمع منه في أول أمره أقرب حالاً ممن سمع منه في آخره. وكان يقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت فقيل له في ذلك، فقال: ما ذنبي إنما

---

(١) المصدر السابق : ١ / ٣٢٢ .

(٢) بيان إعجاز القرآن : ٥٧ .

(٣) لسان الميزان : ابن حجر العسقلاني : ١ / ٤٣٦ ، تحقيق دائرة المعارف النظامية ، الهند ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٦ هـ .

(٤) ينظر : الجرح والتعديل : عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي : ٤ / ٦٩ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٢٧١ هـ .

(٥) هو محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري ، وقال كلامه هذا في الطبقات الكبرى : ٧ / ٥١٧ ، دار صادر ، بيروت .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يجيئونني بكتاب يقرؤونه علي ويقومون، ولو سألوني لأخبرتهم أنه ليس من حديثي)) (١)، كما ضعَّف الألباني أحاديث ابن لهيعة؛ وذلك لسوء حفظه (٢). وخلاصة الحديث الذي ذكره الخطابي ورواه سعيد بن نشيط هو: أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعث عمرو بن العاص ــ رضي الله عنه ــ إلى البحرين فتوفي رسول الله وعمرو ثَمَّ، قال عمرو: فأقبلت حتى مررت على مسيلمة فأعطاني الأمان، ثم قال: إن محمداً أُرسل في جسيم الأمور، وأُرسلت في المحقرات، فقلت: أعرض علي ما تقول، فقال ما قال... فقال له عمرو: أما والله إنك تعلم، وإنا لنعلم أنك من الكاذبين فتوعدني.

وفي القصة مع تسليمنا جدلاً بورودها أمران:

الأول: أن عمراً لم يذكر أن مسيلمة كان يعارض القرآن بكلامه هذا، وإنما هو كلام قاله على حد ما يفعل الكهان.

الثاني: قول مسيلمة (أُرسلت في المحقرات) لا يتفق هذا مع ما هو مشهور من أن مسيلمة كتب إلى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول: إن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، وإنه جعل يعفي أتباعه، بل وأتباع سجاح التميمية من بعض التكاليف الإسلامية(٣).

وقد أبدع الخطابي في نقد المعارضة التي جاء فيها ذكر الفيل فقال: ((يقال لصاحب الفيل: يا فائل... افتتحت قولك بالفيل ما الفيل...، فهولت وروعت، وصعدت وصوبت، ثم أخلفت ما وعدت، وأخدجت (٤) ما ولَّدت حين انقطعت. وعلى ذكر

---

(١) وفيات الأعيان : ٣ / ٣٨ .

(٢) ينظر : إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل : محمد ناصر الدين الألباني : ١ / ٢٩١ ، ٢ / ٤٠ ، ١٣٨ ، ١٥٨ ، ١٧٩ ، ٢٢٨ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ . وينظر : مشكاة المصابيح : محمد بن عبدالله التبريزي : ١ / ٤٠٧ ، تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٥ هـ .

(٣) ينظر : تاريخ الأمم والملوك : ٢ / ٢٨٤ . وينظر : حول إعجاز القرآن : ٢٨ ــ ٢٩ .

(٤) أخدجت : أي ألقت ولدها تاماً أو غير تام قبل وقته . ينظر : لسان العرب : ٥ / ٢٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذَّنَب والمشفر اقتصرت، ولو كنت تعرف شيئاً من قوانين الكلام وأوضاع المنطق ورسومه لم تُحرِّف القول عن جهته، ولم تضعه في غير موضعه. أما علمت يا عاجز أن مثل هذه الفاتحة إنما تُجعل مقدمة لأمر عظيم الشأن فائت الوصف متناهي الغاية في معناه، كقول الله تعالى:] ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ © Z [١] و] , - . / 0 1 2 3 4 5 Z [٢] فذكر يوم القيامة وأتبعها من ذكر أوصافها وعظيم أهوالها ما لاق بالمقدمة التي أسلفها، وصدَّر الخطبة بها فقال:] 6 7 8 9 : ; < = > ? @ Z [٣] إلى آخر السورة، وأنت علقت هذا القول على دابة يدركها البصر في مدى اللحظة، ويحيط بمعانيها العلم في اليسير من مدة الفكر، ثم اقتصرت من عظيم ما فيه من العجب على ذكر المشفر والذنب، فما أُشَبِّهُ قولك هذا إلا بما أنشدنيه بعض شيوخنا لبعض نظرائك:

وإني وإني ثم إني وإنني إذا انقطعت نعلي جعلت لها شسعا [٤]

أي صغير ما أتيت به في عجز كلامك من عظيم ما أَصميته في صدره، ويسير ما رضيت به في آخره من كثير ما أنميته في أوله، وإذ قد دلك فيَّالة رأيك وسوء اختيارك على معارضة القرآن العظيم بذكر الفيل وأوصافه، فهلا أتيت منها بما هو أَشف قليلاً، وأشفى وأجمع لخواص نعوته وأوفى، فتذكر ما أُعطِيته هذه البهيمة العجماء من الذهن والفطنة التي بها تفهم عن سائسها ما يومئ به إليها من تدبيره، وهلا تعجبت وعجبت من ذلك من حسن مواتاتها وطاعتها له إذا أغراها، وقرب ارتداعها إذا زجرها ونهاها، وهلا قرنت إلى ذكر مشفرها ذكر نابيها اللذين بهما تصول، وبسنانهما تطعن وتجرح، وكيف أغفلت أمر

---

(١) سورة الحاقة : آية : ١ ــ ٣ .

(٢) سورة القارعة : آية : ١ ــ ٣ .

(٣) سورة القارعة : آية : ٤ ــ ٥ .

(٤) من (الطويل) ولم أتمكن من معرفة قائله ، ورد دون عزو في كتاب : الرد على المنطقيين : ابن تيمية : ١٦٢ ، تقديم السيد : سليمان الندوي ، المطبعة القيمة ، بمباي ، ١٣٦٨ هـ ، كما ورد في تفسير أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : محمد الأمين ابن محمد بن المختار الشنقيطي : ٧ / ١٦١ ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤١٥ هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أُذنيها العريضتين اللتين تلحفهما وجهها، وتذب بتحريكهما البق والذباب عن صماخيها وعينيها، وبهما تروّح على نواحي رأسها، وكيف لم تفطن لموضع التدبير من قصر رقبتها واندماج عنقها، فإنها لو طالت لم تُقِلّ رأسها، ولأوهنها ثقل حمله، فإذ قد منعت امتداد العنق فقد عوضت به انسدال المشفر، لتتناول به من وجه الأرض حاجتها من القوت والعلف، وتَدْلو به شربها من الماء...)) (١).

هذا ويقوم الخطابي بنقد النصوص التي نُسبت لمسيلمة، ومن ذلك قوله: ((أما قول مسيلمة في الضفدع، فمعلوم أنه كلام خال من كل فائدة، لا لفظه فصيح، ولا معناه مستقيم، ولا فيه شيء من الشرائط الثلاث التي هي أركان البلاغة، وإنما تكلف هذا الكلام الغث؛ لأجل ما فيه من السجع، والساجع عادته أن يجعل المعاني تابعة لسجعه، ولا يبالي بما يتكلم به إذا استوت أساجيعه واطردت)) (٢)، ثم أخذ الخطابي ينقد بعض النصوص الأخرى، مُفرِداً بعضها بنقد مستقل (٣).

وقد امتدح الدكتور عبدالفتاح لاشين تعامل الخطابي مع هذه المعارضات، فقال: ((وعلى هذا المنوال جرى فيما أورده من آيات رداً على ما زعمه الزاعمون، وقد أورد ما عورض به القرآن، ثم وازن بينه وبين القرآن الكريم، وقد دلَّ بهذه الموازنة على إدراك لأسرار التعبير، وذوق فني مرهف لأساليب القرآن)) (٤).

ويصف القاضي الباقلاني معارضة مسيلمة بالخسة والركاكة، فيقول: ((فأما كلام مسيلمة الكذاب، وما زعم أنه قرآن، فهو أخسُّ من أن نشتغل به، وأسخف من أن نفكر فيه. وإنما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارئ، وليتبصر الناظر، فإنه على سخافته قد أضل، وعلى ركاكته قد أزل، وميدان الجهل واسع ! ومن نظر فيما نقلناه عنه، وفهم موضع جهله، كان جديراً أن يحمد الله على ما رزقه من فهم، وآتاه من علم)) (٥).

---

(١) بيان إعجاز القرآن : ٦٦ ــ ٦٨ .

(٢) المصدر السابق : ٥٥ ــ ٥٦ .

(٣) ينظر : المصدر السابق : ٦٩ .

(٤) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار : ٤٥١ .

(٥) إعجاز القرآن : ١٥٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وذكر ابن سنان الخفاجي بأن مسيلمة لم يأت بمعارضة على الحقيقة، وأن الكلام الذي أورده خالٍ من الفصاحة التي وقع التحدي بها في الأسلوب المخصوص (١).

كما يصف عبدالقاهر الجرجاني ما تعاطاه مسيلمة بالحماقة (٢).

كما علق محمد بن سليمان البلخي المعروف بابن النقيب على بعض النصوص التي جاء بها مسيلمة، فقال: ((هو أسلوب في غاية الفظاعة والركاكة، وكان مبتدئاً به، ولم يعد ذلك معجزاً، بل عدّ سخفاً وحمقاً)) (٣).

ويصف محمد رشيد رضا ما أتى به مسيلمة بالخزي والتقليد أو النقل، فهو إذن ضرب من الاقتباس مع التصرف (٤).

كما وصف مصطفى صادق الرافعي كلام مسيلمة بأنه واهٍ سخيف، لا ينهض ولا يتماسك، بل هو مضطرب النسخ، مبتذل المعنى، مستهلك من جهتيه (٥).

وأعلن الرافعي ذات مرة أن مسيلمة عارض بما أتى أوزان القرآن في تراكيبه (٦)، وفي أخرى: لما حاول مسيلمة أن يعارض القرآن حاول أن يصوغ على طريقته ويأتي على منواله، فجاء بشيء لا يشبهه، ولا يشبه كلام نفسه، وجنح إلى أقرب ما في الطباع الإنسانية، وأقوى ما في أوهام العرب من طرق السجع، فأخطأ الفصاحة من كل جهاتها(٧).

وعلّل الرافعي ميول مسيلمة إلى السجع في أكثر ما قال إلى أنه كان يحسب النبوة ضرباً من الكهانة، فيسجع كما يسجعون، وقد اعتاد العرب على أن يسمعوا للكهان

---

(١) ينظر : سر الفصاحة : ٤ .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز : ٣٨٧ .

(٣) مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن : جمال الدين محمد بن سليمان البلخي المقدسي الحنفي الشهير بابن النقيب : ٥١٢ ، كشف عنها وعلق عليها : زكريا سعيد علي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ .

(٤) ينظر : تفسير المنار : ١ / ١٦٧ ، ٢٢٥ .

(٥) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١٧١ .

(٦) ينظر : المصدر السابق : ١٧٠ .

(٧) ينظر : المصدر السابق : ١٩٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويطيعوا، ووقر ذلك في أنفسهم وترسخ في أذهانهم، و لم يجدوا كلام الكهان إلا سجعاً، فكانت هذه بعض ما استدرجهم به مسيلمة، وتأتى إلى أنفسهم منها (١).

ويستمر الرافعي في ازدراء هذا الرجل، فيصفه بالسفاهة (٢)، وكلامه بالخرافات (٣). وأخيراً عاب الرافعي مسيلمة بأن ((قرآنه كان فصولاً وجُملاً، بعضها مما يرسله، وبعضها مما يترسل به في أمر إن عرض له، وحادثة إن اتفقت، ورأي إذا سُئل فيه)) (٤). وواضح أن هذا الوصف لا يعيب كلام مسيلمة في شيء، بل إنه ينطبق على القرآن نفسه (٥).

ثم يأتي محمد الزرقاني ليحكم على النصوص التي أوردها مسيلمة بالسخف والهذر، وقال: وأنت خبير بأن مثل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة في قليل ولا كثير، وأين محاكاة الببغاء من فصاحة الإنسان ؟ وأين هذه الكلمات السوقية الركيكة، من ألفاظ القرآن الرفيعة ومعانيه العالية ؟ وهل المعارضة إلا الإتيان بمثل الأصل في لغته وأسلوبه ومعانيه، أو بأرقى منه في ذلك ؟ (٦).

وقد ذكر الدكتور محمد عبدالله دراز بأن مسيلمة لم يصنع شيئاً إلا أنه كان يعمد إلى آي من القرآن فيسرق أكثر ألفاظها، ويبدل بعضا، أو يجيء على موازين الكلمات القرآنية بألفاظ سوقية، ومعانٍ سوقية، وهكذا لم يستطع وهو عربي قح أن يحتفظ بأسلوب نفسه، بل نزل إلى حدّ الإسفاف، وأتى العبث الذي يأتيه الصبيان في مداعبتهم وتفكههم بقلب الأشعار والأغاني عن وجهها، ولا يخفى أن هذا كله ليس من المعارضة في شيء، بل هو المحاكاة والإفساد، وما مثله إلا كمثل من يستبدل بالإنسان تمثالاً لا روح فيه، وهو على ذلك تمثال ليس فيه شيء من جمال الفن. وإنما المعارضة أن تعمد إلى

---

(١) ينظر : المصدر السابق : ١٧٠ .
(٢) ينظر : المصدر السابق : ١٨٧ .
(٣) ينظر : المصدر السابق : ٢٠٨ .
(٤) ينظر : المصدر السابق : ١٧٠ .
(٥) ينظر : إعجاز القرآن (التحدي) : ١٣٢ .
(٦) ينظر : مناهل العرفان : ٢ / ٣٠٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معنى من المعاني فتؤديه نفسه بأسلوب آخر يوازي الأصل في بلاغته أو يزيد. ومن يحاول ذلك في المعاني القرآنية فإنما يحاول محالاً، والتجربة أصدق شاهد، بل من يحاول أن يجيء بمثل أسلوب القرآن في معان أخرى لا يتحرى فيها الصدق والحكمة فقد طمع في غير مطمع (١).

وأشار محمد أبو زهرة بأن أحد النصوص ليس جديراً بأن يسمى كلاماً، فضلاً عن أن يكون له فصاحة أو بلاغة، أو أي نوع من الإدراك البياني (٢).

كما بيَّن الدكتور حسن ضياء الدين عتر بأن مسيلمة باء بإخفاق ذريع مزرٍ، وهذا دليل على البون الشاسع بين مستوى بلاغة القرآن والمستوى الذي يتسع له طوق البشر (٣).

ويؤكد الدكتور علي البدري بأن ما نُسب إلى مسيلمة قد حدث منه فعلاً (٤).

هذا هو القسم الأول الذي نسب المعارضة إلى مسيلمة، وأخذ ينتقد ما جاء به، وأحسب أنَّ عملهم هذا وصنيعهم إنما هو غيرة على كتاب الله ــ عز وجل ــ ودفاع عنه، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

ــ وقسم لم يرض بنسبة هذا الكلام لمسيلمة ولا لأحد من العرب القدماء، بل قد يؤكد بعضهم على أن هذه المعارضات من مختلقات الرواة (٥)، ومن الدلائل على ذلك أن بعض هذه المعارضات يروى عن غير واحد (٦)، كالنص الذي ورد في معارضة سورة الكوثر، فقد نسبه ابن عبد ربه في " العقد الفريد " (٧)، وابن منظور في " مختصر تاريخ دمشق "

---

(١) ينظر : النبأ العظيم : ١٠٢ .

(٢) ينظر : المعجزة الكبرى " القرآن " : ٧١ .

(٣) ينظر : المعجزة الخالدة :١٥٢ .

(٤) ينظر : حقائق وأباطيل حول إعجاز القرآن : د. علي البدري : ٧٦ ، دار المكتب الجامعي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ .

(٥) ينظر : حول إعجاز القرآن : ٢٩ .

(٦) ينظر : حول إعجاز القرآن : ٢٩ .

(٧) ينظر : العقد الفريد : أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي : ٦ / ١٤٥ ، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه : أحمد أمين ، وإبراهيم الأبياري ، وعبدالسلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١) لمتنبئ في العصر الأموي في عهد خالد بن عبدالله القسري، كما زادا في آخره، ونسبه عبدالقاهر الجرجاني في " دلائل الإعجاز " إلى مسيلمة (٢).

يقول الدكتور علي العماري: ((ومما لا يدع ـ عندي ـ مجالاً للشك، في أن هذه المعارضات من تفكهات الظرفاء، هذه القصة الخليعة التي نسجها الرواة حول التقاء مسيلمة بسجاح، فقد أطلق الرواة لخيالهم العنان، فنسجوا قصة لم يقصد منها إلا الحط من هذين المتنبئين، وإلا الترويح عن نفوس القارئين لأخبارهما، وقد استغلوا اجتماع رجل وامرأة في ظل دعوة كاذبة)) (٣).

ثم يتجه الدكتور العماري إلى نقد أحد النصوص التي نُسبت إلى مسيلمة، وهو قوله: ((والمبذرات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والعاجنات عجنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والباغي فناوئوه)) (٤) يقول الدكتور العماري: ((نلاحظ في هذه المعارضة الاستقصاء الذي لا يعرفه إلا أهل الصناعة من محترفي الكتابة، أما العربي الأول فما أظن أن يبلغ به التتبع والاستقصاء هذا الحد الذي نراه في هذه المعارضة فيبتدئ ببذر الزرع، وينتهي بلقم الثريد، وما بقي إلا أن يختم عبثه بالخاتمة الطبيعية لهذا الترتيب. وطبيعة العربي تميل ميلاً شديداً إلى الإيجاز، وما كان يخفى على مسيلمة سر قوة الكلام، وضرورة حذف الفضول طبعاً وتحيزه. وقد وجدتْ في كتب التاريخ والسير كلمات لمسيلمة ـ غير ما عارض به القرآن

والنشر ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ .

(١) ينظر : مختصر تاريخ دمشق : ابن منظور : ٧ / ٣٢٧ ، تحقيق : أحمد راتب حموش ، ومحمد ناجي العمر ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز : ٣٨٧ .

(٣) حول إعجاز القرآن : ٢٩ ـ ٣٢ .

(٤) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٣٨

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـــ كلها موجزة غاية الإيجاز، مع قوة وفصاحة)) (١)، وقد ذكر منها الدكتور العماري ما يلي:

((**الأولى:** قوله لسجاح التميمية حيث اجتمعت به: هل لك أن أتزوجك فآكل بقومي وقومك العرب ؟

وهذه الكلمة تدل على مكان الرجل من الفصاحة وسعة الحيلة، وحسن البصر بالأمور، وجميل التأتي لما يريد، وهل أوقع في نفس سجاح، وأكثر تأثيراً في نفوس قومها من أن يخيل لها أنه سيأكل بقومه وقومها العرب، وهل كانت تقصد سجاح غير هذا ؟ وهل كان يقصد من اتبعوها إلا أكل العرب والاستيلاء عليهم. فإذا قارنا بين كلمته هذه، وما شعر به لسجاح، وجدنا فارقاً كبيراً في الأسلوب وفي الروح، هذه الكلمة صادرة عن نفس جادة حازمة تتطلب أمراً عظيماً، أما الشعر فصادر عن نفس ماجنة عابثة لا تدرك ما وراء هذه المغامرة من المخاطر.

الثانية: قوله حين استحر القتل في قومه، وأخذهم سيوف المسلمين من كل جانب، وقد سأله قومه ما وعد به، فقال: أما الدين فلا دين، قاتلوا عن أحسابكم.

فأي إيجاز وأي قوة، وأي إيحاء وتحميس، أقوى من هذا " قاتلوا عن أحسابكم".

الثالثة: وإن كانت دون الكلمتين السابقتين في قوتها إلا أن عليها سمة الوجازة في مقام يستدعي التطويل، كتب إلى النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يقول: من مسيلمة رسول الله إلى محمد بن عبدالله. أما بعد: فإني قد أشركت معك في الأمر، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون.

والمنصف لا يشك في أن صاحب هذه الكلمة الموجزة الصارمة، ليس صاحب هذه المعارضات الركيكة المسهبة في بعض الأحايين)) (٢).

بعد ذلك انتقل الدكتور العماري إلى نقد قول مسيلمة ((والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم

---

(١) حول إعجاز القرآن : ٣٢ ـــ ٣٣ .

(٢) المرجع السابق : ٣٣ ـــ ٣٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المذق، فما لكم لا تمجعون)) (١): يقول الدكتور العماري: ((والمعارضة فيها تكرار لا مبرر له، فقد أقسم بالشاة وألوانها، ثم بالشاة السوداء، وكذلك أقسم بالألبان ثم اللبن الأبيض، وربما تحذلق بعض الباحثين فقال: إن القسم بالشاة السوداء تخصيص بعد تعميم، وكذلك اللبن الأبيض، ولو عجبت من وصف اللبن بالأبيض لقال لك من يجد لكل سؤال جواباً إنه نعت كاشف، ولكن للتخصيص بعد التعميم في كلام العربي الصميم مغزى، وللنعت الكاشف سرا، ولا أرى هنا مغزى ولا سرا.

أما الكلمة الأخيرة فهي أشبه بأن تكون موضع الفكاهة، أو مركز الدائرة من السورة ! فما خطب المَجْع ؟ وكيف عزف قوم مسيلمة عنه وتركوه ؟ حتى جعل يتعجب في حسرة من تركهم إياه، ويقسم بأشد الأيمان غلظاً على أنه لا عيب فيه، وماذا ينقص نبوته أن يترك قومه المجْع. إن المجْع هو أكل التمر ثم شرب اللبن عليه، أو عجين التمر باللبن، وهو طعام ما أظن العرب تركوه وقد أمكنهم، وهو ــ ولا شك ــ أفضل من المذق (خلط اللبن بالماء) فكيف اعتلت طبائع هؤلاء الناس وانحرفت أمزجتهم فحرموا المجع، وحللوا المذق، فجاء مسيلمة برسالته ليردهم عن هذا الوضع المقلوب ؟! ولا غرو فالرجل كما يقول أرسل في محقرات الأمور !

ولكن كيف يعفي أتباعه من تعاليم الإسلام، ويحرم عليهم خلط اللبن بالماء ؟! ويشغل باله هذا التحريم حتى يوحى إليه فيه بقرآن يبتدئ بالقسم، وينتهي بهذا الحكم العظيم. وإذا كانت المعارضة الأولى تدرجت إلى أمر عظيم، وجاءت مؤكدة أن قوم مسيلمة فضلوا على أهل الوبر والمدر، فإن المعارضة الثانية تدرجت إلى أمر عظيم أيضاً، وهو تحريم المذق، وتحليل المجع)) (٢).

ومن النصوص التي نسبت لمسيلمة قوله: ((الفيل، ما الفيل، له ذنب وبيل، وخرطوم طويل)) (٣)، ((وقد أحسن مسيلمة حين جمع بين القول في الضفدع والقول

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٣٨ ، وتاريخ الأمم والملوك : ٢ / ٢٧٦ .

(٢) حول إعجاز القرآن : ٣٥ .

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١٧١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الفيل، وكيف لا ؟ وأحدهما بحري والآخر بري، وأحدهما حيوان ضخم كبير، والآخر صغير لا يكدر ماء ولا يمنع شارباً، والعجب من هذا النبي الذي يقول في الفيل، وقد وصف نفسه بأنه أرسل في محقرات الأمور، كأن الفيل شيء تافه صغير، وإن قال هو غير ذلك، حين أعلن أنه ليس من خلق ربنا بقليل)) (١).

ويستمر الدكتور العماري في نقد ما بقي من النصوص، ويختم حديثه عن مسيلمة بقوله: ((ومن هنا نستطيع أن نقول ــ ونحن في غاية الاطمئنان ــ إن هذه الكلمات لم يقلها مسيلمة ولا غيره من الأعراب الأقحاح، وإنما لم توضع ليعارض بها القرآن، وإنما وضعت للتفكهة والسمر، وكأن من تمام ذلك أن تنسب إلى بعض المتنبئين، ولا نستبعد أن بعضها وضع لغاية دينية في أوهام الذين وضعوها، كأنهم كانوا يظنون أن نزول هذه المفتريات عن درجة البلاغة مما يؤكد إعجاز القرآن مع أن ثبوت الإعجاز القرآني ليس في حاجة إلى مثل هذا، بعد ما سكت فحول البلاغة عن معارضته، فلزمت الحجة ووضح الدليل)) (٢).

وشارك عبدالكريم الخطيب الشَّاكين في كلام مسيلمة، فأعلن في ما نُسب إليه أنه ((لا يمكن أن يكون كلام عربي يعرف لسان قومه سليقة وطبعا، إذ هو كلام ركيك سخيف، لا يصدر عن عربي لم تُفسد لسانه العُجمة كمسيلمة وقومه. وإنما الذي يُرد إليه هذا الكلام هو الإمعان في الهزء والسخرية بهذا " النبي "بنسبة هذا السخف إليه، وجعله قرآنه الذي أوحي إليه من شيطانه أو شياطينه.

وقد يكون لمسيلمة معارضة للقرآن، غير هذا الهذر السمج، ولكنها مع هذا كلام لا يقوم للقرآن، فأسقطها مسيلمة نفسه، قبل أن تسقط هي من حساب التاريخ)) (٣).

ثم يقارن عبدالكريم الخطيب بينها وبين كلمات لقسّ بن ساعدة، وانتهى إلى أن كلام قس تُشم من ريحه نفحة نبوة، وريح نبي، إنه ثمرة من ثمار البلاغة العربية الطيبة

(١) حول إعجاز القرآن : ٣٧ .

(٢) المرجع السابق : ٤٠ .

(٣) الإعجاز في دراسات السابقين : ٥٠٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الناضجة، أما هذا السخف الذي ينسب لمسيلمة، فما هو من هذا الكلام في شيء، إنه عبث عابث، وهذيان مجنون (١). كما يتهم الخبر المنسوب إلى عمرو بن العاص ـــ رضي الله عنه ـــ بأن الصنعة والتعمل والعبث كلها واضحة فيه، وأنه كذب وتلفيق، فلم يكن مسيلمة بالذي يرى نفسه أنه دون محمد شأناً، وقد بعث إلى النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ كتاباً قال فيه: أنا شريكك في الأمر، فلنا نصف الأرض، ولكم نصفها، ولكن قريشاً قوم لا يعدلون، وهذا خبر ثابت موثّق، فكيف يرضى مسيلمة لنفسه أن يكون نبياً إلى الضفادع والسحالي والسنانير ؟.

ثم يشير إلى أن واضع هذه القصة أبى إلا أن ينسب إلى مسيلمة الجهل بلغة قومه، فيخطئ في إعرابها، كما في كلمة " يابس " وهي واقعة حالاً يجب نصبها (٢).

ثم يختم حديثه بقوله : ((ولا نحسب أن مسيلمة وهو عربي صميم له ما للعرب من بلاغة وفصاحة، يرضى لذوقه العربي أن يَهرف بمثل هذا الساقط المرذول من الكلام، بل نحسب أنه لم يحاول أبداً أن يكون له قرآن، وأن الذي أفحم قريشاً وأعجزها، وأخذ على لسانها في معارضة القرآن هو الذي أفحم مسيلمة وأعجزه، وأخذ على لسانه، فلم يقل شيئاً يجعله قرآناً له.

والذي نظنه، بل ونكاد نستيقنه أن الذين أرادوا أن يهزأوا بمسيلمة ويسخروا منه، ويشوهوا وجهه، ويلطخوه بالسواد، على ما شوهه الكذب، ولطخه الادعاء، هؤلاء قد عمدوا إلى هذا العبث من القول، فنسبوه إليه، وعلقوه برقبته، ليزداد به خزياً وسخرية على الدهر، وليكون حديثاً يسمر به السمار في معرض السخرية والاستهزاء بكل ذي صفة تجره إلى مجالس الساخرين المستهزئين.

ولا نقول هذا في مسيلمة وحده، بل ذلك هو رأينا في كل معارضة للقرآن نسبت إلى غيره، وجيء لها بشاهد من مثل هذا الكلام المرذول المعطوب)) (٣).

---

(١) ينظر : المرجع السابق : ٥٠٢ ـــ ٥٠٣ .

(٢) يشير عبدالكريم الخطيب إلى ما روي عن مسيلمة، قوله:(والليل الدامس، والذئب الهامس، ما حرمته رطباً إلا كحرمته يابس ...) ينظر : المرجع السابق : ٥٠٣ ـــ ٥٠٤ .

(٣) المرجع السابق : ٥٠٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويبدو أنَّ عبد الكريم الخطيب حينما يذهب إلى هذا الرأي في الفقرة الأخيرة إنما يجعله فيما جاء على شاكلة هذا الكلام المرذول المنسوب إلى مسيلمة وتناقلته كتب التاريخ عنه، وعلى هذا فهو لا يلغي كل محاولة لمعارضة القرآن على مر العصور، وإن كنت أذهب إلى ما ذهب إليه هو والدكتور العماري في عدم صحة نسبة هذا الكلام لمسيلمة؛ إذ كان له ما يبرره.

٤ ــ المعارضة المنسوبة لابن المقفع:

ذكرت في بداية الحديث أن الزيدي زعم أن ابن المقفع عارض القرآن، غير أن الباقلاني نقد هذا الخبر الذي نُسب لابن المقفع فقال: ((ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، وإنما فزعوا إلى الدرة واليتيمة، وهما كتابان:

أحدهما يتضمن حكماً منقولة، توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل، فليس فيها شيء بديع من لفظ ولا معنى. والآخر في شيء من الديانات، وقد تهوَّس فيه بما لا يخفى على متأمل. وكتابه الذي بيناه في الحِكَم منسوخ من كتاب بزرجمهر في الحكمة، فأي صنع له في ذلك ؟ وأي فضيلة حازها فيما جاء به. وبعدُ، فليس يوجد له كتاب يدعي مدَّع أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة، ثم مزق ما جمع، واستحيا لنفسه من إظهاره، فإن كان كذلك فقد أصاب وأبصر القصد، ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال في الابتداء، ثم يلوح له رشده، ويتبين له أمره، وينكشف له عجزه، ولو كان بقي على اشتباه الحال عليه، لم يخف علينا موضع غفلته، و لم يشتبه لدينا وجه شبهته)) (١).

ويُشكك الرافعي في صحة هذا الخبر حيث يقول: ((إن ابن المقفع من أبصر الناس باستحالة المعارضة، لا لشيء من الأشياء إلا لأنه من أبلغ الناس... وإنما نسبت المعارضة لابن المقفع دون غيره من بلغاء الناس؛ لأن فتنة الفرق الملحدة إنما كانت بعده، وكان البلغاء كافة لا يمترون في إعجاز القرآن، وإن اختلفوا في وجه إعجازه، ثم كان ابن المقفع متهماً عند الناس في دينه، فدفع بعض ذلك إلى بعض، وتهيأت النسبة من الجملة)) (٢).

---

(١) إعجاز القرآن : ٣٢ .

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١٧٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كذلك رفض الخبر المحمل القائل إنه اشتغل بالمعارضة، ثم مزق ما جمع واستحيا لنفسه من إظهاره، وقال ((هذا عندنا إنما هو تصحيح من بعض العلماء لما تزعمه الملحدة من أن كتاب " الدرة اليتيمة " لابن المقفع هو في معارضة القرآن، فكأن الكذب لا يدفع إلا بالكذب، وإذا قال هؤلاء إن الرجل قد عارض وأظهر كلامه ثقة منه بقوته وفصاحته، وأنه في ذلك من وزن القرآن وطبقته، وابن المقفع هو من هو في هذا الأمر، قال أولئك: بل عارض ومزق واستحيا لنفسه)) (١).

كذلك شكَّ محمد أبو زهرة في صحة الخبر، وذهب إلى أن الزنادقة كانوا منبثين في مشارق الأرض ومغاربها راغبين في هدم الإسلام، فكان أقصى ما استطاعوا أن يفعلوه هو أن يدَّعوا أن ابن المقفع اتجه إلى أن يكتب كتاباً يعارض به القرآن، وهو ــ إن صحَّ كلامهم فيه ــ يدل على أنه نوى و لم يفعل، ولو فعل لنظرنا إلى ما أتى به، وإننا نشك في أصل صحته، ولكنهم يريدون أن يثيروا الغبار، والغبار قد يُغشي العيون المريضة، وإن كان قد أراد هذا فهو دليل على حمقه، ويثبت زندقته التي اتهم بها، وأنه أشاع ذلك توهيناً، وإن علم أن المحاولة فوق طاقة البشر (٢).

٥ ــ المعارضة المنسوبة لابن الراوندي:

أشار الزيدي إلى معارضة ابن الراوندي، وأنه طعن على نبوة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ في سائر كتبه " كالفريد، والتاج، والزمردة، وغيرها "، وقد شتم أبو العلاء المعري ابن الراوندي بعبارات لاذعة، فقال عن كتابه " التاج ": ((وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلا)) (٣).

وأُعجب الرافعي بموقف أبي العلاء المعري من ابن الراوندي، وأثنى عليه قائلاً:((وقد ذكر المعري هذه الكتب في رسالة الغفران، ووفى الرجل حسابه عليها، وبصق على

(١) المصدر السابق : ١٧٤ ــ ١٧٥ .

(٢) ينظر : المعجزة الكبرى " القرآن " : ٧٢ ــ ٧٣ .

(٣) رسالة الغفران : أبو العلاء المعري : ٤٦٩ ، تحقيق وشرح : عائشة عبدالرحمن ، دار المعارف ، القاهرة،ط ٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كتبه مقدار دلو من السجع، وناهيك من سجع المعري الذي يلعن باللفظ قبل أن يلعن بالمعنى)) (١).

وقد أجاب العلماء عن كل ما قاله من معارضة القرآن، وبينوا فساد ذلك بالحجج البالغة. كما وصفت كتبه بأنها ظلمات بعضها فوق بعض، وكلها اعتراض على الشريعة والنبوة بمثل تلك السخافة التي لا يبعث عليها عقل صحيح، ولا يقيم وزنها عقل راجح (٢).

وليس لي أن أقبل مثل هذه الادعاءات أو أرفضها على أمثال هؤلاء القوم، وإنما ((يجب ألا نحسن الظن، وندفع التهمة عن كل مترسل أو بليغ، وننفي عنه كل شبهة، فذلك يوقعنا في ورطة، ويصمنا بالجهل والغباء)) (٣).

٦ ــ المعارضة المنسوبة للمتنبي:

أشار الزيدي إلى معارضة أبي الطيب المتنبي، وفضَّله على ابن المقفع حين قال: ((وابن المقفع أسوأ حالاً من المتنبي؛ لأنه ليس لكلامه من الحسنات ما يوهب له السيئات)) (٤).

وقد نسب بعض الرواة (٥) إلى المتنبي معارضته للقرآن، لكن معظم ما نقل عنه قد ضاع، و لم يبق منه إلا القليل، وكان المتنبي إذا استوعب في مجلس سيف الدولة، يُذكر له معارضته للقرآن مما كان يحكى عنه، فينكره ويجحده.

وقيل: ((حُكي عن المتنبي أنه كان ينظر في المصحف، فدخل إليه بعض أصحابه، فأنكر نظره فيه، لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده، فقال له: هذا المكي على فصاحته كان

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١٧٨ .

(٢) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١٧٦ ــ ١٧٨ . وينظر : التعبير الفني في القرآن : د. بكري شيخ أمين :١٥٠ ــ ١٥١ ، دار الشروق ، بيروت ، ط ٣ ، ١٣٩٩ هـ .

(٣) التعبير الفني في القرآن : ١٥٠ .

(٤) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٤١ .

(٥) الذي روى الخبر هو أبو علي بن أبي حامد . ينظر : تاريخ الإسلام للذهبي : ٨ / ٦٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُفْحَماً !! فإن صحت هذه الحكاية عنه في إلحاده، عُرف بها أنه كان يعتقد أن الفصاحة في قول الشعر أمكن وأبلغ)) (١) .

ومما ينسب للمتنبي في معارضة القرآن قوله: ((والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي إخطار، امض على سنتك، واقفِ أثر من كان قبلك من المرسلين، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله)) (٢).

وقد علَّق الرافعي على ما نُسب إلى أبي الطيب المتنبي فقال: ((ونحن لا نمنع أن يكون للرجل شيء من هذا ومثله، وإن لم يكن في طبقة شعره، ولا في وزن ما يؤثر عنه من فصول النثر... ولم يكن المتنبي كاتباً، ولا بصيراً بأساليب الكتابة وصناعتها ووجوهها، ولا هو عربي قُحَّ من فصحاء البادية، وإن كان في حفظ اللغة ما هو، فليس يمنع سقوط ذلك الكلام الذي نسب إليه من أن تكون نسبته إليه صحيحة؛ لأنه لو أراده في معارضة القرآن ما جاء بأبلغ منه، وما المتنبي بأفصح عربية من العنسي ولا مسيلمة)) (٣).

وقد اختلف محمود محمد شاكر مع الرافعي، فذهب إلى تضعيف روايات المتنبي وقرآنه، فقال: أما قرآنه الذي رواه أبو علي بن أبي حامد فهو ــ كما ترى ــ ليس بقرآن، وإنما هو ضرب من الهذيان، والعجب أن يبايع له اللاذقي ولا يحفظ من قرآنه شيئاً، ثم يصفه فيقول: (ما مرّ بمسمعي أحسن منه). ثم الأعجب من أن تَعُمَّ بيعته كل مدينة بالشام ــ كما قال ــ ولا يبقى من قرآنه إلا هذه الحماقة التي رووها، يزعم أبو علي ابن أبي حامد أنها بقيت في حفظه (٤).

وتعرض الدكتور علي العماري لأخبار المتنبي والنص الذي نُسب له قائلاً: ((وسواء أصح ادعاء النبوة أم لم يصح، فالذي يعنينا ــ هنا ــ قرآنه الذي زعموه له، وكيف نثبت قرآناً لا نرى منه إلا سورة واحدة، بل بعض السورة، فلو كانت هذه آيات

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ١٥٥ .

(٢) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك : أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي : ٧ / ٢٦ ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٥٨ هـ .

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١٧٩ .

(٤) ينظر : المتنبي : محمود محمد شاكر : ٢١٢ ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٤٠٧ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في البلاغة ما أثبتت نبياً، ولا صلحت لأن توضع بإزاء القرآن الكريم؛ لأنها لم تشتمل على معنى رفيع، ولا تشريع قويم، وما هي إلا خطف من بعض ما جاء في القرآن الكريم، وهي بعد ذلك متداعية الأسلوب ثقيلة الروح، على أنها ليست في طبقة شعر المتنبي، ولا في وزن ما يؤثر عنه من فصول النثر... وليس الرأي عندي إلا أن المتنبي، ومن قبله مسيلمة، كانا أعقل من أن يورطا نفسيهما، ويدعيا أنهما يجيئان بمثل القرآن، وادعاء مسيلمة النبوة كان عن عصبية، وأتباعه من قومه كان عن عصبية أيضاً، أما المتنبي فيرجح عندي أنه لم يرتكب هذه الفرية، ولو كان ادعاها في حداثته ما كان ذلك إلا غروراً رجع عنه بعد قليل، وقد لازمه شؤمه، ولكن لو كان الرجل عارض القرآن حقاً، وهو شاعر صناعته القول لحرص على أن يذيع هذه الآثار حتى ولو تاب عن ادعاء النبوة، فقد كان من الممكن أن يذيعها على أنها أدب، لا على أنها قيلت في معارضة القرآن)) (١).

ويؤيد الدكتور العماري ترجيحه السابق بأن أعداء المتنبي كانوا كثيرين في السن الذي زعموا فيه أنه ادعى النبوة، ولو كان صحيحاً أنه ادعى النبوة حقاً لكان لزاماً عليهم ألا يضيعوا فرصة كهذه، فيحاولوا حينها مضاعفة جهدهم في ((أن يذيعوا ما يشهد بكفره، وإن الأعداء ليتقولون في كثير من الأحيان، فما كان أيسر عليهم أن يحفظوا هذه العبارات أو أكثرها لتكون سيفاً مصلتاً على رأس الرجل يسعون جاهدين في إزهاق روحه. وإذ لم يصلنا شيء من هذا القبيل إلا هذه الكلمة التي سقناها آنفاً(٢) فما أشك أنها موضوعة، أو على الأقل وصفت كذباً بأنها قيلت في معارضة القرآن)) (٣).

ومادام السياق حول هذه القضية أرى أنه من المناسب أن أعرج بإيجاز على آراء بعض العلماء في تحقيق صحة هذا الادعاء الذي يُنسب إلى المتنبي من أنه فعلا قد ادعى النبوة.

---

(١) حول إعجاز القرآن : ٤١ ــ ٤٣ .

(٢) يقصد القول المنسوب إلى المتنبي: ((والنجم السيار، والفلك الدوار..إلخ)) وقد ذكرته بتمامه في صفحة ١٣٢ .

(٣) حول إعجاز القرآن : ٤١ ــ ٤٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول الأستاذ علي أدهم: ((وقد كانت العاطفة الدينية عند المتنبي ضعيفة في جميع أدوار حياته، ففي ريعان شبابه يقول:

أيَّ مَحَلٍّ أَرتقي ... أيَّ عَظيمٍ أَتَّقي
وكلُّ ما خَلَقَ اللّـ ... ـه وما لم يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ في هِمَّتي ... كشَعْرةٍ في مَفْرِقي (١)

وفي هذه الأبيات يمتزج الطموح المتطرف، وفرط الثقة بالنفس باحتقار الخليقة بأسرها، وهي تروى عن شعور رجل أجال بصره فلم ير شيئاً جديراً بإجلاله، خليقاً بآماله وطموحات نفسه)) (٢).

يقول الواحدي في شرح هذه الأبيات: ((قوله وما لم يخلق ليس معناه ما لا يجوز أن يكون مخلوقاً كذات البارئ ــ عز وجل ــ وصفاته؛ لأنه لو أراد هذا للزمه الكفر بهذا القول، وإنما أراد وما لم يخلقه مما سيخلقه)) (٣).

ولكن هذا ليس مسوغاً لاتهامه بالكفر والإلحاد، بل إنه دليل بين على شعوره بالمرارة والألم القاتل من المحيط الفاسد الذي يحيط به (٤).

ويقول الأستاذ عبدالرحمن صدقي: ((فاستمع إليه يصف مقامه في الناس وإرباءه على الأكفاء، وتميزه عن النظراء بما يجعله صنو الأنبياء:

ما مُقَامي بأرض نَخْلَةَ إلا ... كمقام المسيحِ بينَ اليهودِ
أنا في أمَّةٍ تَدَارَكها اللهُ بي ... غريبٌ كصالحٍ في ثَمودِ (٥)

---

(١) من (الرجز) للمتنبي . ينظر : ديوانه : ٢ / ٣٤١ .

(٢) من كتاب : (أبو الطيب المتنبي : حياته وشعره) : علي أدهم : مقالة بعنوان : هل كان المتنبي متديناً : ٩٠ ، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر ، بيروت .

(٣) شرح ديوان المتنبي : علي بن أحمد الواحدي : ٣١ ، المطبع الحيدري ، ١٢٧١ هـ .

(٤) ينظر : أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني : د. عمر محمد عمر باحاذق : ٣٣٢ ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ .

(٥) أبو الطيب المتنبي : حياته وشعره : عبدالرحمن صدقي : مقالة بعنوان : جنون العظمة في المتنبي : مرض نفسي : ٦٢ . والبيتان من (الخفيف) للمتنبي ينظر : ديوانه : ١ / ٣١٩ ــ ٣٢٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وليس في هذا تشبه بالأنبياء، ولا ادعاء أنه صنو الأنبياء، فهو لم يشبه نفسه بالمسيح ـــ عليه السلام ـــ وإنما شبه إقامته بين الحاقدين والحاسدين له بإقامة المسيح بين أشرار الناس اليهود، بجامع إقامة الخير بين شرار الناس، وهذا لا كفر فيه. وفي البيت الثاني يندب حظّه العاثر في كونه يعيش غريباً بين الناس، فهو عبقري فذّ يعيش بين الجهال وأنصافهم، ولا يسمع منهم إلا زعاف الأفاعي وسم الثعابين، وربما كان الجهال خيراً من أنصافهم، وشعوره بالغربة بين الأشرار شعور رجل منصف، ومن الظلم البيّن أن يقال فيه غير ذلك. وهو في هذا البيت يشبه غربته بين أمة جاهلة بغربة صالح ـــ عليه السلام ـــ بين قومه ثمود. ووجه الشبه غربة رجل مصلح ذكي أبيّ بين قوم كلهم جحود وغباء (١).

والحق أن أبا الطيب المتنبي كان أعجوبة الزمان، فلقد أكثر من قول الشعر، ورفع نفسه عن أهل عصره، معتزاً أشد الاعتزاز بشخصيته، والذي يظهر أن ما نُسب إليه كان افتراء عليه من قبل حاسديه، ولو صحَّ ما نُسب إليه فيُعتقد أنه كان في حداثة سنِّه، وما كان ذلك منه إلا غروراً رجع منه بعد قليل(٢).

وبعد، هذا ما ذكره العلماء عن معارضات القرآن، وقد تبيَّن لي بوضوح أن معارضة القرآن لم تقع ولن تقع ـــ بإذن الله تعالى ـــ وأن ما روي لنا من معارضات ـــ إن صحت ـــ فليس فيها من براعة النظم ولا من دقة المعنى شيء مطلقاً، وسيبقى كتاب الله معجزاً للبشر ما بقي الدهر، ومانعاً لهم أن يحاولوا الإتيان بشيء يقاربه، وصدق الله العظيم إذ قال:] , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? Z (٣).

(١) ينظر : أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني : ٣٣٢ ـــ ٣٣٣ .

(٢) ينظر : المتنبي : محمود شاكر : ٢١٢ ـــ ٢١٣ .

(٣) سورة الإسراء : آية : ٨٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المطلب الثالث: القول بالصَّرفة :

سلك العلماء في بيان وجوه إعجاز القرآن مسالك عديدة، واتجهوا في البحث عنها وجهات مختلفة، وقرَّر جمهورهم أنَّ وجه الإعجاز الصحيح في كتاب الله ـــ تبارك وتعالى ـــ يدور حول الإعجاز بنظمه، وفصاحة ألفاظه، وبلاغة معانيه.

هذا ما اتفق عليه أئمة أهل السنة، وقال به حذاق أهل النظر(١)، ولم ينكر هذا الوجه ـــ فيما أعلم ـــ إلا القلة منهم، والتي يوهم كلامها القول بالصرفة(٢).

المخالفون لأهل السنة:

ينبغي التنبيه على أنَّ من خالف أهل السنة فجاء في إعجاز القرآن بقول شاذ، هم فرق كثيرة، كبعض المعتزلة، وبعض الشيعة الإمامية، وبعض الفلاسفة، وعدد قليل من علماء أهل السنة ـــ يُوهم كلامهم ذلك ـــ وكان الذي شذَّ فيه هؤلاء هو قولهم بالصرفة.

هذا وسأبيّن ـــ إن شاء الله تعالى ـــ معنى الصرفة في اللغة والاصطلاح، ثم أوضح مصدر القول بها، وموقف العلماء منه في كتب دلائل النبوة، ثم أقف ـــ باختصار ـــ على أهمِّ من قال به من المعتزلة، والإمامية والرافضة.

---

(١) ينظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفى : ١ / ٢٤٧ ـــ ٢٤٨ . وينظر : المحرر الوجيز : ١ / ٥٩ ـــ ٦٠ .

(٢) ممن نُسب إليه القول بالصرفة من أهل السنة (أبو الحسن الأشعري) ، وقد ذكر ذلك القاضي عياض في الشفا ينظر : ١ / ١٧٩، وإن كنت أظن أن أبا الحسن قال ذلك عندما كان معتزلياً ، حيث أمضى كثيراً من عمره في الاعتزال ، ثم رجع عن ذلك ، وإذا ثبت ذلك القول عنه بعد رجوعه إلى السنة فإن الشيخ أجلُّ من أن يقول بالصرفة ، والله أعلم . كذلك ممن يفهم من كلامه القول بالصرفة (الإمام الماوردي) و (الحافظ البيهقي) وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(الصَّرفة) في اللغة والاصطلاح :

الصرفة لغة: على وزن فَعْلَــة ــ بفتح الفاء واللام وسكون العين ــ وتدور علــى ردّ الشيء عن وجهه، يقال: صرفه يصرفه صرفاً فانصرف، وصارف نفسه عــن الــشيء: صرفها عنه، قال تعالى:] q r Z (١) أي رجعوا من المكان الذي اســتمعوا منــه، وقيل: انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا، وقوله تعــالى: [t u v Z (٢) أي أضلهم الله مجازاة على فعلهم، وصرَّف الشيء أعمله في غير وجه كأنه يصرفه عن وجه إلى وجه، فتصريف الرياح: جعلها جنوباً وشمالاً، والصَّرْف: التقلب والحيلة، ومعناه أيــضاً: أن تصرف إنساناً عن وجه يريده إلى مَصْرِفٍ غير ذلك (٣).

وتعني الصرفــة في الاصطلاح:((صرف الهمم عن المعارضــة وإن كان مقــدوراً عليهــا))(٤) .

فكأن القوم الذين طالبهم الله ــ تعالى ــ بالإتيان بمثل القــرآن تحولــت هممهــم، وصُرفت عن معارضته بغير إرادتهم، بل رغماً عنهم، مع قدرتهم الذاتية على ذلك، أو أنهــم سُلبوا العلوم التي يعرفونها من أنفسهم، وتُعينهم على الإتيان بمثل القرآن.

فمعنى الصَّرفة ــ على هذا ــ أن الله تعالى، لم يُمَكِّن الناسَ من إنشــاء مثل هــذا القرآن مع قدرتهم على ذلك، وأن نظم القرآن غير معجز في ذاته، وإنما عجز القــوم عــن تأليف مثله؛ لأن الله ــ عز وجل ــ صرف قدرتهم عن هذا، فالإعجاز إذاً ــ عند القائلين بالصرفة ــ تأثير خارجيّ لا يرجع إلى ذات اللفظ القرآني (٥).

---

(١) سورة التوبة : آية : ١٢٧ .

(٢) سورة التوبة : آية : ١٢٧ .

(٣) ينظر : لسان العرب : ٨ / ٢٢٨ ــ ٢٢٩ .

(٤) بيان إعجاز القرآن : ٢٢ .

(٥) ينظر : إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء : ٩٣ ــ ٩٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد أثبت الإمام يحيى بن حمزة العلوي هذا المعنى، وذكر تفسيراتٍ ثلاثة للصَّرْفة لا تخرج عنها، ولحُسنها وقوتها فإني أذكرها؛ لما فيها من تكملة مهمة لمعنى الصرفة، فقد قال رحمه الله تعالى: ((واعلم أن قول أهل الصرفة يمكن أن يكون له تفسيراتٌ ثلاثة، لما فيه من الإجمال، وكثرة الاحتمال كما سنوضحه:

التفسير الأول: أن يريدوا بالصرفة أن الله ـــ تعالى ـــ سلبهم دواعيَهم إلى المعارضة مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التقريع بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية، والتكليف بالانقياد والخضوع ومخالفة الأهواء.

التفسير الثاني: أن يريدوا بالصرفة أن الله ـــ تعالى ـــ سلبهم العلوم التي لابدَّ منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه، ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين:

أحدهما: أن يقال إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار، لكن الله ـــ تعالى ـــ أزالها عن أفئدتهم، ومحاها عنهم.

وثانيهما: أن يقال إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم خلا أن الله ـــ تعالى ـــ صرف دواعيَهم عن تجديدها مخافة أن تحصل المعارضة.

التفسير الثالث: أن يراد بالصرفة أن الله ـــ تعالى ـــ منعهم بالإلجاء على جهة القَسْرِ عن المعارضة، مع كونهم قادرين، وسَلَب قُواهم عن ذلك، فلأجل هذا لم تحصل المعارضة.

وحاصل الأمر في هذه المقالة أنهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن، إلا أن الله ـــ تعالى ـــ منعهم بما ذكرناه)) (١).

(١) الطراز : ٣ / ٣٩١ ـــ ٣٩٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مصدر القول بالصرفة :

يُرجع كثير من الباحثين القول بالصرفة إلى أنه من التيارات الوافدة من الخارج، وأن بعض المشتغلين بالفلسفة من علماء الكلام وقفوا على أقوال البراهمة في كتابهم "الفيدا"، وهو يشتمل على مجموعة من الأشعار، ليس في كلام الناس ما يماثلها ـــ في زعمهم ـــ بل يقول خاصتهم : إن البشر يعجزون أن يأتوا بمثله (١)، وحكى محمد أبو زهرة ما أورده أبو الريحان البيروني (٢) في كتابه " ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " ما نصه: ((إن خاصتهم يقولون إن في مقدورهم أن يأتوا بأمثالها، ولكنهم ممنوعون من ذلك؛ احتراماً لها)) (٣)، والذي يظهر أن هذه الفكرة جاءت للمسلمين عندما ترجمت بعض الكتب الهندية في خلافة أبي جعفر المنصور، ومن جاء بعده من حكام بني العباس، فتلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار ويركنون إلى الاستغراب في أقوالهم، ودفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا ذلك القول، ويطبقوه على القرآن ـــ وإن كان لا ينطبق ـــ فقال قائلهم: إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه، بل كان لأن الله ـــ تعالى ـــ صرفهم عن أن يأتوا بمثله (٤).

---

(١) ينظر : إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء : ٩٣ ـــ ٩٤ .

(٢) هو أحمد بن محمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي ، كان مكباً على تحصيل العلوم ، ولا يكاد يفارق القلم يده ، توفي سنة ٤٣٠ هـ . ينظر : الوافي بالوفيات : ٨ / ١٣٨ ـــ ١٤٢ .

(٣) المعجزة الكبرى " القرآن " : ٧٦ .

(٤) ينظر : المرجع السابق : ٧٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

موقف العلماء في كتب دلائل النبوة من القول بالصرفة:

لم يُصرِّح أحد من العلماء في كتب دلائل النبوة بالقول بالصرفة غير الماوردي، الذي قد يفهم من كلامه نسبة عجز العرب عن معارضة القرآن البيانية إلى الصرفة التي صُرفوا بها، فقد فصَّل في كتابه " أعلام النبوة " أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، فذكر عشرين وجهاً كان آخرها القول بالصرفة حيث قال: ((الوجه العشرون من إعجازه: الصرفة عن معارضته، واختَلف من قال بها: هل صُرفوا عن القدرة على معارضته، أو صُرفوا عن معارضته مع دخولِه في مقدورهم ؟ على قولين:

أحدهما: أنهم صُرفوا عن القدرة، ولو قدروا لعارضوه.

والقول الثاني: أنهم صُرفوا عن المعارضة مع [دخولِها] (١) في مقدورهم، والصرفة إعجاز على القولين معاً في قول من نفاها وأثبتها، فخرقها للعادة فيما دخل في القدرة.

فإن قيل: فإن عجزوا عن معارضته بمثله لم يعجزوا عن معارضته بما تقاربَه، وإن نقص عن رتبته، والمعجز ما لم يمكن مقاربتُه كما لا يمكن مماثلتُه، فعنه جوابان:

أحدهما: أن مقاربته تكون بما في مثل أسلوبه إذا قَصُر عن كماله، والأسلوب ممتنعٌ، فبطلت المقاربةُ وثبت الإعجاز.

والثاني: أن المقاربةَ تمنع من المماثلَةِ، والتحدي إنما كان بالمثل دون المقاربة)) (٢).

والقارئ للنص السابق يجد أن الماوردي لم يوضح ما الذي ارتضاه من ذينك المفهومين للصرفة: أهي عجز عن المعارضة عند التخلية ؟ أم صرفة عن المعارضة مع القدرة عليها لو خلي بينهم وبين القرآن الكريم ؟

والذي يظهر لي ــ والله أعلم ــ أن الماوردي كان يريد عجز الأمم عن المعارضة إذا خُلي بينهم وبين كتاب الله تعالى؛ بدليل الوجه التاسع عشر، والذي بيَّن فيه الماوردي

---

(١) جاء في الأصل [دخوله] ولعل الصواب[دخولها] .

(٢) أعلام النبوة : ١٥٢ ــ ١٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عدم قدرة الأمم على معارضة كتاب الله ـــ تبارك وتعالى ـــ لما تحداهم الله أن يأتوا بسورة مثله. يقول الماوردي: ((والوجه التاسع عشر من إعجازه: عجز الأمم عن معارضته، وقد تحداهم أن يأتوا بسورة مثله، فلم تخرجهم أنفة التحدي، وصبروا على نغص العجز مع شدة حميتهم وقوة أنفتهم...)) (١).

ويرى أحد الباحثين (٢) بأن الضمير في قول الماوردي: ((والصرفة إعجاز على القولين معاً في قول من نفاها وأثبتها)) راجع إلى القدرة، وليس إلى الصرفة، فإن إرجاعه إلى الصرفة يلزمه التناقض والإحالة، والماوردي أجلّ من أن يقع في هذا.

والمعنى على أن الضمير في (نفاها وأثبتها) أن الصرفة إعجاز عند من زعم القدرة على المعارضة، ولكنه لم يعارض لمنعه مما يستطيع بقهر إلهي، على هذا يكون الإعجاز في المنع والصرف لا في القرآن الكريم. وقوله ((فخرقها للعادة فيما دخل في القدرة)) راجع إلى من قالوا بالقدرة على المعارضة ولكنهم منعوا بقهر.

أما من نفى القدرة على المعارضة فإن الصرفة تكون عنده إعجازاً قهرياً مؤكداً العجز الذاتي فيمن صرف قهراً فيكون قد توافد على العالمين قهران: قهر ذاتي بعد اقتدارهم على المعارضة، وقهر قدري خارجي، فلا فكاك لأحد من العالمين من أحدهما فكيف بهما معا.

والماوردي لا يرى تعارضاً من الجمع بين الوجوه العشرين في الإعجاز، فإذا ما كان كل واحد منها مبيناً وجه الإعجاز، فإن اجتماعها يزيد الأمر تأكيداً وتأطيدا (٣).

((فإذا ثبت إعجاز القرآن من هذه الوجوه كلها صحَّ أن يكون كل واحد منها معجزاً، فإذا جَمَع القرآنُ سائرها كان إعجازه أقهر، وحجاجه أظهر، وصار كفلق البحر،

---

(١) أعلام النبوة : ١٤٩ ـــ ١٥٠ .

(٢) هو د. محمود توفيق محمد سعد .

(٣) ينظر : تثوير القول بالصرفة : دراسة في إعجاز القرآن الكريم : د. محمود توفيق محمد سعد : ٩٢ ، مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، عدد ٢١ ، ٢٠٠٣ م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإحياء الموتى؛ لأن مدار الحجة في المعجزة إيجاد ما لا يستطيع الخلق مثله، سواء كان جسماً مخترعاً أو جرماً مُبتدعاً، أو عَرَضاً متوَهَّماً)) (١).

هذا بالنسبة لمن صرَّح بهذا القول في كتب دلائل النبوة، أما بقية العلماء فهم قسمان:

١ ــ قسم صرَّح بهذا القول في غير كتب دلائل النبوة، فقد نسب الجاحظ والحافظ البيهقي عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم إلى الصرفة.

أما الجاحظ فقد أُثر عنه القول بالصرفة(٢)، مع إقراره بالإعجاز البلاغي للقرآن واعترافه به، وقد ذكر الجاحظ كلاماً كثيراً يفيد عجز العرب عن معارضة القرآن لقوة بلاغته ونظمه وليس للصرفة(٣).

ومما سبق يتبين أن الجاحظ كان يرى أن مناط الإعجاز بالنظم وبالصرفة معاً، والدليل على ذلك، أنه جمع بين الأمرين في مكان واحد، فبعد أن انتهى من تقرير مذهب الصرفة قال:((وفي كتابنا المترل الذي يدلنا على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد))(٤).

وأرى أن الجاحظ قد وقع في تناقض واضطراب، فقد جمع في كلامه بين متناقضين؛ إذ كيف يجمع بين الصرفة التي من لوازمها القدرة على معارضة القرآن، وبين إعجاز القرآن في بلاغته ونظمه مما لا يمكن معه المعارضة.

ومما يؤيد وقوع هذا التناقض تساؤل أحد الباحثين متعجباً من اجتماع النقيضين: الصرفة، والإعجاز بالبلاغة والنظم، يقول الأستاذ نعيم الحمصي: ((وذكر للجاحظ قولان في الإعجاز: القول بالصرفة، والقول بإعجاز الأسلوب، فهل قال بالأول حين كان لا يزال متأثراً بآراء أستاذه النظَّام، وبالثاني حين استقلَّ بنفسه، أو إنه جمع بين الرأيين معاً ؟ لا

---

(١) أعلام النبوة : ١٥٣ .

(٢) ينظر : الحيوان : ٤ / ٨٩ ، ٦ / ٢٦٩ .

(٣) ينظر :حجج النبوة : ٢٢٩ ، ٢٥١ .

(٤) الحيوان : ٤ / ٩٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ندري ! فإنه يذكر الرأيين في كتابه " الحيوان " متتاليين تقريباً... وأنا أستبعد أن يكون الجاحظ قد قال بالرأيين معاً في وقت واحد لما نعرفه عنه من قوة التفكير ووضوح الحجة، فإنَّ الرأيين متناقضان)) (١).

وقال الأستاذ عبدالكريم الخطيب عن قول الجاحظ بهذين القولين معاً: ((ولا شك أن هذه من إحدى مغالطات الجاحظ وخِلابته (٢)، بما أوتي من قوة الحجة وسطوة البيان. ولو أراد الجاحظ أن ينقض هذا الرأي الذي أقامه على القول بالصرفة، لنقضه بغمزة من قلمه، دون أن يكدّ ذهنه، أو يطلق العنان لقلمه !)) (٣).

وقال مصطفى الرافعي: ((أما الجاحظ فإن رأيه في الإعجاز كرأي أهل العربية، وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يُعهد مثلها، وله في ذلك أقوال نشير إلى بعضها في موضعه، غير أن الرجل كثير الاضطراب... ولذلك لم يسلم هو أيضاً من القول بالصرفة، وإن كان قد أخفاها وأومأ إليها عن عُرض)) (٤). غير أن الرافعي اعتذر للجاحظ بقوله بالصرفة، يقول الرافعي: ((وقد يكون استرسل بهذه العبارة؛ لما في نفسه من أثر إسناده، وهو شيء يترل على حكم الملابسة، ويعتري أكثر الناس، إلا من تنبه له أو نُبه عليه، أو هو يكون ناقلاً، ولا ندري))(٥).

أما عن سبب جمع الجاحظ بين هذين النقيضين، فقد يكون مغالطة منه كما ذكر الخطيب، وقد يكون نصرة لمذهبه الاعتزالي، ثم إنه لا يُستغرب من الجاحظ ذكر الشيء وضده، فهذا معروف عنه!.

---

(١) فكرة إعجاز القرآن : ٥٦ .

(٢) الخِلابة : المخادعة ، وقيل : الخديعة باللسان . ينظر : لسان العرب : ٥ / ١١٩ (خلب) .

(٣) الإعجاز في دراسات السابقين : ٣٦٩ .

(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١٤٤ .

(٥) المصدر السابق : ١٤٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وممن يُستغرب منه القول بالصرفة ــ في غير كتب دلائل النبوة ــ الحافظ البيهقيّ، فقد ذكر في أحد المواضع في كتابه " الاعتقاد " كلاماً يوحي بقوله بالصرفة(١)، ثم نَصر كلامه وأيَّده في موضع آخر(٢) مع العلم أنني لم أجد أحدا نسب هذا القول إلى البيهقي، وبالتالي لا يعُلم مذهبه في هذه المسألة، فيُحمل أمره فيها على إجماع أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، وهو بطلان القول بأن إعجاز القرآن راجع إلى الصرفة.

هذا وينبغي التنبيه إلى أن البيهقي يرى أن إعجاز القرآن راجع إلى بلاغته ونظمه(٣)، فيكون بهذا قد ذهب مذهب الجاحظ من قبله، وهو الذي رأيت فيه اضطراباً وتناقضاً بيّناً أوضحته في موضعه (٤).

٢ ــ أما القسم الثاني من العلماء فقد صرَّحوا ببطلان القول بالصرفة، سواء في كتب دلائل النبوة أو غيرها من كتبهم.

فهذا القاضي الباقلاني يتحدث عن الصرفة قائلاً: ((فإن قيل: فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات ؟ وهلاّ قلتم: إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة بوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادراً، وإنما يصرفه الله عنه ضرباً من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرباً من المنع، أو تقصر دواعيه إليه دونه، مع قدرته عليه، ليتكامل ما أراده الله من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة؛ لأن من قدر على نظم كلمتين

(١) ينظر : الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث : أحمد بن الحسين البيهقي : ٢٥٩ ، قدَّم له وخرَّج أحاديثه وعلَّق حواشيه : محمد عصام الكاتب ، دار الآفاق الجديدة ، ط ١ ، ١٤٠١هـ .

(٢) ينظر : المصدر السابق : ٢٦٦ .

(٣) المصدر السابق : ٢٥٩ ، وينظر : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : ١ / ١٦ ــ ١٧ .

(٤) ينظر : ص ١٤٢ ــ ١٤٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بديعتين، لم يعجز عن نظم مثلها، وإذا قدر على ذلك قدر على ضمّ الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة، حتى يتكامل قدر الآية والسورة)) (١).

ثمَّ يرد القاضي الباقلاني عليه بردٍّ يسير يتناسب ومنطق القائل بهذه الحجة، حيث يقول:((فالجواب: أنه لو صحَّ ذلك لصح لكل من أمكنه نظم ربع بيت، أو مصراع من بيت، أن ينظم القصائد ويقول الأشعار، وصحَّ لكل ناطق ــ قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة ــ نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة، ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن))(٢).

ولا يكتفي القاضي الباقلاني بهذا المثال بردّ القول بالصرفة، فيأتي بحجة ثانية لا تخلو من فطنة، حيث يتساءل الباقلاني عن سبب كل هذه البلاغة والفصاحة في النظم القرآني طالما أنهم مصروفون عن الإتيان بمثله؟ يقول الباقلاني:((على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حطّ من رتبة البلاغة فيه، ومنع من مقدار الفصاحة في نظمه، كان أبلغ في الأعجوبة، إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، ومنعوا من معارضته، وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع، وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب)) (٣).

ثم يأتي بحجة ثالثة منبعثة من إيمانه من أن أهل الجاهلية أقدر على معارضة القرآن ــ بسبب فصاحتهم وبلاغتهم ــ من أهل عصره القائلين بالصرفة، فيقول:((على أنه لو كانوا صُرفوا على ما ادعاه، لم يكن مَنْ قَبْلَهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف؛ لأنهم لم يتحدّوا إليه، و لم تلزمهم حجته، فلما لم يوجد في كلام مَنْ قَبله مثله، علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان)) (٤).

---

(١) إعجاز القرآن : ٢٩ .

(٢) المصدر السابق : ٢٩ .

(٣) المصدر السابق : ٢٩ .

(٤) المصدر السابق : ٣٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم يأتي بحجة رابعة يقول فيها:((ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة ـــ وإنما مَنَع منها الصرفة ـــ لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه)) (١).

والحقيقة أنني عجبت من سرد الباقلاني لهذه الحجج العقلية فقط، والتي يردّ فيها على القائلين بالصرفة، وإغفاله الدليل النقلي الذي اعتمده أغلب العلماء المبطلين القول بالصرفة (٢) وهو آية التحدي في سورة الإسراء: قال الله تعالى:] , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? Z(٣)، ولعل الباقلاني اكتفى بتلك الحجج العقلية مجاراة لدعوى القائل، وإلا فإنه لا يخفى على مثله الرد بما ورد في الآية الكريمة.

وممن ذهب إلى بطلان القول بالصرفة القاضي عبدالجبار، واحتجاجه لدفع مذهب الصرفة سبقه إليه معاصره الخطابي فهو يتبع المنهج نفسه، ويسير في الاتجاه عينه(٤)، كما استفاد القاضي عبدالجبار من الباقلاني في هذه القضية، فقد عبَّر عن الحجة الثانية التي ساقها الباقلاني بقوله: إن الصرفة توجب أن يكون الكلام المتوسط أو الركيك والكلام الفصيح ـــ في الإعجاز ـــ بمنزلة واحدة (٥)، كما عبَّر عن الحجة الرابعة التي ساقها الباقلاني بقوله: إن الله لو كان منعهم من الإتيان بمثل القرآن لكان المعجز ما حدث لهم من المنع، وكان التحدي يجب أن يقع بذلك المنع لا بالقرآن، حتى لو لم ينزل الله القرآن،

---

(١) المصدر السابق : ٣٠ .

(٢) ينظر : الخطابي : إعجاز القرآن : ٢٣ ، والقاضي عبدالجبار : المغني في أبواب التوحيد والعدل : ١٦ / ٣٢٣ ، والجرجاني : الرسالة الشافية : ١٤٨ ، والزركشي : البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٩٤ ، وغيرهم .

(٣) سورة الإسراء : آية : ٨٨ .

(٤) ينظر : بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار وأثره في الدراسات البلاغية : ٤٨٤ .

(٥) ينظر : المغني في أبواب التوحيد والعدل : ١٦ / ٣٢١ ، ٣٢٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجعل دليل نبوة محمد ﷺ امتناع الكلام عليهم، على الوجه الذي اعتادوه، لما اختلف وجه الإعجاز (١).

ويجري القاضي عبدالجبار حواراً بين من يؤمن بالصرفة ومن يرفضها فيقول: ((فأما قول من يقول: إنه ــ تعالى ــ صرف هممهم ودواعيهم عن المعارضة، فلذلك صار القرآن معجزاً، فليس يخلو من أن يريد: أنهم لو لم تنصرف دواعيهم كان يمكنهم أن يأتوا بمثله، أو يقول: كان لا يمكنهم ذلك.

فإن قال: إن دواعيهم لو توفرت لكان ذلك لا يمكنهم، فهو الذي بيناه من حال القرآن.

وإن قال: إن دواعيهم لو توفرت لأمكنهم أن يأتوا بمثله، لكنهم صرفوا عن الدواعي، وصرفت هممهم عن ذلك، واشتغلوا بالمحاربة.

قيل له: ومن أين أنهم بهذه الصفة، دون أن يكونوا عدلوا إلى المحاربة، مع توفر الدواعي إلى مثله، لو كان في مقدورهم، لكنهم علموا أن ذلك لا يواتيهم، وضاق بهم ذرعهم، فعدلوا إلى الطريقة الممكنة لهم.

فإن قال: لأنه لو كانت دواعيهم متوفرة لأتوا بمثله.

قيل له: إنما كان يجب ذلك لو أمكنهم مثله في قدر فصاحته.

فإن قال: لا بد من أن يمكنهم ذلك؛ لأن طريقة الكلام لا تختلف، فهذا يوجب أن يعتمد في قوله بالصرفة، على أن لا مزية للقرآن، ويعتمد في أن لا مزية على قوله بالصرفة، وهذا يوجب أن لا نعلم صحة ما قاله.

فإن قال: إذا جاز ما قلته كجواز ما قلتموه، فمن أين لكم أنهم عدلوا والدواعي إلى المعارضة قائمة ؟

قيل له: لأن هذه الطريقة تقتضيها حالهم، التي كانوا عليها، فلم ندّع إلى الأمر المعقول من العادة، وأنت قد ادعيت الخروج عن العادة، بقولك: إنهم صرفوا عن الدواعي إلى المعارضة، وهذا مما لا بد فيه من دليل)) (٢).

---

(١) ينظر : المغني في أبواب التوحيد والعدل : ١٦ / ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل : ١٦ / ٣٢٣ ــ ٣٢٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وممن صرَّح ببطلان القول بالصرفة في كتب دلائل النبوة: الزيدي، فقد عرض رأيه في هذه المسألة بقوله: ((فأما قول من يقول: إن الإعجاز في الصرف في جملة القرآن، فهو عندي بعيد جداً؛ لأن الصرف عن الشيء يمكن أن يُدَّعى إذا علم أنه مقدورٌ عليه، غير متعذر وجود مثله، ممن ادعى أنه مصروف عنه. وليس هاهنا ما يبين أن الإتيان بمثل القرآن كان ممكناً للعرب غير متعذر عليهم، بل قد ذهبنا على خلاف ذلك، فبان سقوط من ادعاه. وأيضاً القول بذلك يؤدي إلى أن يعرف الفرق بين ما يتعذر على الناس، وبين ما لا يتعذر؛ لأنه لو جاز لهم أن يقولوا: إن العرب صرفوا عن الإتيان بمثل القرآن، وإن لم يثبت تأتيه منهم، لجاز أن يقال: إن الناس صرفوا عن فعل الأجسام والألوان والحياة والقدرة، وإن لم يثبت أن شيئاً منه متأت منهم، وهذا واضح السقوط وكذلك القول في الصرف عن القرآن.

وأما سؤال من يسأل من أهل هذه المقالة، فيقول: إذا كان الإنسان قادراً على أن يقول: " الحمد لله " ويتأتى منه أن يقول: " رب العالمين " وغير متعذر عليه أن يأتي على جميع القرآن، فما الذي يمنعه عن الإتيان بمثله ؟ ومتى يحصل التعذر ؟ أعند أول كلمة ؟ أو عند الثانية ؟ أو الثالثة ؟ أو ما بعدها ؟ وذلك مما لا يصح، فثبت أن الإعجاز هو الصرف، فإنه من ركيك السؤال؛ لأنا قد بينا فيما تقدم: أن إنشاء الخطبة أو الشعر أو الرسالة أو نظم القرآن في أعلى طبقات الفصاحة يحتاج إلى علم زائد على العلم بالنظم والفصاحة، وذلك العلم الزائد هو الذي يُعبر عنه بالطبع، فلا وجه لهذا السؤال.

على أنا نوضح سقوطه بأن نقول لهذا السائل: أليس قد علمت أن كل أحد ممن يعرف لغة العرب يمكنه أن يقول: " فإنك " ويمكنه أن يقول: " كالليل " ويمكنه أن يقول: " الذي " ولا يتعذر عليه أن يقول: " هو مدركي " ويتأتى منه أن يقول: " وإن خلت " ويتأتى منه أن يقول: " أن المنتأى " ولا يتعذر عليه أن يقول: " عنك واسع ".

أفترى أن كل من يعرف لغة العرب يمكنه أن يأتي بمثل قول النابغة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع (١)

فيقال له: متى يحصل المتعذر عليه عند أول لفظة ؟ أو عند الثانية ؟ أو عند الثالثة ؟ أو بعدها ؟ ثم يلزم ذلك في جميع أشعار العرب وخطبهم، وهذا فساد أظهر من أن يحتاج إلى الإطناب، ولا بد لهذا السائل من الرجوع إلى ما تقدم من جوابنا... ويدل على ما قلناه أيضاً من كون القرآن معجزاً في نفسه: ما حكى الله ــ عز وجل ــ حيث يقول:] . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ Z(٢) وما ذُكر من اجتماع أبي جهل، وعتبة بن ربيعة، في ملأ من قريش يتعجبون من القرآن حين قالوا: نحتاج إلى رجل يعرف الشعر، ويعرف كلام الكهنة، فقال عتبة بن ربيعة: أنا لذلك، ومضى إلى رسول الله ﷺ فتلا عليه قول الله عز وجل:] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ Z (٣) حتى مرَّ في السورة وانتهى إلى قوله:] 7 8 9 : ; < = > ? @ Z (٤) فقام مرعوباً مدهوشاً، وقال: سمعت الشعر، وسمعت كلام الكهنة، وما هذا شيئا من ذلك، وإلى سائر ما ذُكر من غيرهم في أمر القرآن، فلو كان القرآن أمراً لا يتعذر مثله على العرب، وإنما صُرفوا كان لا يتعجب منه المتعجب، ولا يحار فيه الحائر، وإنما كان يكون التعجب والحيرة في صرفهم . ألا ترى أن نبياً لو قال معجزتي: أن أكلمكم اليوم إلى المساء بما تكرهون، فلا يمكن أحدا منكم أن يجيبني؛ لأنكم تصرفون عنه، كان الإعجاز في صرفهم هو الذي يكون أعجوبة . وقد يحار من يحار دون مخاطبته المعهودة لهم، كذلك يجب أن يكون حال القرآن والصرف على أوضاعهم لو كانت صحيحة، وفي جري الأحوال على خلاف ذلك دلالة على فساد قولهم .

---

(١) البيت من (الطويل) ، ديوان النابغة الذبياني : ٣٨، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٣٩٧ هـ .

(٢) سورة المدثر : آية : ٢١ ــ ٢٤ .

(٣) سورة فصلت : آية : ١ ــ ٢ .

(٤) سورة فصلت : آية : ١٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأما السور القصار، فليس يبعد عندي أن يقال: إنهم صُرفوا عن الإتيان بمثلها؛ إذ ليس يظهر لنا في نظمها وفصاحتها ما يمكن أن نقول: إن الإعجاز يعلق فيه، وهذا فيه نظر، والله أسأل حسن التوفيق)) (١) .

وبهذا يتبين أن الزيدي كان ينفي القول بالصرفة في جملة القرآن، غير أنه شك في إمكانية القول به في قصار السور، ولعل من جاء بعده من العلماء استفادوا من رأيه هذا، فأخذوا يُعلّلون له، فابن كثير مال إلى هذا الرأي، فرأى أن الصرفة صالحة على سبيل التنزّل والمجادلة، والمنافحة عن الحق، وذلك حين قال: ((وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة، وقول المعتزلة في الصرفة، فقال: إن كان هذا القرآن معجزاً في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا في قواهم معارضته، فقد حصل المدعى وهو المطلوب، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله و لم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له، كان ذلك دليلاً على أنه من عند الله، لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية؛ لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته ــ كما قررنا ــ إلا أنها تصلح على سبيل التنزّل والمجادلة، والمنافحة عن الحق، وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر، وإنا أعطيناك الكوثر)) (٢) .

تلك كانت آراء العلماء في كتب دلائل النبوة حول هذه المسألة، وبهذا يكونون قد أسهموا بشكل واضح في الردّ على أصحاب هذا المذهب في مصنفاتهم في كتب دلائل النبوة، أو الإعجاز، كما حاولوا سدَّ كل سبيل من السبل التي يمكن أن يتوهم أن القول بالصرفة مما يمكن أن يكون وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم .

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٩٣ ــ ٩٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ١ / ٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القائلون بالصرفة من المعتزلة والإمامية والرافضة :

أرى أنه من تمام الفائدة الإشارة بشكل موجز إلى بعض الفرق التي ذهبت إلى القول بالصرفة، فقد تكلم عدد من أئمة الاعتزال والرافضة في إعجاز القرآن، ونسبوا عجز العرب عن معارضة القرآن إلى الصرفة التي صُرفوا بها، ومن أبرز من تكلم في الصرفة منهم:

أ ــ القائلون بالصرفة من المعتزلة (١) :

١ ــ إبراهيم النظام:

وهو أول من جاهر بالقول بالصرفة ، وأعلنه ودعا إليه، ولاحى عنه كأنه مسألة من مسائل علم الكلام (٢)، يقول النظام: ((الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار بالغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم)) (٣) .

٢ ــ عيسى بن صُبيح المرداز البصري (٤):

فقد تابع النظام في رأيه، وإن لم يُصرّح به، فقد زعم أن الناس قادرون على الإتيان بمثل القرآن فصاحة ونظما وبلاغة، وبما هو أفصح منه (٥) .

فهو وإن لم يُصرِّح بلفظ الصرفة، إلا أن تلميحه أقبح من تصريحه، وقد أتيت بإشارته هذه هنا؛ لاحتمال كلامه لهذا المذهب، والله أعلم .

---

(١) بدأت بهم لأنهم أول من أسس هذا القول .

(٢) ينظر : المعجزة الكبرى " القرآن " : ٧٨ .

(٣) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة : عبدالله بن أحمد البلخي : ٧٠ .

(٤) هو أبو موسى عيسى بن صبيح البصري ، من كبار المعتزلة ، ومن أرباب التصانيف الغزيرة ، مات سنة ٢٢٦ هـ . ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٠ / ٥٤٨ .

(٥) ينظر : الملل والنحل : محمد بن عبدالكريم الشهرستاني : ١ / ٦٧ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ ، والفرق بين الفرق : ١٥١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣، ٤ ــ هشام الفوطي (١)، وعبَّاد بن سليمان (٢):

وقد نصَّ الأشعري(٣) والباقلاني(٤) أن هذين لا يذهبان إلى القول بأن القرآن معجز بنظمه وتأليفه، بل يريانِ بأن القرآن يمكن معارضته، وإنما صُرفوا عنه ضرباً من الصرف.

٥ ــ الجاحظ:

وقد تطرقت لمناقشة رأيه في هذه المسألة، وذلك عند الحديث عن موقف العلماء في كتب دلائل النبوة من الصرفة (٥) .

٦ ــ الرُّماني:

وهو معتزلي متشيع، وقد قام بإعداد رسالة في إعجاز القرآن الكريم، كشف فيها عن أوجه البلاغة التي لا تُضاهى، غير أنه لما ذكر وجوه الإعجاز عدَّ منها (الصرفة)(٦).

ولعل الرماني قد مال إلى رأي الجاحظ في هذه المسألة فأخذ به، وذلك من خلال جمعه بين الإعجاز البلاغي والقول بالصرفة، وإن كنت أُرجّح بأن الرماني قال بالصرفة نصرة لمذهبه الاعتزالي فقط، مع اقتناعه التام بأن إعجاز القرآن مرتبط ببلاغته ونظمه،

---

(١) هو هشام بن عمرو ، أبو محمد الفُوَطي المعتزلي الكوفي ، مولى بني شيبان ، صاحب ذكاء وجدال وبدعة ووبال. ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٠ / ٥٤٧ .

(٢) هو أبو سهل عباد بن سليمان البصري المعتزلي ، من أصحاب هشام الفوطي ، وهو ممن يخالف المعتزلة في أشياء اخترعها لنفسه ، وكان الجبائي يصفه بالحذق في الكلام . ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٠ / ٥٥١ ــ ٥٥٢ .

(٣) ينظر : مقالات الإسلاميين : ٢٢٥ .

(٤) ينظر : إعجاز القرآن : ٦٥ .

(٥) ينظر : ص : ١٤٢ ــ ١٤٣ .

(٦) ينظر : النكت في إعجاز القرآن : ١٠٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والدليل على هذا، طرقه لوجوه الإعجاز كان طَرْقاً خفيفاً عدا الوجه البلاغي، فقد أسهب فيه، مما يدل على اهتمامه بهذا الجانب، فكأنه أساس الإعجاز القرآني عنده.

ب ــ القائلون بالصرفة من الإمامية والرافضة:

١ ــ الشريف المرتضى (١)، فقد نُقل أن له كتاباً في الصرفة(٢) .

٢ ــ ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) فهو من المجاهرين بأن القرآن غير معجز ببلاغته ونظمه، وقد صرَّح بالقول بالصرفة(٣). وما ذكره ابن سنان في كتابه كلام جريء، ومزلق خطير وقع فيه، ((ولم أر واحداً ممن احتفل بدراسة الفصاحة وأسرار الكلام، أنكر الإعجاز البلاغي، ورضي مذهب الصرفة إلا ابن سنان، وهذا الرأي عنده يُعدّ غميزةً في أساس فقهه في هذا الباب؛ لأنه ليس من الخطأ الذي يصدر عن غفلة أو عدم استيعاب الآراء في المسألة، وإنما هو قادح في الإحساس والطبع، وفرق بين أبي إسحاق النظام وهو في حومة الصراع يرمي بما يحسم الشبهة، وبين ابن سنان وهو يكتب في أسرار البيان))(٤).

---

(١) هو علي بن حسين بن موسى العلوي الحسيني ، من المتبحرين في الكلام والاعتزال والأدب والشعر ، لكنه إمامي جلد ، توفي سنة ٤٣٦ هـ . ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٧ / ٥٨٨ .

(٢) وقد ذكره صفي الدين الحلّي ضمن مصادره وسماه(الصرفة)، وأكّد محقق غرر الفوائد أن (الصرفة) هو نفسه كتاب(الموضح عن وجه إعجاز القرآن) للشريف المرتضى. ينظر : شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع : صفي الدين الحلي : ٣٤٤ ، تحقيق : د. نسيب نشاوي ، دار صادر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٢هـ ، وغرر الفوائد ودُرر القلائد (أمالي المرتضى) : للشريف المرتضى : ١ / ١٧ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٨٧هـ ، واختلاف عنوان الكتاب في المؤلفات البلاغية : أ.د. محمد بن علي الصامل : ١٩ ، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٨هـ. وممن نسب القول بالصرفة للشريف المرتضى : يحيى العلوي في " الطراز " : ٣ / ٣٩١ ، والآلوسي في " روح المعاني " : ١ / ٣٩ ، وابن عاشور في " التحرير والتنوير " : ١ / ٣٤١ .

(٣) ينظر : سر الفصاحة : ٨٩ ، ٢١٧ .

(٤) الإعجاز البلاغي : دراسة تحليلية لتراث أهل العلم : ٣٧٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الرابع
التفاضل بين الآيات في البلاغة

مدخــل:

ورد في القرآن الكريم (البيان) بمعنى الظهور والإيضاح، فقال تعــالى: [G H I J K L M N O P Q Z (١)، فالبيان ما تميــز بــه الإنسان من سائر الحيوان، وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير (٢).

وينشأ التفاوت في البيان من التفاوت في الأسلوب وقدرة التعبير علــى التــأثير في نفوس السامعين، وقد ورد بهــذا المعنى في قول النبي الكريم محمــد ﷺ (إن مــن البيــان لسحرا) (٣)، ((ومعناه أن الرجل يكون عليه الحق، وهو أقوم بحجته من خصمه، فيقلــب الحق ببيانه إلى نفسه)) (٤).

هذا وقد ورد وصف القرآن الكريم بأنه كتاب مبين؛ وذلك لإبانته ما كان خافيــاً عن الناس من الحق، أو لأنه ظاهر الإعجاز في البيان (٥).

وجاءت الصلة الوثيقة بين الإعجاز بالبيان وعربية القرآن، لتؤكد إحساس العــرب بمفارقة البيان العربي لبيانهم، وذلك في قوله تعــالى: [r t u v w x y z { | } ~ ﴿٢﴾ Z (٦)، فالكتاب المبين يراد به تلك الآيــات الــتي نزلت في هذه السورة ــ وغيرها من السور ــ الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتــهم،

---

(١) سورة الرحمن : آية : ١ ــ ٤ .

(٢) ينظر : الكشاف : ٦ / ٥ ــ ٦ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب النكاح : باب الخُطبة : ٥ / ١٩٧٦ .

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر : أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري : ١ / ١٧٤ ، تحقيق : طــاهر أحمــد الزاوي ، ومحمود محمد الطناحي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٩٩ هــ .

(٥) ينظر : الكشاف : ٢ / ٢١٨ .

(٦) سورة يوسف : آية : ١ ــ ٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر، أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم (١)، فالبيان هنا ((صفة الإعجاز القرآني للعرب وقد سمعوه، وهو من لغتهم، وعلى أساليب كلامهم، ولكنهم عرفوا فيه مباينة بيانه لبيانهم؛ لأنه من الله سبحانه)) (٢).

وقد اتخذ العلماء منحى التفاوت في البيان؛ ليكشفوا به عن وجه إعجاز القرآن، فأثبتوا التفاوت في أصل قدرات البشر على البيان، مستوحين ذلك من فضيلة تعليم الله ــ سبحانه ــ الإنسان البيان، ثم اتخذوا ذلك لتوضيح المفارقة بين بيان القرآن وبيان الناس، قال الإمام الطبري: ((إن من أعظم نعم الله ــ تعالى ذكره ــ على عباده، وجسيم مِنَّته على خلقه، ما منحهم من فَضْل البيان الذي به عن ضمائر صُدورهم يُبينون ... ثم جعلهم، جلّ ذكره ــ فيما منحهم من ذلك ــ طبقات، ورفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ: فبَيْنَ خطيب مسْهِب، وذَلِقِ اللسان مُهذب، ومعجم عن نفسه لا يُبين وَعيٍّ عن ضمير قلبه لا يعبر. وجعل أعلاهم فيه رتبة، وأرفعهم فيه درجةً، أبلغَهم فيما أراد به بلاغًا، وأبينَهم عن نفسه به بياناً. ثم عرّفهم في تنزيله ومحكم آيِ كتابه فضلَ ما حباهم به من البيان، على من فضّلهم به عليه من ذى البَكَم والمُستَعْجِم اللسان ... ولا شك أن أعلى منازل البيان درجة، وأسنى مراتبه مرتبة، أبلغُه في حاجة المُبين عن نفسه، وأبينُه عن مراد قائله، وأقربُه من فهم سامعه. فإن تجاوز ذلك المقدار، وارتفع عن وُسْع الأنام، وعجز عن أن يأتي بمثله جميعُ العباد، كان حجةً وعَلَمًا لرسل الواحد القهار ... فإذا كان تفاضل مراتب البيان، وتبايُن منازل درجات الكلام، بما وصفنا وكان الله ــ تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ــ أحكمَ الحكماء، وأحلمَ الحلماء، كان معلوماً أن أبينَ البيان بيانُه، وأفضلَ الكلام كلامه، وأن قدرَ فضْل بيانه ــ جلّ ذكره ــ على بيان جميع خلقه، كفضله على جميع عباده)) (٣).

---

(١) ينظر : الكشاف : ٣ / ٢٥٠ .

(٢) أبحاث في بلاغة القرآن الكريم : محمد كريم الكواز : ٤٥، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط ١ ، ٢٠٠٦ .

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن : محمد بن جرير الطبري : ١ / ٨ ــ ١١ ، تحقيق : محمد أحمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعد أن اعتمد العلماء على منحى التفاوت، اتضح الطريق أمامهم ليدخلوا إلى الإعجاز، فجعلوا ذلك في خدمة العقيدة الإسلامية، وآياتها المعجزة (١).

وقبل البدء في تناول القضية، لابد من الإشارة إلى أن المراد بالتفاوت البلاغي في القرآن، هو ما كان بعضه أبلغ من بعض.

ولعل القائلين بالتفاوت البلاغي في القرآن قد انطلقوا من مبدأ القول بوجود سور وآيات أفضل من بعض من ناحية الأجر والثواب، والفرق بينهما أن الأخير قد وردت فيه نصوص صريحة تثبته، بخلاف الأول، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: ((يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال: قلت الله لا إله إلا هو الحي القيوم، قال: فضرب في صدري وقال: والله ليهنك العلم أبا المنذر)) (٢).

هل تفاوتت بلاغة القرآن ؟

أدى تصنيف فنون البلاغة إلى مراتب يعلو بعضها على بعض إلى توهم الحكم بوجود آية أبلغ من آية أخرى، وذلك بسبب كثافة الألوان البلاغية في بعضها دون الآخر.

ولم يغفل العلماء في كتب دلائل النبوة الحديث عن هذه القضية، فقد صرَّح الزيدي بوقوع التفاضل بين الآيات، وفي ذلك يقول:((ومن أقسام الفصاحة: جزالة اللفظ، وهي موجودة في جُلِّ القرآن وجمهوره، وإن لم يوجد في جميعه))(٣)، ثم يتجرأ الزيدي ويُعلِّل بتعليل غير مقبول، حيث يقول:((لأنه ليس في قوة الطويل الذي يُصرف

(١) ينظر : أبحاث في بلاغة القرآن الكريم : ٤٥ .

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه :١ / ٥٥٦ (باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ،دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٩٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على [معانٍ] (١) مختلفة، ومقاصد متباينة، وأغراض متمايزة، كالأوامر والنواهي والزواجر والمواعظ والوعد والوعيد والقصص، والمثل أن يكون جميعه مؤلفاً من ألفاظ جزلة؛ لأن جزالته تكون لتأليفه من حروف مخصوصة، والكلام مبني من الأسماء والأفعال والحروف، وفي الكثير من الأسماء والأفعال والحروف ما لم يؤلف من الحروف التي تقتضي الجزالة، والفصيح إذا صار إلى تلك الأسماء والأفعال والحروف، فلا بد من إيرادها على ما هي عليه، إذا كان متكلماً بكلام العرب)) (٢). ولا يكتفي الزيدي بهذا الحدّ، بل زاد على هذا التعليل دليلاً شبَّه فيه كلام الله تعالى بكلام البشر ــ تعالى الله عما يقول علواً كبيراً ــ وفي ذلك يقول:((ولهذا لا يمكن في شيء من أشعار فحول الشعراء، وكلام البلغاء أن يكون من أوله إلى آخره مؤلفاً من ألفاظ جزلة)) (٣). ثم بيَّن أن العذوبة أمكن من الجزالة؛ وذلك((لأنها تكون بالتلاؤم، وأن لا تكون الكلمة مؤلفة من حروف متنافرة، وذلك أمكن من الجزالة)) (٤)، ثم ساق شواهد من القرآن على وقوع العذوبة والجزالة معاً.

ويؤكد الزيدي في نهاية حديثه عن جزالة اللفظ على وقوع التفاضل بين الآيات، فعندما ذكر قوله تعالى في سورة هود [o n m l k j i h g f Z(٥)، أعقبها بقوله:((وهذه السورة **أكثر** ألفاظها من ألفاظ الجزالة مع العذوبة))(٦)، ففي كلامه هذا ما يدل على وقوع غير الجزل في القرآن الكريم.

وقد يقول القارئ لكلام الزيدي السابق: إنه كان يقصد الجزالة التي تقابل اللين، وذلك في أسلوب الخطاب، وهذا لا عيب فيه.

قلتُ: لو كان يقصد هذا لما أنكرتُ عليه، ولكنه ألمح إلى ضرورة وقوع **الضعف** بعد الآيات الطويلة التي تقصُّ أحوالاً معينة، وذلك حين أشار إلى أن عامة سورة القصص

---

(١) جاء في الأصل [معاني] وصوابها : معانٍ .
(٢) المصدر السابق : ٩٨ ــ ٩٩ .
(٣) المصدر السابق : ٩٩ .
(٤) المصدر السابق : ٩٩ .
(٥) سورة هود : آية : ١ .
(٦) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من الفصاحة العجيبة؛((لأن أول هذه السورة في اقتصاص أحوال موسى ــ صلى الله عليه ــ من مولده إلى مبعثه إلى قصده فرعون مُبلِّغاً ما أُرسل به إليه، وذلك مما يصعب جداً في اقتصاص أحوالٍ بعينها؛ لأنه لا بد من ضعفٍ يعرض فيما جرى مجراه، فإذا أردت أن تتحقق ذلك فتأمل كلام الفصحاء إذا قصدوا هذا القصد)) (١).

كما تنبَّه الماوردي وهو يقف عند الإيجاز القرآني إلى أمر التفاوت والتكرار في النصِّ القرآني، يقول الماوردي: ((فإن قيل: ليس جميعه وجيزاً ومختصراً وفيه المبسوط، والمكرَّر بعضه أفصح من بعض، ولو كان من عند الله لتماثل و لم يتفاضل؛ لأن التفاضل في كلام من يَكِلُّ خاطره، وتضعف قريحته، فعنه جوابان:

أحدهما: أن اختلافه في البسط والإيجاز ليس للعجز عن تماثله، ولكن لاختلاف الناس في تصوره وفهمه، وتفاضله في الفصاحة بحسب تفاضل معانيه لا للعجز عن تساويه.

والثاني: أنه خالف بين معانيه ومختصره، وبين أفصحه وأسهله، ليكون العجزُ عن أسهله وأبسطه أبلغَ في الإعجاز من العجز عن أفصحه وأخصره، ولذلك فاضل بين خلقه ليُعرف به فرقُ ما بين الفاضل والمفضول ... فأما تكرار قصصه، وتكرار وعده ووعيده فلأسباب مستفادة منها أنها في التكرار أوكدُ، وفي المبالغة أزْيد، ومنها أنها تتغاير ألفاظها فتكونُ إلى القبول أسرع، وفي الإعجاز أبلغ، ومنها أنها إنْ أخلَّ بالوقوف عليها في موضعٍ أدركها في غيره، فلم يخْلُ من رغب ورهب)) (٢).

لقد اكتفى الماوردي بهذا الحدّ من الحديث عن هذه القضية، و لم يستشهد لها من القرآن الكريم، بل ذكر ذلك على عمومه ليشمل كلّ القرآن.

وإني أجد في كلام الماوردي السابق ما يوهم القول بتفاوت الفصاحة في القرآن، وعند إنعام النظر في كلامه، وتفحّص مراده منه تبيَّن تساوي فصاحة القرآن عنده في كلَّ موضع من مواضعه، وفي تعليل هذا قيل: ((واعلم أن المعنى الواحد قد يُعبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزأي الجملة، يعبر عنه بأفصح ما يلائم

(١) المصدر السابق : ١٠٠ .

(٢) أعلام النبوة : ١٢٩ ــ ١٣٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجزء الآخر، ولا بد من استحضار معاني الجمل، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أمسِّها وأفصحها، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال، وذلك عتيد حاصل في علم الإله، فلذلك كان القرآن أفصح الحديث وأحسنه، وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح والمليح والأملح)) (١).

لقد أكَّد الماوردي على جانب مهم في قضية التفاوت البلاغي في النص القرآني، وهي تلك التي تتعلق بالتعجيز الفاضح، ذلك أن القرآن الكريم جمع بين الفصيح والأفصح؛ ليكون العجز عن أسهله أبلغ في الإعجاز من العجز عن أفصحه.

ورأي ابن سنان الخفاجي في هذه القضية كرأي الماوردي، كيف لا وكلاهما عاشا في عصر واحد، وقالا بأن الصرفة وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم (٢).

هذا وقد تنبه العلماء ــ قبل الزيدي والماوردي ــ إلى أمر التفاوت والتكرار في النص القرآني، وعلى رأسهم الخطابي والباقلاني، وهم يقتربون من هذا النص، وإلى أيِّ حدٍّ حقق هذه الجمالية سلباً أو إيجاباً، وقد كانت مواقفهم تعكس تلك الرؤية التي درسوا بها النص، لقد ذهب الخطابي إلى رأي يؤكد به نظرته إلى الموضوع من خلال تقسيمه الكلام من حيث جودته الفنية ثلاثة أقسام: الأول: أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والثاني: أوسطه وأقصده، والثالث: أدناه وأقربه، ورأى أن بلاغات القرآن حازت((من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين؛ لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خصّ بها القرآن، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره، ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه)) (٣). وهو بذلك يقول بعدم التفاوت في النص القرآني، من خلال جمعه لهاتين الصفتين في

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز : عزّ الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام الشافعي : ٢٠٤ ، دار المعرفة ، بيروت .

(٢) ينظر : سر الفصاحة : ٢١٥ ــ ٢١٧ ، والباقلاني وكتابه إعجاز القرآن : ٣٥٠ .

(٣) بيان إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ٢٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نظم مسوق معجز عبر حسن اختيار للألفاظ وترتيبها ترتيباً يحقق لها خاصية الوجود في النص القرآني ضمن عدول لغوي ينطلق من معرفة بخاصية كل لفظة دون سواها (١) يقول الخطابي:((اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعت والصفة، وكقولك: اقعد واجلس، وبلى ونعم ... والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك؛ لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا يشتركان في بعضها)) (٢).

وبهذا يتبين أن الخطابي((يركز على دور النظم في تحديد المعنى المراد من الكلمة داخل الاستعمال اللغوي عبر وعي جيد للفروق اللغوية الدقيقة بين الكلمات، ومن هنا يكون التفاوت أو لايكون قيمة انزياحية للغة؛ حيث وفق النص القرآني في وضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب)) (٣).

ثم يأتي القاضي الباقلاني، ويعالج القضية بدقة، وموقفه منها يتحدَّد من خلال قوله:((وهو أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها: من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة. وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها. ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو... وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي

---

(١) ينظر : النقد والإعجاز : د. محمد تحريشي : ٢١٥ ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٤ م .

(٢) بيان إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ٢٩ .

(٣) النقد والإعجاز : ٢١٥ ــ ٢١٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قدمنا ذكرها، على حد واحـــد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا. وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب، من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف. وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتـــاً بينـــاً، ويختلف اختلافاً كبيراً. ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة. فعلمنا بذلك أنه مما لا يقـــدر عليـــه البشر، لأن الذى يقدرون عليه قد بيّنا فيه التفاوت الكثير، عنـــد التكـــرار وعنـــد تبـــاين الوجوه))(١).

ويرجع الباقلاني لهذه القضية في آخر كتابه؛ ليؤكد على عدم وقوع التفاوت البلاغي بين آيات القرآن، لكنه هذه المرة سلك منحى آخر، وذلك حينما بيـــّن تحقق البلاغـــة في أساليب الحقيقة والمجاز على حدٍّ سواء دون تفاوت بينها، فآيات الأحكام يُعتبر فيها ما يُعتبر في غيرها من قوة الأسلوب وعجيب النظم(٢).

ومن خلال ماسبق يتبين لنا بأن الباقلاني يربط التفاوت في النص القـــرآني بـــالنظم، ويرى بأن بلاغة القرآن الكريم في مستوى واحد وفي درجة سواء، فهو((في آيات الوعـــد والتبشير مثله في آيات القصص وآيات الجدل، وآيات الجنة والنار، ومثله حـــين يتعـــرض لمنازع النفوس وطبائع الأمم وتقاليدها إلى آخر ما يتعرض له. وكذلك هو في الإيجاز مثله في الإطناب، وهو عند استعمال اللغة على حقيقتها لا يتدلى عنه حين يستخدمها على طريـــق المجاز)) (٣).

وإني لأعجب من نقد الأستاذ محمود محمد شاكر للقاضي الباقلاني، حين اتهمه بأنه لم يزد في قضية التفاوت شيئاً (٤)، وهو الذي استطاع أن يتحسس مواطن الجمال في النص

---

(١) إعجاز القرآن : ٣٦ ــ ٣٨ .

(٢) ينظر : المصدر السابق : ٢٠٧ ــ ٢٠٩ .

(٣) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن : دراسة تحليلية نقدية : ٥٠٣ .

(٤) ينظر: الظاهرة القرآنية : مالك بن نبي : ٤٥ ــ ٤٦ ، ترجمة : عبدالصبور شاهين ، تقديم: محمد عبـــدالله دراز ، ومحمود محمد شاكر، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق،١٤٢٠ هـــ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القرآني، وأحسب أن الباقلاني ـــ وهو أحد علماء كتب دلائل النبوة ـــ أولى هذه القضية عناية خاصة، وأبدى فيها رأياً سديداً، غير أنه لم يتحدث عنها في موطن الدراسة " كتب دلائل النبوة " بل ذكر ما يرتبط بها، وهو تفاضل الناس في البلاغة (١).

وأرجع أحد الباحثين المعاصرين (٢) رأي الذين قالوا بتفاوت بلاغة القرآن الكريم، وأن منه ما يعلو بعضه إلى بعض (٣)، وإن كان الجميع معجزاً، إلى تأثرهم برأي عبدالقاهر الجرجاني عندما علق على قول الجاحظ: ((جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً، وحبَّب إليك التثبت، وزين في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس، وعرفك ما في الباطل من الذلة، وما في الجهل من القلة)) (٤)، يقول عبدالقاهر:((فما كان من هذا وشبهه لم يجب به فضلٌ إذا وجب إلا بمعناه أو بمتون ألفاظه، دون نظمه وتأليفه، وذلك لأنه لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنعاً، وحتى تجد إلى التخيُّر سبيلا)) (٥).

وقد رأى هؤلاء الذين تأثروا بقول عبدالقاهر الجرجاني في بعض آي القرآن الكريم وسوره نظماً لم يعتمد أكثر من التعاطف ونسق المفردات والجمل نسقا، فقالوا إن هذا النظم أقل بلاغة مما اعتمد الدقة والتفنن في التأليف والنظم، ((ومن العجب أن هذا القول يكاد يلقى الإجماع عند علماء البلاغة)) (٦).

والصواب ـــ والله أعلم ـــ أن بلاغة القرآن في مستوى واحد، وفي درجة سواء، وسبيل واحد في الفصاحة، وأن ما جاء منه في معرض التعاطف والنسق، لا يقل بلاغة في

---

(١) ينظر : البيان عن الفَرْق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات : ٢٩ ـــ ٣٠ .

(٢) هو د. محمد نايل أحمد في كتابه : البلاغة بين عهدين في ظل الذوق الأزلي وتحت سلطان العلم النظري : ١١٤ ـــ ١١٥ ، دار الفكر العربي ، مصر ،١٩٩٤ م .

(٣) ممن قال بتفاوت بلاغة القرآن : عبدالمتعال الصعيدي في كتابه : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة : ١ / ٢٣ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٤٢٠ هـ .

(٤) الحيوان : ١ / ٣ .

(٥) دلائل الإعجاز : ٩٨ .

(٦) البلاغة بين عهدين : ١١٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معناه وموقعه، وفي الغرض الذي سيق له، عن ذلك الذي جاء دقيق النظم، عجيب الصنع، وأن الأول عليه من الإشراق والبهجة، ومن الرونق والبهاء ما لا يقل بلاغة وسحراً عن الثاني وافتتانه؛ لأن جميع ما في كتاب الله ـــ تعالى ـــ قد صادف موقعه وناسب موطنه، وكل عبارة من عباراته، وكلمة من كلماته، في موطنها آية في البلاغة، وشاهد على الفصاحة، وإن كانت ضمن لون أقلّ بلاغة في تقسيمات البلاغيين (١)، فالألفاظ القرآنية منتقاة بعناية؛ لتؤدي وظيفة دلالية خاصة، والسياق هو الذي يفرض التعبير المقصود للمعنى المسوق له؛ لأنه يقتضي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وتلك هي البلاغة.

(١) ينظر : المدخل إلى دراسة البلاغة : د. فتحي فريد : ١٠٨ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ م ، والبلاغة بين عهدين : ١١٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رأي الباحث في مسألة التفاوت:

من خلال تتبعي لأغلب تفاسير القرآن الكـــريم، تمكَّنـــت ــ بفـــضل مـــن الله ــ استخراج ما يقرب من ثلاثين موضعاً بيَّن فيه المفسرون تفاضل بعض القرآن على بعـــض في البلاغة، وبعد دراسة هذه المواضع، استطعت تصنيفها على النحو الآتي:

١ ــ التفاضل بين السور:

يرى الشيخ محمد بن صالح العثيمين بأنَّ السور المكية أقوى وأجزل في اللفـــظ مـــن السور المدنيـــة، وقد أورد ذلك في مقدمـــة تفســـيره لسورة " يس " حـــين قـــال عـــن نزولها:((والذي يظهر ــ يعني سورة يس ــ أنها مكية؛ لأن أسلوبها أسلوب المكي، والسور المكية تمتاز عن السور المدنية: بقوة الأسلوب، وجزالة اللفظ، بخلاف السور المدنيـــة، فـــإن أسلوبها ألين؛ لأنه يخاطب قوماً آمنوا، ويخاطب أيضاً قوماً فيهم أهل كتاب، ليس عندهم من البلاغة في اللغة العربية ما عند العرب)) (١). والجزالة حين يستدعيها المقام تكون بلاغـــة، واللين في مقامه بليغ أيضاً، فالمعيار في هذه الحالة هو مقتضى الحال.

٢ ــ التفاضل بين الآيـــات:

وهذا القسم هو الأكثر شيوعاً وذكراً عند العلماء، فقد اتفق أغلب المفسرين علـــى عقد مفاضلة بلاغية بين مجموعة من الآيات القرآنية، وقاموا بتكرارها وذكرها في أكثر مـــن موضع في تفاسيرهم، ومن تلك المواضع:

ــ قال الله تعـــالى: [k l m n o p q r t u v w x y z { | Z (٢) قال الآلوسي: ((هو أبلغ من قولـــه تعـــالى: [يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ Z (٣)، وإيضاحه أن في هذا دلالة على لزوم الوصف ولزوم الإسناد، وفي ذلك علـــى

(١) تفسير القرآن الكريم : سورة يس : محمد بن صالح العثيمين :٣ ــ ٤ ، اعتنى به وخرَّج أحاديثـــه : فهـــد ابـــن ناصر السلمان ، دار الثريا للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط ٢ ، ١٤٢٤ هـــ .

(٢) سورة هود : آية : ١٠٣ .

(٣) سورة التغابن : آية : ٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حدوث تعلق الجمع بالمخاطبين واختصاصه باليوم ولهذا استدركه بقوله: (الجمع) فأضاف اليوم إليه؛ ليدل على لزومه له، وإنما الحادث جمع الأولين والآخرين دفعة، (وَذَلِكَ) أي يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له (يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) أي مشهود فيه، فاتسع في الجار والمجرور ووصل الفعل إلى الضمير إجراءاً له مجرى المفعول به ... واعتبروا كثرة شاهديه نظراً إلى أنه الذي يستحق أن يطلق اسم المشهود على الإطلاق عليه، ولو جعل اليوم نفسه مشهوداً من غير هذا الاعتبار لم يحصل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزه فإن سائر الأيام كذلك لكن جاء الامتياز من ذلك لما أضيف إليه من الكثرة المهولة المميزة))(١). وقال البيضاوي عند قوله تعالى:] t u v w x y z { | Z (٢) ((هو أبلغ من قوله:] يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ Z (٣)، ومعنى الجمع له: الجمع لما فيه من المحاسبة والمجازاة، (وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) أي مشهود فيه أهل السموات والأرضين، فاتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به ... ولو جعل اليوم مشهوداً في نفسه لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزه فإن سائر الأيام كذلك)) (٤). ويرى المفسِّر محمد بن يوسف أطفيش (٥) بأن قوله تعالى:] t u v w x y z { | Z (٦) أشد مبالغة وبلاغة من قوله تعالى:] يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ Z (٧)، فقوله] v Z مستعار ليجمع، كاستعارة نادى لينادى، واللام على ظاهرها، أي جمع له الناس ليكون يوما عظيما أو بمعنى في، ومراده الجمع له أو فيه الحساب والجزاء] y z { | Z يوم عظيم يشهده

---

(١) روح المعاني : ١٢ / ٤٥٩ ــ ٤٦٠ .

(٢) سورة هود : آية : ١٠٣ .

(٣) سورة التغابن : آية : ٩ .

(٤) تفسير البيضاوي : ٣ / ١٤٨ .

(٥) هو محمد بن يوسف أطفيش الحفصي الجزائري، علاَّمة بالتفسير والفقه والأدب، إباضي المذهب، مولده ووفاته في بلدة يسجن في الجزائر، له أكثر من ثلاثمائة مؤلف، توفي عام ١٣٣٢ هـ. ينظر : الأعلام : ٧ / ١٥٦ ــ ١٥٧ .

(٦) سورة هود : آية : ١٠٣ .

(٧) سورة التغابن : آية : ٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الناس والجن والملائكة والحيوانات كلها أو يشهد بعضهم بعضا فيه، وعلى كل يعظم ولا يقال مشهود إلا ليوم جامع الناس لأمر عظيم أو غريب أو لمهم فيه، ولو جعل اليوم مشهودا لذاته لم يكن عظيما لكن مشهود لما فيه فامتاز كيوم العيد والجمعة وعرفة وإلا فكل يوم قد حضره من هو فيه (١) .

ـ قال الله تعالى: [r s t u v w x | z { | } كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ Z (٢) قال الإمام الرازي: ((في قوله (لهم فيها ما يشاؤون) بحثان: **الأول:** أن هذه الكلمة تدل على حصول كل الخيرات والسعادات، وهذا أبلغ من قوله:] وَفِيهَا مَا ´ µ ¶ ¸ Z (٣)؛ لأن هذين القسمين داخلان في قوله:] z { | } Z مع أقسام أخرى . **الثاني:** قوله:] z { | } Z يعني هذه الحالة لا تحصل إلا في الجنة، لأن قوله:] z { | } Z يفيد الحصر، وذلك يدل على أن الإنسان لا يجد كل ما يريده في الدنيا)) (٤). وكذا النيسابوري قال بأن آية النحل أبلغ من آية الزخرف؛ وذلك لأن في تقديم الظرف دلالة على أن الإنسان لا يجد كل ما يريده إلا في الجنة (٥).

---

(١) ينظر : تيسير التفسير للقرآن الكريم : محمد بن يوسف أطفيش : ٦ / ٣٤ ، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان ، مسقط ، ١٤٠٦ هـ .

(٢) سورة النحل : آية : ٣١ .

(٣) سورة الزخرف : آية : ٧١ .

(٤) مفاتيح الغيب : الفخر الرازي : ٢٠ / ٢١ ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٥هـ.

(٥) ينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان : نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين النيسابوري : ٤ / ٢٥٩ ، تحقيق : زكريا عميران ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ــ قال الله تعـــالى:] دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ Z (١)، وهذا يعني أن تدمير الأحزاب كان عدلاً وقسطاً؛ لأنهم استوجبوه بأعمـــالهم، وهو أبلغ من قوله تعالى:] é ê ë لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ Z (٢)، حيث جعل المنفـــي إرادة الظلم؛ لأن من كان عن إرادة الظلم بعيداً، كان عن الظلم أبعد، وحيث نكَّر الظلم، كأنـــه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده (٣)، وتفسير المعتزلة بأنه ــ سبحانه ــ لا يريد لهم أن يظلمـــوا بَعيد؛ لأن أهل اللغة قالوا: إذا قال الرجل لآخر: (لا أريد ظلماً لك) معنـــاه لا أريـــد أن أظلمك، وهذا تخويف بعذاب الدنيا (٤).

٣ ــ التفاضل بين الجمل:

لم يكتف المفسرون بعقد مفاضلة بلاغية بين الآيات فحسب، بل ذهب بعضهم إلى تفضيل بعض الجمل على بعض في الآية الواحدة، أو مقطع واحد، ومن ذلك ما أورده أبـــو حيَّان عند تفسيره لقوله تعالى:] ¶ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ Z (٥) يقول أبو حيان:((وهذه الجملة ــ يعـــني قولـــه] وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡ Z ــ أبلغ في النفي من الجملـــة الأولى ــ أي قولـــه] مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ Z من حيث كانت اسمية، وتكرر فيها الاسم مرتين، ومن حيث أكد النفـــي بالباء في قوله] بِتَابِعٖ Z، وهي مستأنفة معطوفة على الكلام قبلها، لا على الجواب وحده، إذ لا يحل محله؛ لأن نفي تبعيتهم لقبلتـــه مقيد بشرط لا يصح أن يكون قيداً في نفي تبعيته

---

(١) سورة غافر : آية : ٣١ .

(٢) سورة فصلت : آية : ٤٦ .

(٣) ينظر : الكشاف : ٥ / ٣٤٥ ــ ٣٤٦ ، وتفسير أبي السعود : ٧ / ٢٧٥ .

(٤) ينظر : تفسير النسفي : للإمام أبي البركات عبدالله بـــن أحمـــد النـــسفي : ٤ / ٧٣ ، دار الكتـــاب العـــربي ، ١٤٠٢هـــ .

(٥) سورة البقرة : آية : ١٤٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قبلتهم وفعل ذلك اعتناء بما تقدم)) [1]. وقوله:] وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ Z أي إن اليهود لا تتبع قبلة النصارى، ولا النصارى تتبع قبلة اليهود، ما داموا باقين على اليهودية والنصرانية، وفي ذلك بيان لتصلبهم في الهوى وعنادهم بأن هذه المخالفة والعناد لا يختص بك، بل حالهم فيما بينهم أيضاً كذلك، والجملة عطف على ما تقدم مؤكدة لأمر القبلة ببيان أن إنكارهم ذلك ناشيء عن فرط العناد وتسلية للرسول ﷺ [2].

كما يرى الشيخ عبدالرحمن السعدي بأن قوله:] وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ Z أبلغ؛ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه، و لم يقل: (ولو أتوا بكل آية)؛ لأنهم لا دليل لهم على قولهم، وكذلك إذا تبين الحق بأدلته اليقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه؛ لأنها لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافى الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع [3].

ومن المواضع التي ذكر المفسرون فيها تفاضل جملة على أخرى في مقطع واحد، وموضوع واحد، قوله تعالى:] t u v w x y z { | ~ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن © ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ Z [4] فالبيضاوي يرى أن قوله:] لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ Z أبلغ من قوله:] ~ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ Z ، وذلك من حيث إن الصنع عمل الإنسان بعد تدرب فيه وتروٍ وتحري إجادة، ولذلك ذمّ به خواصهم؛ ولأن ترك الحسنة أقبح من مواقعة المعصية؛ لأن النفس تلتذ بها وتميل إليها، ولا كذلك ترك الإنكار عليها فكان جديراً بأبلغ

---

(١) البحر المحيط : ١ / ٦٠٦ وينظر : روح المعاني : ٢ / ٥٦١ .

(٢) ينظر : روح المعاني : ٢ / ٥٦١ .

(٣) ينظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي : ٧٢ ، تقديم : الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل ، والشيخ محمد بن صالح العثيمين ، تحقيق : عبدالرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ.

(٤) سورة المائدة : آية : ٦٢ ــ ٦٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذم [١]، ويقارن الفخر الرازي بينهما مقارنة لطيفة حيث يقول: ((إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى؛ لأنه ــ تعالى ــ قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت [~ مَاكَانُوْا يَعْمَلُوْنَ Z، وقال في العلماء التاركين للنهي عن المنكر [لَبِئْسَ مَاكَانُوْا يَصْنَعُوْنَ Z، والصنع أقوى من العمل؛ لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار مستقراً راسخاً متمكناً، فجعل جرم العاملين ذنباً غير راسخ، وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنباً راسخاً، والأمر في الحقيقة كذلك؛ لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم بالله وبصفاته وبأحكامه، فإذا حصل هذا العلم وما زالت المعصية، كان مثل المرض الذي شرب صاحبه الدواء فما زال، فكما أن هناك يحصل العلم بأن المرض صعب شديد لا يكاد يزول، فكذلك العالم إذا أقدم على المعصية، دلَّ على أن مرض القلب في غاية القوة والشدة))[٢]. وأما أبو حيان وابن عاشور فيريان أن المغايرة بينهما لمجرد التفنن في الفصاحة، ولترك تكرار اللفظ [٣].

٤ ــ التفاضل بين المفردات:

عقد بعض المفسرين مفاضلة بلاغية بين مفردتين قرآنيتين هما " إمْرا ــ ونُكْرا "، وذلك في قصة الخضر مع موسى ــ عليه السلام ــ في سورة الكهف، حيث يقول سبحانه: [فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ ´ µ ¶ ¸ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ Z [٤]، ويقول سبحانه: [فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ à زَكِيَّةًۢ â نَفْسٍۢ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا ç è Z [٥]، الإمْر: هو الشيء العظيم الشنيع [٦]، وقال الراغب الأصفهاني: ((

(١) ينظر : تفسير البيضاوي : ٢ / ١٣٤ .
(٢) مفاتيح الغيب : : ١٢ / ٣٤ .
(٣) ينظر : البحر المحيط : ٣ / ٥٣٣ ، والتحرير والتنوير : ٥ / ١٤٥ .
(٤) سورة الكهف : آية : ٧١ .
(٥) سورة الكهف : آية : ٧٤ .
(٦) ينظر : لسان العرب : " أمر " ١ / ١٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النُّكْر هو الدَّهاء، والأمر الصعب الذي لا يُعرف)) (١)، والمنكر ما أنكرته العقول، ونفرت منه النفوس، وهو أبلغ وأشد في التقبيح من الشيء الإمْر (٢)؛ لأن المنكر ـــ وهو قتل الخضر للغلام ـــ فساد حاصل، والإمْر ذريعة فساد؛ فالعلم الذي عمله الخضر ذريعة لغرق السفينة، و لم يقع الغرق بالفعل (٣).

٥ ـــ التفاضل بين القراءات القرآنية:

لقد التفت المفسرون والعلماء إلى أثر تغاير القراءات القرآنية في اختلاف المعاني، وصلته بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وبلغ من عناية بعضهم بالتوجيه البلاغي للقراءات، وبيان صلتها بإعجاز القرآن، أن عقدوا له دراسات مستقلة به (٤).

ومن المواضع التي اختلف فيها العلماء والمفسرون، تنكير كلمة (حياة) أو تعريفها(٥)، في قوله تعالى: [> ? @ A B C D E G

H I J K L M N O P Q R S U V W X Y

Z(٦)، فعند الزمخشري قراءة التنكير أوقع معنى من التعريف؛ ((لأنه أراد حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة)) (٧)، ولذلك قدرها بعضهم على حذف مضاف، أي على طول

---

(١) المفردات في غريب القرآن : ٥٠٧ .

(٢) ينظر : روح المعاني : ١٥ / ٤٢٦ ، والتحرير والتنوير : ١٥ / ١١٣ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ١٥ / ١١١ ـــ ١١٣ .

(٤) تمثلت هذه الدراسات في رسالة دكتوراه بعنوان (التوجيه البلاغي في القراءات القرآنية) للدكتور : عبدالله عليوه ، بكلية اللغة العربية في الأزهر ، وبحث بعنوان (مدخل القراءات القرآنية في الإعجاز البلاغي) للدكتور: محمد شادي ، وبحث بعنوان (البلاغة في القراءات الشاذة عند ابن جني) للدكتور : عبدالمنعم الأشقر.

ينظر : التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية : د. أحمد سعد محمد : ١٢ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٢١هـ.

(٥) قرأها الجمهور نكرة منونة ، وقرأها أبيّ بالألف واللام (على الحياة) ، ينظر : البحر المحيط : ١ / ٣١٣ .

(٦) سورة البقرة : آية : ٩٦ .

(٧) الكشاف : ١ / ٣٠٠ ، وروح المعاني : ١/ ٤٤٧ ، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية : د. محمد أبو موسى : ٢٦٦ ، دار الفكر العربي .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حياة، أو على حذف صفة، أي على حياة طويلة، ولكنَّ أبا حيان يرى أنه لو لم يقدر حذف لصحَّ المعنى، وهو أن يكون أحرص الناس على مطلق حياة؛ لأن من كان أحرص على مطلق حياة، وهو تحققها بأدنى زمان، فلأن يكون أحرص على حياة طويلة أولى، وكانوا قد ذُموا بأنهم أشد الناس حرصاً على حياة، ولو ساعة واحدة (١).

ويبدو أن أفضلية التنكير وبلاغته على التعريف، التي قال بها الزمخشري ومن وافقه، قد كان من تأثرهم برأي عبدالقاهر الجرجاني حين قال: ((إذا أنت راجعت نفسك، وأذكيت حسك، وجدت لهذا التنكير، وأَن قيل (على حياة) ولم يقل (على الحياة) حُسناً وروعة ولطف موقع، لا يُقادر قَدره. وتجدك تعدَم ذلك مع التعريف، وتخرج عن الأرْيحية والأنس إلى خلافهما. والسبب في ذلك أن المعنى على الازدياد من الحياة، لا الحياة من أصلها، وذلك لا يحرِص عليه إلا الحي. فأما العادم للحياة فلا يصح منه الحرص على الحياة ولا على غيرها. وإذا كان كذلك صار كأنه قيل: (ولتجدنهم أحرص الناس، ولو عاشوا ما عاشوا، على أن يزدادوا إلى حياتهم في ماضي الوقت وراهنه حياةً في الذي يَستقبِل). فكما أنك لا تقول هاهنا:(أن يزدادوا إلى حياتهم الحياة) بالتعريف، وإنما تقول (حياةً) إذ كان التعريف يصلح حيث تراد الحياة على الإطلاق، كقولنا: (كل أحد يحب الحياة ويكره الموت)، كذلك الحكم في الآية))(٢).

هي إذاً تحليلات متداخلة المعنى، ومرجعها في الأساس إلى تذوقنا لمقام الكلمة داخل سياقها، وتنكيرها بعد ذلك يفيد النوعية أو التحقير، إذ اليهود والذين أشركوا، أحرص الناس على أيَّةِ حياة، لا يهم أن تكون رفيعة أو وضيعة، وهي مع ذلك غالية عندهم (٣).

وقد أورد ابن عاشور في المقدمة السادسة من تفسيره شبهة بيَّن فيها إمكانية رجحان بعض القراءات على بعض في البلاغة فقال:((فإن قلت: هل يفضي ترجيح بعض

---

(١) ينظر : البحر المحيط : ١ / ٣١٣ .

(٢) دلائل الإعجاز : ٢٨٨ ــ ٢٨٩ .

(٣) ينظر : التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية : ١٤١ ، ومن بلاغة القرآن : د. أحمد أحمد بدوي : ١٠٢ ، نهضة مصر ، ٢٠٠٥ م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القراءات على بعض إلى أن تكون الراجحة أبلغ من المرجوحة، فيفضي إلى أن المرجوحة أضعف في الإعجاز؟

قلت: حدُّ الإعجاز مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهو لا يقبل التفاوت، ويجوز مع ذلك أن يكون بعض الكلام المعجز مشتملاً على لطائف وخصوصيات تتعلق بوجوه الحسن، كالجناس، والمبالغة، أو تتعلق بزيادة الفصاحة، أو بالتفنن مثل:] أَمْ تَسْئَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ Z (١)، على أنه يجوز أن إحدى القراءات نشأت عن ترخيص النبي ﷺ للقارئ أن يقرأ بالمرادف؛ تيسيراً على الناس، كما يشعر به حديث تنازع عمر مع هشام ابن حكيم (٢)، فتروى تلك القراءة للخلَف، فيكون تمييز غيرها بسبب أن المتميزة هي البالغة البلاغة، وأن الأخرى توسعة ورخصة، ولا يعكر ذلك على كونها أيضاً بالغة الطرف الأعلى من البلاغة، وهو ما يقرب من حدّ الإعجاز)) (٣).

وبعد، فقد رأينا إسهامات علماء كتب دلائل النبوة في هذه القضية، ورأينا كيف أسَّسوا لها برأي سار البلاغيون من بعدهم عليه، خاصة ما أورده الباقلاني حين وضع ميزاناً للبلاغة في القرآن وهو، أن القرآن كله درجة واحدة في البلاغة، وسبيل واحد في الفصاحة، وأن كل عبارة بليغة في موطنها حسب ما يقتضيه سياقها.

---

(١) سورة المؤمنون : آية : ٧٢ .

(٢) روى البخاري حديث سعيد بن عُفير أنه قال : ((حدثني الليث قال: حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: حدثني عروة بن الزبير أن المسْور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القارئ حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم فلبَّبْته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت : كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت : إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: أَرسلْه، اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول ﷺ: كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه)). أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن : باب أنزل القرآن على سبعة أحرف : ٤ / ١٩٠٩ .

(٣) التحرير والتنوير : ١ / ٦١ ــ ٦٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com